الحمار الذهبي

(أو التحولات)

تأليف: لوكيوس أبوليوس

ترجمة: عمّار الجلاصي

أعده للنشر موحمد ؤمادي

ملاحظة: لقد إعتمدنا نسخة السيد الجلاصي لم فيها من دقة، بالرغم من أن الكتاب كان قد ترجم مرتين، الأولى: من قبل الأستاذ علي فهمي خشيم عن الإنجليزية التي بدورها كانت قد ترجمت عن اللاتينية، والثانية: من قبل الأستاذ أبو العيد دودو عن الفرنسية التي كانت قد ترجمت عن اللأتينية، وبهذا تكون النسخة التي بحوزتنا الوحيد المترجمة مباشرة عن اللأتينية.

الحمار الذهبي

(أو التحولات)

تأليف: لوكيوس أبوليوس

ترجمة: عمّار الجلاصي

مقدّمة المترجم

"الحمار الذّهبيّ أو التّحوّلات" ثانية روايتين خلّفهما لنا الأدب اللاّتينيّ. مؤلّفها لوكيوس أبوليوس، أحد أشهر كتّاب القرن الثّاني وُلد في مادورة (مدوروش بالجزائر حاضرا) في 124 م. تعلّم بقرطاج وأثينا ثمّ أقام، وربّما اشتغل محاميا، بروما. ثمّ عاد إلى إفريقية، وتزوّج بأوية (طرابلس) أثناء سفر إلى الإسكندريّة أرملة غنيّة، رفع ضدّه ابنها وحمو أخيه وعمّه قضيّة بتهمة تعاطي السّحر في محكمة صبراتة 159. فكتب "مرافعة عن نفسه". ثمّ عاش في قرطاج حيث كتب عدّة خطب ومقالات جمع بعضها تحت اسم "المنتخبات". له كذلك كتب فلسفيّة: "أفلاطون ومذهبه"، "في إله سقراط"، "في الكون". كما تنسب إليه كتب أخرى في مجالات عدّة. يرجّح أنّه كتب روايته هذه بعد 170، وأنّه اقتبسها من كاتب يونانيّ بقي ملخّص من قصّته يُنسب للقيانوس السّموساطيّ معاصره السّوريّ. لكنّه صاغها بأسلوبه الفذّ وأعطاها إلى جانب طابعها الشّيّق بعدا فلسفيّا.

وممّا يعطي قصّته نكهة فريدة مزاوجته بين أساليب شتّى من تشويق وفكاهة وإثارة جنسيّة ورعب وفظاعة وفخامة وجلال. ولها كذلك قيمة تاريخيّة ثابتة فهي مصدر مهمّ لمعرفة

ديانات المسارّة المنتشرة في الإمبراطوريّة الرّومانيّة في ذلك العصر والّتي أثّرت في المسيحيّة، وعلى الأخصّ ديانة إيزيس. ومن الطّريف أنّ بطلها حمار أو بالأحرى إنسان مُسخ حمارا لكنّه احتفظ بقدراته العقليّة، ونقلته الصّدف بين أيد شتّى، فشارك من خلال تنقّله في عدّة مغامرات وشاهد أخرى أو سمع بها. فهو بنحو ما كبطلي الأوديسّة والإنيادة. وتصف لنا الرّواية، في أسلوب غلب عليه الطّابع الهزليّ، معاناة الحمار على أيدي النّاس، صغارهم وكبارهم، ومن كلا الجنسين. لكن قرائن عديدة تحمل على الاعتقاد بأنّ أبوليوس أراد من خلال مغامرات حماره الممتعة تبليغنا رؤيته الأفلاطونيّة، والأقرب بالأحرى إلى الأفلاطونيّة المحدثة وللمذاهب الغنوصيّة، لمعنى الحياة الإنسانيّة.

قبل الإفساح لأبوليوس نودّ الإشارة إلى أنّا ألحقنا بالرّواية تراجم للشّخصيّات الميثولوجيّة والتّاريخيّة والأماكن الواردة وتفسيرا لمعاني أسماء شخصيّات الرّواية "وجلّها يونانيّة، وهي جزء من أساليب الفكاهة عنده) وحواشي وملاحظات (مشار إلى مواضعها بعلامة ( ) ". وكذلك بعض الأفكار حول أصول الرّواية وصورة الحمار في أدبيّات الشّعوب وعن معنى الرّواية الفلسفيّ. كما وضعنا عناوين للفقرات، وفرّقنا بين جملها بالتّنقيط أو بعلامة × لتيسير الرّجوع إلى النّصّ اللاّتينيّ لدى الحاجة). وحاولنا تقديم ترجمة قريبة من النّصّ الأصليّ قدر الإمكان حتّى في بنية الجمل. وذلك أمر عسير لاختلاف اللّغتين، خاصّة أنّ تراكيب أبوليوس معقّدة، ومليئة بالصّيغ البلاغيّة من جناس وسجع ومجاز (وقد ذكرنا أبرزها) وتحمل أحيانا. وبصفة

متعمّدة، أكثر من معنى، وهو يسرف في استعمال التّصغير والمفعول فيه المطلق (الشّبيه بالحال الوارد جملة عندنا). واللّه وليّ التّوفيق.

11 تشرين الأوّل 2000 ، عمّار الجلاصي

الكتاب الأول

1-1 تمهيد

ها أنا سأجمع لك في هذا الخطاب المؤلّف على النّمط الميليتيّ(1) قصصا متنوّعة وسأشنّف أذنيك الجاملتين بهمس لطيف إن لَم تأنف النظر إلى هذه الطَرائف الّتي خطّتها على ورق البرديّ المصريّ حذاذة يراع النّيل. فتشاهد معجَبا تقلّب أحوال البشر وهيئاتهم: تتغيّر ثم ترتدّ فتعود كما كانت. أستهلّ مجيبا ببضع كلمات عن سؤالك من أنا: أنا سليل أسرة عريقة استوطنت تلّ هيمتّوس* الأتّيكيّ* وخليج أفورية* ومنطقة التينار* الإسبرطيّة، وهي ربوع طيّبة كريمة أسّس أمجادها الخالدة بنوها الأكرمون. هنالك تعلّمت منذ فجر الطّفولة اللّسان الأتّيكيّ؛ ثمّ اغتربت في مدينة اللاّتين حيث عكفت على دراسة لغة الرّومان القحّة بجهد جهيد وبدون معلّم يقود خطاي. لذا أستميحك معذرة إن أسأت لقلّة خبرتي التّحدّث

(1) النّمط الميليتيّ: لون أدبيّ يقوم على جمع قصص ومغامرات تحتوي على إثارة جنسيّة عادة، نشأ في مدينة ميليتوس في القرن الثّاني ق م، ضاع كتاب أشهر ممثّليه أرستيدس الّذي ترجم فورا إلى اللاّتينيّة.

بهـذه اللّغة الأجنبيّة الغريبة عنّي(1) . وتغيير اللّغة في حدّ ذاته يطابـق منهج الفـنّ البهلوانيّ الّذي نحن بصـدده. ها نحن نبدأ قصّة من الطّراز اليونانيّ: فتنبّه أيّها القارئ، وستستمتع(2).

1-2 لقاء على طريق هيباتة

كنـت أقصـد، لقضـاء حاجـة، تسّـالية(3). فإليهـا تنتمي أسـرة أمّي الّتي شـاد أسسـها أفلوطرخس* الشّـهير وابن أخيه الفيلسـوف سكسـتوس* صانعـا مجدنا. بعدمـا اجتزت جبالا شـاهقة وسـهولا منبسـطة ومراعي نديّة وحقولا مدرة، أركب حصانـا محلّيّـا ناصع البيـاض، رأيته قد نال منـه الإعياء. ولأزيل كذلـك عنّي كلل الجلوس، نزلت على قدميّ لأتمشّـى وأتنشّـط، فنشّـفت عرق حصاني ماسـحا جبينه بعنايـة، وربّتّ برفق على

(1) اعتـذار أبوليوس عـن جهله باللاّتينيّة: هو طبعا تواضع أدبيّ نجد مثله عند كبـار الأدباء (انظر المعرّي مثلا في "رسـالة الملائكـة"). فهو من فرسـان البيان اللاّتينـيّ بل يكتب في شـتّى المواضيـع باللّغتين كما يؤكّد مثـلا في المرافعة وفـي المنتخبات 9؛ والجملة الأولى وحدهـا تبيّن تملّكه ناصية البيان: At ego tibi sermone isto Milesio varias fabulas conseram auresque tuas benivolas lepido susurro permulceam, modo si papyrum Aegyptiam argutia Nilotici calami inscriptam non spreveris inspicere انظـر إلى السّـجع، وانظـر إلـى التّناظر حتّى فـي نوع الكلمات من أسـماء وضمائـر ونعوت وفي طولها، وكذلك إلى إشـارته الخفيّة إلى مضمون روايته: فما عبثا أتت الإشـارة إلى مصر وإلى حذاذة يراع النّيل (أو ربّما إلى مصادر مصريّة إلى جانب اليونانيّة)، ثمّ انظر ابتداءه الرّسالة كأنّها أتت تتمّة لحديث سابق.

(2) ستستمتع: التّمهيد شبيه بما نجد في مسرحيّات ترنتيوس حيث نجد نفس الدّعوة إلى الانتباه والوعد بالمتعة.

(3) ورود الرّوايـة بضمير المتكلّـم: أراد أبوليوس إعطاءنا معلومات عن نفسـه وفكره، وإضفاء الواقعيّة عليها وذلـك مطلوب في النّصوص الفكاهيّة، ونجده في روايات سـابقة أو معاصرة (سـاتيريكون لبترونيوس، ليوكيبس وكليتوفون لتاتيـوس). ونجـده كذلـك فـي فـنّ المقامـة فـي الأدب العربـيّ (الهمذانيّ، الحريريّ...)

أذنيه، ثمّ نزعت لجامه، وقدته الهوينى ليستريح من وعثاء السّفر ويطلق مـا احتبس لديه مـن الخضام الطّبيعيّ المألـوف. وبينما راح حصانـي يقتطف غداءه، مادًا رأسـه على جانب الطّريق عبر الحقول، وجدت نفسـي ثالث رفيقي سفر كانا بالصّدفة يسبقاني بمسافة قصيرة. أنصتّ بفضول إلى حديثهما فإذا أحدهما يقول ضاحـكا: "كفى يا صاح من هذه الأكاذيب السّـخيفة الأكبر من أن تصدّق". ما إن سمعت ذلك حتّى أثار ظمئي إلى الجديد؛ فقلت: "عفوا يا صاحبَي الدّرب! هلاّ أشـركتماني في حديثكما! لسـتُ فضوليّـا وإنّما أودّ معرفة ما تخوضان فيـه، كلّه أو أكبر قدر ممكن منه، عسـى أن تخفّـف طرافة قصصكما الشّـيّقة وعورة التّلّ الّذي شرعنا في ارتقائه."

1-3 نقاش حول عجائب السّحر

غيـر أنّ المتكلّـم الأوّل اسـتأنف: "مـا هذه التّرّهـات، لعمري، بأصحّ من الادّعاء بأنّ بمقدور التّعاويذ السّـحريّة أن تقلب مجرى السّيول الدّافقة، أو تمسـك البحر ساكنا، أو تكتم أنفاس الرّياح، أو توقف دوران الشّـمس، أو تقشـد زبد القمر#، أو تقتلع النّجوم أو تلغي النّهار وتجعل اللّيل سـرمدا." فتشجّعت وتدخّلت قائلا: "واصل أيّهـا الرّاوي حكايتك، أرجـوك؛ ولا يمنعْك غيظ ولا أنفة!" وللآخر: "أمّا أنت، فربّما رفضـت أخبارا صحيحة صامًّا أذنيك مقرّا فـي العناد فـؤادك. إنّك لعمري قليـل الدّراية بتلـك الأمور الّتي تعدّها أباطيل بناء على أفكار مسبقة خاطئة، لأنّها تبدو جديدة على سـمعك أو طارفة على بصـرك أو صعبة على فهمك وفوق متناول إدراكك. ولو تفحّصتها بمزيد من التّدقيق لوجدتها جديرة

بالثّقة نظريّا سهلة التّحقيق عمليّا.

1-4 مثال ألعاب المشعوذين

أنا مثلا كنت أتعشّى إحدى الأماسيّ في جماعة قرص شعير وجبن فأردت من باب المراء التهام لقمة أكبر ممّا اعتدت شيئا ما؛ فكدت أموت مختنقا بعدما التصقت بحلقي اللّقمة الدّبقة وسدّت نفَسي. مع ذلك رأيت مؤخّرا قبيل الحادثة بعينيّ هاتين، في أثينة أمام رواق البقيل* لاعبا مشعوذا يبتلع سيف خيّالة عريضا لهذما من شفرته الحذمة. ثم ما لبث، مقابل بضع دوينقات، أن أغمد في أحشائه حربة صيد من الجهة الفتّاكة. وإن هي إلاّ لحظة حتّى برز، على طرف قضيب الرّمح الّتي انغرزت في بطنه قناتها لتخرج من قذاله، صبيّ غضّ الجمال يؤدّي رقصة رشيقة غنجاء، متلوّيا في انعطاف وارتخاء، مثيرا إعجاب كلّ الحاضرين. كأنّه في تثنّيه تلك الحيّة المباركة الملتفّة في انسياب حول صولجان إله الطّبّ(1) المشذوب. لكن دعنا من ذلك وواصل القصّة الّتي بدأتها، أرجوك؛ سأصغي إليك وحدي مصدّقا نيابة عنه، وسأشركك في غدائي عند أوّل حانة نتوقّف فيها؛ أقترح عليك هذه الصّفقة."

1-5 قصّة أرسطومانس

ردّ الرّجل: "أقبل بالتّأكيد ما عرضت بسرور وطيب خاطر(2)؛

(1) إله الطّبّ: أسكولابيوس ابن أبولّون، صعقه يوبتر بعد إعادته ميّتا إلى الحياة. يذكر أبوليوس في المرافعة 55 أنّه ألقى محاضرة عنه في أوية، وفي "المنتخبات" 18 نشيدا ألّفه باللّغتين اليونانيّة واللاّتينيّة له.

(2) بسرور وطيب خاطر: aeque bonique أو "بلباقة وطيبة" إن كان المنعوت

لذا سأعيد عليك ما بدأت؛ لكن سأقسم لك أوّلا بهذه الشّمس الإلهيّة المطّلعة على كلّ الكائنات ألاّ أذكر سوى ما ثبت عندي يقينا. ولن يساوركما فيه شكّ بعد وصولكما إلى أقرب مدينة في تسّالية*. فهناك تتناقل ألسنة النّاس تلك الوقائع الّتي تمّت بمرأى الجميع. لكن لتعلما أوّلا من أيّ بلاد أنا ومن أكون، أقول: أنا من إيجيون*. أمّا عن المهنة الّتي أعيش منها، فاعلما أنّي أذرع تسّالية وإيتولية* وبويتية* في كلّ صوب للاتّجار بالعسل والجبن وما شابههما من السّلع الخاصّة بالحانات. لذا لمّا علمت بوجود جبن طازج زكيّ المذاق معروض للبيع بسعر مغر في هيباتة*، أهمّ مدن تسّالية* قاطبة، أسرعت فورا لشرائه كلّه. لكن، وكما يحدث عادة، خيّب انطلاقي بالرّجل اليسرى أملَ الرّبح المرجوّ، فقد اشترى كلّ المعروض دفعة واحدة في اليوم السّابق تاجر كبير يدعى لوبوس*. لذا توجّهت عند حلول المساء إلى الحمّام منهكا من عجلتي الّتي ضاعت سدى.

1-6 لقاء مفاجئ

وإذا بي أشاهد صديقي سقراطَ* جالسا على الأرض، ملتحفا رداء ممزّقا لا يكاد يستره، وقد غيّر ملامحه الهزال حتّى صار يشبه أولئك البائسين الّذين يدفعهم نكد الحظّ إلى التّسوّل في السّاحات العامّة. اقتربت منه وقد داخلتني بشأنه الشّكوك، رغم معرفتي الجيّدة به وعلاقتنا الحميمة، وقلت: "عجبا، ما خطبك يا عزيزي سقراط؟ ماذا تفعل هنا؟ وأيّ خزي هذه الّذي أرى؟ في بيتك بكاك وناداك النّداء الأخير الأهلون منذ مدّة وعيّن

فعل "عرضت" لا "أقبل".

قاضي النّاحية(1) كفلاء لأبنائك. وزوجتك الّتي أدّت لك الطّقوس وأذواها الحداد الطّويل وحذلت عيناها، يُكرهها أبواها اليوم على التّعزّي عن كآبة بيتك بأفراح زواج جديد. بينما أراك هنا، يا لعارنا، شبحا عائدا من غياهب العالم السّفليّ*." أجاب: " أخي أرسطومان* لا إخالك تجهل تقلّبات الحظّ الزّحلاقة وتبدّل أحواله وتناوب صروفه " وغطّى بردائه الخلق وجهه المحمرّ من الخجل وهو يقول ذلك، بحيث عرّى جسمه ما بين السّرّة والخاصرة. فلم أطق مشهد بؤسه الممضّ ومددت إليه يدي محاولا إيقافه.

1-7 قصّة سقراط

لكنّه لبث كما كان وستر وجهه قائلا :"كلاّ كلاّ، ذر الحظّ(2) يسعد أطول بنصب النّصر الّذي أقام لنفسه." أخيرا نجحت في حمله على اتّباعي، وفي نفس الوقت نضوت أحد شقّي ردائي وسارعت أكسوه به أو أستر عريه، لا أدري ما الأصحّ، وحملته فورا إلى الحمّام، فطفقت أدلّكه وأغسله، مسخّرا كل طاقاتي لخدمته، حتّى أزلت عنه طبقة سميكة من الأوساخ. بعدما وظّبته جيّدا، أخذته إلى فندق، مسندا جسمه المكدود بمشقّة لتعبي أنا نفسي؛ فأرحته على فراش، وأشبعته من الطّعام وأنعشته بالشّراب، وسلّيته بطريف الفكاهات. حتّى انفتحت شاهيّته للحديث والضّحك، واستخفّه ظريف الهزل، واستثاره لطيف

(1) قاضي النّاحية: juridicus provincialis خطّة وجدت منذ عهد أغسطس، ألغيت وأعادها الامبراطور مرقس أورليوس 161-180؛ في مصر كان يساعد الوالي الّذي يدعى هناك praefactus لا proconsul.

(2) الحظّ: المقصود هنا الحظّ مشخّصا في ربّة الحظّ، وهو كما سنرى حاضر طوال رواية أبوليوس، وله دور مماثل للقدر في إنياذة ورجيليوس. يعطيه مكيافلّي في "الأمير" أهمّية مماثلة.

المزاح. لكنّه ما لبث أن أخرج من أعماق صدره زفرة حارّة وضرب بيمينه بشدّة على جبينه وقال: "يا لبؤسي، أنا الّذي كنت أَنشُد متعة الفرجة على عرض مصارعة تناقلت خبره ألسنة النّاس. كما تعلم ذهبت إلى مقدونية* للاتّجار، وعدت مثريا بعد التّفرّغ لأعمالي بها عشرة أشهر. وقبل وصولي إلى لاريسة* بقليل، بينما كنت أقصد عبر طريق مختصرة ذلك العرض، هاجمني في شعب عميق منعزل لصوص عتاة. ففررت بجلدي مجرّدا من كلّ أموالي. نزلت، وأنا على تلك الحال في حانة لامرأة تدعى مِروة*، مسنّة لكنّها احتفظت بظُرفها، فذكرت لها أسباب حالتي وأخبار رحلتي الطّويلة وعودتي المنكودة وحادثة السّلب المؤسفة. فطفقت تعاملني بمروءة، مقدّمة لي طعاما مريئا ومجّانيّا(1)، ثمّ لم تلبث وقد أثارتها نار الشّهوة أن قاسمتني مضجعها. فلم يكن، يا لبؤسي، سوى ذاك اللّقاء الوحيد لأقع في عِشرة تلك العجوز الوبيئة. واضطررت إلى التّنازل لها عن كلّ ما لديّ، حتّى الملابس الّتي تركها لي أولئك اللّصوص الرّحماء لستر جسمي، وكذلك الدّوينقات الّتي كنت أكسبها من العتالة بفضل ما بقي من حيويّتي، إلى أن أوصلتني تلك الزّوجة العروب(2) وحظّي السّيّء إلى الحالة الّتي رأيتني عليها قبل قليل."

1-8 ساحرة عليمة

قلت: "إنّك جدير لعمري بمعاناة أقصى الأنكال، إن كان يوجد

(1) مريئا ومجّانيّا: gratae et gratuitae جناس مضارع.

(2) الزّوجة العروب: يستخدم أبوليوس قلب المعنى antiphrasis كالمدح بمعنى الذّمّ ونجد ذلك في العربيّة أيضا.

حقّا أقصى ممّا ذكرتَ، إذ آثرت على بيتك وبنيك ملاذّ الشّهوة وموسما مترهّلة." ردّ صاحبي، واضعا سبّابته على فمه، ومتسمّرا في ذهول: "سكوتا، سكوتا". وبعد أن تلفّت حواليه ليتأكّد من إمكانيّة التّحدّث بأمان، تابع: "حسبك! على نفسك تجني بفلتة لسانك اللّجوج في حقّ امرأة تملك قوى خارقة." هتفت: "ماذا تقول، ويحك! أيّ امرأة هي، ملكة الفنادق الجبّارة الّتي ذكرت؟" أجاب: "ساحرة وعرّافة قادرة على إنزال السّماء ورفع الأرض، على تجميد الينابيع وتذويب الجبال، على تصعيد الأشباح وتنزيل الآلهة، على إطفاء النّجوم وإضاءة سُدف الترتار*." قلت: "أرجوك، نحّ ستار التّمثيل، واطو هذا السّجف المسرحيّ وأفصح لي بالكلام العاديّ." ردّ: "أتودّ سماع هذا المثال أم ذاك، بل عديد كراماتها؟ إنّ إضرام هواها، لا في سكّان هذه النّواحي فقط، بل والهنود والأحباش بفريقيهم وحتّى سكّان أقاصي الأرض غيض من فيض علمها وألعاب صبيان عندها: إليك ما صنعتُ على مرأى من عدّة شهود.

1-9 أمثلة من سحر مروة

بكلمة واحدة مسخت عاشقا هجرها وتعلّق بسواها قندسا. لأنّ هذا الحيوان يلجأ، خشية الوقوع في قبضة مطارديه إلى بتر أنثييه، فأرادتْ أن يحصل للرّجل نفس الأذى جزاء عدوله عنها إلى سواها. كذلك حوّلت جارا لها خمّارا إلى ضفدع، لأنّه منافس لها، واليوم يدعو هذا الشّيخ وهو يسبح في زقٍّ من خمره، متخبّطا في الثّفالة، روّاد حانته القدامى إلى خدماته في نقيق أجشّ(1). وشخص آخر محام رافع ضدّها مسخته كبشا،

(1)خدماته/ أجشّ: roncis/raucus جناس مضارع.

واليوم يصول ذلك الكبش في المحاكم. كذلك حكمت على زوجة عشيقها الحبلى الّتي شتمتها بأن تظلّ حاملا إلى الأبد بإغلاق رحمها وإرقاد جنينها. والمسكينة اليوم مثقَل منذ ثمانية أعوام، كما يعدّ لها الجميع، وقد مغّطها حِملها كأنّها ستضع فيلا.

1-10 ساحرة تتصدّى لمدينة بأكملها

لمّا آذت الكثيرين مرارا وتكرارا، عمّ السّخط واتّخِذ يوما قرار بإقامة حدّ الرّجم عليها بصرامة من الغد. فأحبطت الخطّة برقاها، ومثل ميدية* الّتي بعد الحصول على مهلة يوم واحد من كريون*، أحرقت باللّهب المنبعث من تاج (منافستها) البيت كلّه والبنت مع أبيها العجوز. ألقت هذه السّاحرة في حفرة(1) طلاسم مجتلبة من القبور، كما روت لي مؤخّرا هي نفسها تحت تأثير السّكر، فحبستهم جميعا في ديارهم بقوّة سحرها الصّامتة، فبقوا فيها طيلة يومين عاجزين على كسر الأقفال أو قلع الأبواب أو ثقب الجدران. إلى أن جأروا بصوت واحد ضارعين، مقسمين بأغلظ الأيمان ألّن يرفعوا أبدا أيديهم لإيذائها وأن يقدّموا لها العون إن فكّر أحد في مسّها بسوء. إذّاك هدأت سورة غضبها فعفت عن أهالي المدينة؛ إلاّ مدبّر تلك المؤامرة، فقد نقلته في ليلة ظلماء مع البيت برمّته، بجدرانه وأرضيّته وأسسه وفي هيئته، مغلقا إلى مدينة أخرى تقع على بعد مائة ميل على قمّة جبل وعر، ومن ثمّ شحّ ماؤها. ولأنّ مبانيها المتراصّة الغاصّة بالسّكان لا تدع مجالا لساكن جديد، ألقت بالبيت أمام باب المدينة وانصرفت."

(1) حفرة: أوديسّيوس أيضا ألقى في حفرة بعض الموادّ للنّزول إلى العالم السّفليّ. أوديسة 11: 25-53

1-11 عمليّة اقتحام ليليّة

هتفت: "ذكرت يا عزيزي سقراط أشياء عجيبة وإن كانت غرابتها لا تنقص شيئا من فظاعتها. حقًّا لقد ألقيتَ في روعي وجلا غير(1) يسير، بل هلعا شديدا، ووخزتني برمح لا بشوكة، وأخشى أن تعلم تلك العجوز بعون قواها الخارقة بهذه الأحاديث بيننا. فهيّا ننم، وفي الفجر يكون قد خفّ تعبنا، فنهرب من هنا إلى أبعد ما يمكن." لم أفرغ من نصحي حتّى كان سقراط العزيز يغطّ في النّوم، محدثا شخيرا عاليا، جرّاء سكره غير المعتاد وإرهاقه الطّويل. فرددت الباب وعشّقت المزلاج وسوّيت مفرشي على الأرض خلف المفصّلة ورتدته جيّدا، ثمّ استلقيت فوقه. لكنّي في البداية لبثتُ أرِقا متوجّسا لبعض الوقت، ثمّ قرابة الهزيع الثّالث أغمضت عينيّ. فما كدتُ أغفو حتّى فُتح الباب فجأة بقوّة أكبر من أن يتصوّر أنّه عمل لصوص، بل انهدّ بالأحرى بعدما هُشّمت مفصّلتاه وقُلعتا من عضادتيهما. فوقع من قوّة الدّفعة سريري النّخر القصير والمجرّد من إحدى قوائمه مستقرّا على الأرض ودحدرني منقلبا عليّ ليغطّيني.

1-12 مروة تدرك حبيب القلب الغادر

شعرت إذّاك أنّ بعض الأحاسيس بطبيعتها قد تنقلب إلى أضدادها؛ كثيرا ما تتولّد الدّموع مثلا من الفرح. كذلك لم أتمالك نفسي، وقد استحلتُ من أرسطومان سلحفاةً، من الضّحك. وفيما أنا أرتقب ما قد يحدث، قابعا في ركام القذارة،

(1)غير يسير: أسلوب آخر يستخدمه بكثرة أبوليوس: التّلطيف litotes ويصل أحيانا نفي النّفي.

محميّا بحسن تدبّر مفرشي، رأيت امرأتين متقدّمتين في السّنّ. تحمل إحداهما مصباحا مضيئا والأخرى إسفنجة وسيفا مجرّدا، فأحاطتا بسقراط الغارق في النّوم. ابتدرت صاحبة السّيف الأخرى: "هوذا، يا أخيّتي بنثية*، إنديمون* العزيز، هوذا كتميتوس* الأغرّ الّذي لها أيّاما وليالي بزهرة شبابي. هوذا الرّجل الّذي لم يكفه بعدما استخفّ بحبّي هلْبي وثلبي، ها هو يهمّ كذلك بالهرب. فلم يبق لي، كما ترين، سوى بكاء وحدتي أبد الدّهر، مثل كالبسو* بعدما تركها أوديسّيوس* معدن المكر". ثمّ أضافت مشيرة صوبي بيدها، منبّهة إليّ بنثية: "وهوذا نصيحه الأمين الّذي دبّر فراره وهو يقبع الآن جاثيا على الأرض تحت سريره إلى الموت أقرب منه إلى الحياة، لاحظا كلّ ما يجري، يظنّ بوسعه الإساءة إليّ دون عقاب. سأجعله لاحقا، بل قريبا، بل فورا يتوب عن تهكّمه الماضي وفضوله الحاضر."

1-13 انتقام ساحرة

لمّا سمعت ذلك أحسستُ يا لبؤسي عرقا باردا يسيل على كلّ جسمي، وقشعريرة تسري فيه انخضّت منها أحشائي، حتّى خلتُ المفرش المهتزّ من ارتجافي يرقص في تشنّج فوق ظهري. لكنّ بنثية، بورك فيها، ردّت: "لِم لا نبدأ بالأحرى بذاك يا أختاه فنقطّع أوصاله على غرار كاهنات باخوس* أو نبتر ذَكره بعد تقييد أطرافه؟" × ردّت مروة- أدركت فعلا أنّها المرأة الّتي ذكر لي سقراط في قصّته-: "كلاّ، ليبق هذا على الأقلّ فيحثوَ على جثّة ذلك التّعيس قليلاً من التّراب." ثمّ أدارت رأس سقراط إلى الجهة المقابلة فأغمدت في جانب عنقه اليسار السّيف حتّى المقبض.

وتلقّت في قربة صغيرة أدنتها منه الدّم الشّاخب بعناية بحيث لم تنسكب منه قطرة واحدة بالخارج؛ شاهدت كلّ ذلك بعينيّ. كذلك، وكيلا تغيّر في ظنّي شيئا من طقوس التّضحية، أولجت مروة الطّيّبة يمينها في الجرح سابرة أحشاء رفيقي فاستلّت قلبه، بينما أصدر المسكين الّذي نُحرت حنجرته بطعنة السّيف شخيرا كالحشرجة وسلّم حشاشته. ضمّدت بنثية بالإسفنجة الجرح الفاغر كالأخدود قائلة: "يا إسفنجة يا ابنة البحر، إيّاك والانتقال إلى النّهرا!" بعد الانتهاء من تلك الأعمال، انصرفتا عنه، فقلبتا مفرشي، ثمّ أقعتا مفرشحتين على وجهي، فأفرغتا مثّانتيهما، حتّى ضمّختاني بفيض بولهما المقرف.

1-14 مشروع الفرار

ا أن اجتازتا العتبة، حتّى انتصب الباب سويّا في وضعه السّابق، فاستقرّت المفصّلتان في مخلعيهما ورجع التّرباس إلى مزلقته وعاد لسان التّعشيق إلى مزلجه. أمّا أنا فلبثت على حالي طريح الأرض بلا حراك عاريا مقرورا، ومبلّلا بذلك السّائل المخّم، كما لو خرجت لتوّي من رحم أمّي، بل شبه ميّت خالفا ذاتي في شبه حياة برزخيّة، مرتقبا عذاب الصّلب المعَدّ لي بلا ريب. حدّثت نفسي: "ماذا سيحدث لي عندما يُكتشف في الصّباح هذا الذّبيح؟ ومن تُرى يصدّقني إن رويت حقيقة ما جرى؟ سيقال لي حتما: × "كان بإمكانك على الأقلّ أن تطلب النّجدة، إن عجزت كما تزعم، وأنت رجل بمثل هذه الضّلاعة، عن مقاومة امرأة؛ تبّا لك، أيُذبح شخص أمام عينيك، وتبقى ساكتا؟ × لِم لمْ تُزلك أنت أيضا عمليّة قتل شبيهة؟ لِم لم تتخلّص

منك هذه الوحشيّة الفتّاكة حتّى خيفة تبليغك عنها كشاهد على الجريمة؟ لقد نجوتَ من الموت، فلْتعد إليه الآن إذن!" × ذاك ما كنت أقلّب مع نفسي بينما بدأ اللّيل يفسح للنّهار؛ فبدا لي أنّ أفضل ما أفعل في حالتي أن أسرع بالفرار خفية قبل مطلع النّهار وأواصل متهيّب الخطى مساري. أخذت صرّتي وأدرت المفتاح وسحبت المزلاج. لكنّ ذاك الباب العاقل الأمين الّذي فُتح في اللّيل تلقائيّا لم ينفتح لي إلاّ بعسر بعد إيلاج المفتاح فيه مرارا.

1-15 فشل المحاولة

هتفت: "أين أنت يا رجل؟ افتح لي باب الفندق، أريد الذّهاب قبل طلوع النّهار!" فردّ البوّاب الّذي افترش الأرض قرب مدخل الفندق، نصف نائم: × "ماذا؟ أتجهل أنّ الطّرق مليئة باللّصوص لتدلج في السّحَر؟ إن كنت تبغي الموت، لإحساسك قطعا بوزر جرم أتيت، فما لي رأس يقطينة حتّى أموت من أجلك"(1). قلت: "لم يبق على مطلع النّهار كثير؛ ثمّ ماذا ينتزع اللّصوص من مسافر معدم مثلي فقير؟ أم تجهل يا أحمق أنّ عشرة مصارعين لا يستطيعون سلب شخص عارٍ؟" × ردّ الرّجل خدرا وسنان، بعدما انقلب على جنبه الآخر: "منَ أين لي أن أعرف ما لو كنت تفرّ بحثا عن مخبئ بعدما ذبحت رفيقك، ذاك الرّجل الّذي نزلت معه البارحة للمبيت هنا؟" × ساعتها رأيت الأرض تنشقّ تحتي عن غياهب التّرتار* وفيها الكلب كربروس* يتحرّق لالتقافي. خطر إذّاك ببالي أنّ مروة الطّيّبة ما أعفت رقبتي رحمة بي، بل استبْقتها بالتّأكيد لعذاب الصّلب.

(1) ردّ البوّاب: لا يتماشى مع الموقف وقد يعود ذلك إلى التّأثر بقصّة شبيهة يردّ فيها النّزيل على البوّاب

1-16 محاولة الانتحار

لذا قفلت راجعا إلى غرفتي، وشرعت أفكّر في طريقة للتّعجيل بموتي. لكنّ الحظّ لم يهيّئ لي سلاحا قاتلا سوى سريري؛ فناجيته: "أي سريري العزيز الّذي عشتَ وتحمّلت معي كلّ تلك المحن، وتشهد على ما حدث البارحة. وبك وحدك يمكنني الاستشهاد، وأنا محلّ الاتّهام، لإثبات براءتي. أمدّني بوسيلة للخلاص تعجّل بي إلى العالم السّفليّ." شرعت، وأنا أقول ذلك، في سحب الحبل الّذي جُدل منه مفرشي، فقذفت طرفه على رافدة منغرزة تحت النّافذة تبرز ناتئة إلى الخارج وربطته، وعقدت الطّرف الآخر في خرتة متينة وارتقيت السّرير، وارتفعتُ ساعيا إلى حتفي. ثمّ أدخلت رأسي في الأحبولة وألقيت بنفسي. لكن لمّا أزحت برجلي الدّعامة الّتي كنت أعتمد عليها، ليعصر الحبل، بسقوط الثّقل، عنقي فيسدّ تنفّسي، × انقطع الحبل الرّثّ العتيق فجأة، وهويت من حالق على سقراط النّائم إلى جانبي، فجررته معي في تدحرجي.

1-17 مفاجأة سارّة

وإذا بالبوّاب يدخل بغتة في نفس اللّحظة زاعقا: "أين أنت يا رجل؟ كنت في جوف اللّيل تتعجّل الرّحيل بمنتهى التّهوّر والآن تغطّ في النّوم ملتفّا بالدُّثر." عند ذلك، وبسبب سقطتنا أو صياح النّاطور النّاشز، لا أدري، نهض سقراط مستويا وقال: "ما اجتناءً يكره المسافرون كلّ هؤلاء الملاعين نُدل الفنادق. لقد دخل هذا المتطفّل النّحس بدون إنذار بنيّة سرقة شيء في اعتقادي،

فانتزعني من نومي العميق بزعيقه الفظّ وأنا منهوك القوى."
فقمت خفّا مبتهجا، تغمرني فرحة لم أكن أحلم بها، وهتفت: "هوذا أيّها البوّاب الأمين صاحبي وأخي الّذي كنتَ البارحة تتّهمتني بقتله جزافا، تحت تأثير السّكر"؛ وأقبلتُ على سقراط أعانقه. لكنّه صدّني بشدّة قائلا وقد زكمه الإفراز المغثي الّذي ضمّختني به تانك السّعلاتان*: "إليك عنّي بنتن المراحيض!" وأنشأ يسأل مازحا عن سرّ تلك الرّائحة. أمّا أنا، ففي انكسافي اختلقت حالا مزحة سخيفة وحوّلت اهتمامه إلى موضوع آخر. قلت مادّا يدي: "لنذهب الآن فنستمتعَ بلذّة السّير صَباحا!" ثمّ أخذت الصّرّة وبعد دفع أجرة الإقامة لعامل الفندق، انطلقنا على الطّريق.

1-18 رحلة ممتعة

كنّا قد قطعنا مسافة جيّدة لمّا بزغت الشّمس مضيئة كلّ شيء. فأخذت أتأمّل بفضول رقبة رفيقي، ناحية الجانب حيث رأيت السّيف يُغرز. وأقول لنفسي: "يا أخبل حلمتَ بكوابيس فظيعة وأنت تحت تأثير الرّاح وغطّة الأقداح. هذا سقراط سالما صحيحا معافًى. أين الجرح والإسفنجة وأين أخيرا أثر تلك الطّعنة المستجدّة النّجلاء؟" ثمّ خاطبته: "يؤكّد الأطبّاء الثّقاة محقّين أنّ من ينامون تقئين بالطّعام والنّبيذ يرون أحلاما مروّعة غمّاء. أنا مثلا، لإفراطي مساء أمس في الشّرب، حملت لي ليلتي اللّيلاء رؤى مشؤومة، حتّى لإخال نفسي إلى هذه اللّحظة مبلّلا وملطّخا بدم بشريّ." فردّ مبتسما: "لكنّك بشرفي لم ترشّ بدم، بل ببول. أمّا أنا فقد تراءى لي في المنام أنّي أُذبح. وأحسست فعلا

بألم في رقبتي وخُيّل إليّ أنّ قلبي يُستلّ، وإلى هذه اللّحظة يضيق نفَسي وترتجف ركبتاي وتترنّح خطاي، وأرغب في شيء من الطّعام لأستردّ قواي." قلت: "هوذا الفطور جاهزا بانتظارك". وعلى الفور نزعت المزود من على عاتقي، وأسرعت أمدّ له الخبز والجبن مضيفا: "هيّا نجلس تحت هذه الدّلبة."

1-19 شربة ماء

تناولت شيئا من نفس الزّاد ونظرت إليه يأكل بشراهة؛ فرأيته يمتقع ويعتريه شحوب كصفرة البقس وتخذله قواه. ويغور لون الحياة من محيّاه. حتّى أنّي من خوفي غصصت مستحضرا صورة جنّيتي النّقمة* اللّيليّتين. وتلبّكتُ وسط حلقي على صغرها، قطعة الخبز الّتي تناولتها. لا تستطيع المضيّ نزولا ولا التّراجع صعودا(1). وكانت ندرة السّالكين نفسها تزيد خوفي(2). وبمن يُشتبه ترى في قتل أحد رفيقي سفر، سوى الآخر؟ × لكنّه كان في الحقيقة قد ظمئ بعدما أصاب من الزّاد شيئا كثيرا ولم يطق على الشّرب صبرا. إذ كان قد التهم بنهم حظّا وافرا من جبن شهيّ؛ وكان يسيل الهوينى غير بعيد من أصل الشّجرة جدول وديع، يحاكي بصفحته الغدير، وبصفائه اللّجين أو البلّور. هتفت: "هيّا ارو غليلك من ماء هذا النّبع الأزكى من الحليب"؛ فنهض ووجد بعد قليل حاشية من الضّفّة أكثر استواء،

(1) تلبّكت...صعودا: admodum/modicum, demeare/remeare سجع مع جناس ومقابلة.

(2) ندرة السّالكين تزيد خوفي: توحي الجملة بمعنى ثان: زادني خوفا تفكيري بأنّ قادمين سيمرّون بعد قليل.

واقترب من الماء متحرّقا(1). لكن ما كاد يلامس بطرف شفتيه صفحة الماء حتّى انفتح في رقبته جرح فاغر غائر، وانبثقت منه الإسفنجة فجأة مرفوقة بقليل من الدّم. وانكبّ الجسم في النّهر جثّة هامدة. لولا أن أمسكته من إحدى قدميه وسحبته إلى الضّفّة بمشقّة. فبكيت قدر ما استطعت صاحبي المسكين وواريته صعيدا رمليّا قرب النّهر مثوى أبديّا. ثمّ إنّي، في توجّسي وخوفي على نفسي، فررت عبر الفلوات المنعزلة النّائية، وهأنذا الآن بعدما هجرت الأهل والأوطان يعذّبني الشّعور بوزر قتل نفس بشريّة بنحو ما. وقد اتّخذت لي منفًى اختياريّا بإيتولية* حيث أقطن الآن بعد عقد قراني من جديد."

1-20 تقييم قصّة أرسطومان

تلك كانت قصّة أرسطومان؛ أمّا صاحبه الّذي كان يرفض في البداية تصديق حديثه بارتياب وتعنّت، فقال:

"لا شيء حقًّا أخرف من هذه الخرافة، ولا أسخف من هذه الكذبة". ثمّ استأنف ملتفتا إليّ: "وأنت الرّجل الكريم، كما أتوسّم من هندامك وسمتك(2)، أتصدّق هذه الخرافة؟" أجبت: "فيما يخصّني لا أحسب شيئا مستحيلا؛ بل كلّ شيء يقع للبشر وفق مشيئة القدر. لي ولك ولكلّ الناس تحدث يوميًّا أمور عجيبة وشبه مستحيلة، ولكنّها تفقد مصداقيّتها إن تُروَ للجاهل. أمّا أنا فأصدّق صاحبنا وأذكر شاكرا أفضاله(3)،

(1) نهض...متحرّقا: تجانس صوتيّ alliteration بالباء المعجمة.

(2) هندامك وسمتك: habitus/habitudo جناس مطلق مع مقابلة.

(3) شاكرا أفضاله: gratas gratias جناس مختلف (كان يمكنه أن يضيف

إذ سلاّنا قَصصه الممتع بظرفه وطرافته، بحيث قطعت طريقا وعرة وطويلة دون عناء ولا سآمة. بل أظنّ ضعينتي سعدت هي أيضا بجميله، إذ ها قد وصلتُ إلى باب المدينة الّذي ترى دون أن أرهقها، محمولا لا على ظهرها بل على أذنيّ."

1-21 السّؤال عن ميلون

هنا كان منتهى حديثنا ودربنا المشترك، فقد دار رفيقاي إلى اليسار نحو ضيعة(1) قريبة. أمّا أنا، فدخلت أوّل فندق رأيته أثناء مسيري، وسألت العجوز صاحبة المحلّ: "هل هذه المدينة هيباتة*؟" فهزّت رأسها بالإيجاب(2). استأنفت: "هل تعرفين ميلون، أحد أوائل القوم هنا؟" فاستضحكت ثمّ قالت: "يُعَدّ الأوّل(3) حقّا صاحبك ميلون هذا الّذي يقيم خارج الأسوار والمدينة كلّها." قلت: "دعي السّخرية يا أمّاه، وخبّريني، أرجوك، عن الرّجل ومحلّ سكناه"؛ فردّت: "أترى هناك تلك النّوافذ المتّجهة شطر المدينة، وفي الجهة المقابلة بابا مطلاّ على زقاق محاذ؟(4) × هناك يقطن صاحبك ميلون، وهو رجل ذو أموال كثيرة وأملاك وفيرة، لكنّه

gratuitas لأنّهم لم يتوقّفوا في حانة ليدفع للرّجل أجر قَصصه، سيما وأبوليوس يحبّ التّراكيب الثّلاثيّة!)

(1) ضيعة: في النّصّ يستخدم أبوليوس التّصغير لكن بدون المعنى المقترن عادة بالتّصغير كما يفعل غالبا. لكن للتّصغير معنى أساسيّا في مواضع أخرى، مثلا وصف فوتيس وهي تعدّ الطّعام 2: 7 حيث يعني التّحبيب.

(2) هزّت رأسها بالإيجاب: ينتقل أبوليوس هنا من الماضي إلى مضارع السّرد في نفس الجملة ليجعل الأحداث حاضرة أمامنا، ونجد هذا الأسلوب (مع فنّيّات أخرى لجذب انتباه القارئ) في عدّة مواضع أخرى.

(3) يُعَدّ الأوّل: تلاعب لفظيّ حول كلمة "الأوّل" فهي تعني: الوجيه، أمّا هنا فمعناها مكانيّ وتحقيريّ.

(4) بابا مطلاّ: fores/foris (إلى الخارج/ الباب) جناس مختلف.

مرذول لدى الجميع لشحّه المفرط وخسّته القبيحة. مواظب على ممارسة الرّبا الفاحش، لقاء رهن من الذّهب أو الفضّة، ومنطو في بيته الضّيّق، دائب الحرص على قروشه، وله زوجة هي كذلك شريكة رذيلته. لا يعول لديه سوى جويرية، ويسير دوما في هيئة المتسوّل." رددت ضاحكا: "حقًّا لقد رعاني صديقي ديمياس* بتبصّر واعتناء، إذ عهد بي إلى رجل كهذا لن أخشى في ضيافته قُتار طبيخ ولا شواء."

1-22 لقاء ميلون

قلت ذلك وسرت متباطئا فاتر الهمّة حتّى وصلت إلى البيت، فأخذت أطرق الباب الموصد بإحكام وأنادي. عندئذ تقدّمت فتاة في خضِر العمر وقالت: "مهلا يا من تقرع بابنا بكلّ هذا العنف، مقابل أيّ رهن تبتغي الاقتراض؟ أم تراك تجهل دون سواك أنّا لا نقبل ضمانا غير الذّهب والفضّة؟" × أجبت: "تفاءلي بي خيرا وأجيبيني بالأحرى: هل أجد سيّدك الآن في البيت؟" ردّت: "طبعا، لكن فيم سؤالك؟" قلت: "أحمل إليه رسالة توصية كتبها له ديمياس الكورنتيّ*"؛ فردّت: "انتظرني هنا، في نفس المكان، ريثما أبلّغه." ولم تتمّ كلامها حتّى أوصدت الباب مجدّدا ودلفت إلى الدّاخل؛ ولم تلبث أن عادت وفتحت لي باب البيت قائلة: "سيّدي يطلبك." تقدّمت، فوجدته مفترشا سريرا(1) مفرط الصّغر وعلى أهبة العشاء. وحذو قدميه تجلس زوجته، وقد وُضعت إلى جانبه سُفرة فارغة، أشار إليها قائلا: "تفضّل." أجبت: "شكرا"؛

(1) السّرير: كان اليونان والرّومان يأكلون متّكئين على سرر أمام مائدة والنّساء والأبناء عند أقدامهم.

وقدّمت له رسالة ديمياس فورا. فقرأها بعجل وهتف: "أنا مدين لصديقي ديمياس بفضل إمدادي بضيف مثلك."

1-23 استقبال حارّ

ثمّ أمر زوجته بالتّنحّي ودعاني إلى الجلوس في مكانها، وأمسك بطرف ثوبي وجذبني، إذ لم أزل متردّدا في استحياء، قائلا: "اجلس هنا. فلخوفنا من اللّصوص لا يمكننا إحضار مقاعد وأثاث كاف". ففعلت. ثمّ خاطبني: "كنت سأشيم بحقّ من وسامة مظهرك وحسن خفرك وحدهما كرم أرومتك. لكنّ صديقي ديمياس زاد فأحاطني في رسالته علما بنفس تلك المحاسن؛ فأرجو ألاّ تزدري ضيق بيتنا المتواضع. ستكون لك تلك الغرفة المحاذية هناك مُقاما مقبولا؛ فلتستطب الإقامة عندنا. وإنّك لعمري ستجعل هذا البيت بشرف مَقامك أكبر وأرفع، وستكتسب منقبة مجيدة إن ترض ببيتنا الصّغير اتّساءً بثيسيوس* العظيم، سميّ والدك(1)، الّذي لم يترفّع عن قرى العجوز هيكالة* على تواضعه." ثمّ دعا الخادمة وقال: "فوتيس*، خبّئي في موضع أمين من هذه الغرفة متاع ضيفنا. وأخرجي في نفس الوقت من خزانة المؤن زيتا ليدّهن به ومناشف ليمسح بها وغير ذلك ممّا يصلح لنفس الغرض؛ ثمّ خذي ضيفي إلى أقرب حمّام. فهو تعِبٌ من رحلته الشّاقة الطّويلة."

1-24 في سوق المؤن

عند سماعي ذلك قلت، مفكّرا في طباع ميلون وبخله، وراغبا

(1) ثيسيوس سميّ والدك: بالطّبع لا ينبغي أن تؤخذ الإشارة إلى اسم أب لوقيوس، أو أمّه 2: 2 أو وطنه أو انتسابه إلى أسرة بلوتاركوس 1: 2 و2: 3 مأخذ السّيرة الذّاتيّة للكاتب. انظر الكتاب 11

في استمالته بنحو أوثق: "لا حاجة بنا(1) يا سيّدي الفاضل إلى هذه الأشياء فقد صحبتنا طوال الطّريق. وحتّى الحمّام سنسترشد عنه بسهولة؛ بصراحة أهمّ الأولويّات عندي حصاني الّذي حملني بعزم. فخذي هذه النّقود يا فوتيس واشتري له كلأً وشعيرا." بعدما أتمّت هذه التّرتيبات وخُبّئت أمتعتي في تلك الغرفة، قصدت وأنا في طريقي إلى الحمّام السّوقَ أوّلا لأتدبّر أمر عشائنا. رأيت هناك سمكا وفيرا معروضا، وبعد الاستفسار عن السّعر والمساومة، اشتريت بعشرين دينار ما عُرض بمائة درهم(2). لقيني وأنا أغادر السّوق بيثياس*، قريني في الدّراسة بأثينة الأتّيكيّة*، الذي تعرّفني بعد الأمد الطّويل، فأقبل عليّ هاشّا باشّا وقال وهو يحتضنني ويقبّلني بمودّة: × "عزيزي لوقيوس*، مرّ دهر لعمري لم نرك منذ غادرنا مقاعد الدّراسة عند المعلّم كليتيوس*. فما غاية رحلتك؟" أجبت: "غدا تعرف؛ لكن ماذا أرى؟ أهنّئك بنيل المنى: أرى معك الدّرك والمحاصر وكلّ شارات القضاء." قال:"أعتني بالتّموين وأشغل خطّة المحتسب(3). وإن تبغ شراء شيء فأنا بخدمتك في كلّ حين"؛ فأشرت برأسي بالنّفي إذ سبق أن اقتنيت من السّمك ما يكفي للعشاء. لكنّ بيثياس رأى

(1) لا حاجة بنا: استخدام صيغة الجمع، الّتي قد تعبّر أيضا عن المفرد، ربّما لأنّه يقصد خادمه معه.

(2) الدّرهم: sestertius عملة فضّيّة تساوي دانقين ونصفا والدّينار denarius عملة فضّيّة تساوي عشرة دوانيق، كما يظهر من اسميهما (لكنّ دينار الخلافة الإسلاميّة رغم اشتقاق اسمه من هذه العملة كان ذهبيّا عادة). أمّا المثقال الذّهبيّ aureus فيساوي 400 دانق، أي 100 درهم.

(3) المحتسب: aediles شبيه بصاحب الحسبة، أمين السّوق، كان في رومية مسؤولا عن الشّرطة البلديّة والتّموين ومراقبة الأسواق وكذلك عن تنظيم بعض الألعاب وحفظ سجلاّت الطّبقة الشّعبيّة.

السّلّة فخضخض السّمك ليتفحّصه ثمّ سألني: "كم دفعت مقابل سقط الشّباك هذا؟" أجبت: "انتزعته من البائع غلابا بعشرين دينار."

1-25 أحشفا وسوء كيلة؟

ما إن سمع ذلك حتّى أمسك بيدي وأعادني إلى السّوق، وسأل: "ومن أيّ من هؤلاء ابتعت هذه السّفاسف؟" أشرت إلى شويخ كان يجلس في زاوية؛ فازدجره فورا بلهجة صارمة بمقتضى سلطته الاحتسابيّة: × "ويحكم، لم تعودوا تراعون حتّى أصحابنا، بل ولا حتّى ضيوف مدينتنا! تسعّرون بمثل هذه الأثمان المشطّة هذا الحشف الرّديء. أتريدون أن تحيلوا زهرة مدائن تسّالية* من غلاء المعيشة جلمودا صفصفا؟ لكنّك لن تفلت من عقوبتي، سأريك كيف يُقمع الغشّاشون تحت سلطتي"، ونثر أسماكي على الأرض، ثمّ أمر دركيّا يرافقه بدحسها وسحقها تحت قدميه. بعد ذلك التفت صديقي بيثياس ناحيتي راضيا عن صرامته وقال مودّعا: "عزيزي لوقيوس، هذه الإهانة تكفي شيخنا في ظنّي." لم يسعني، وقد أدهشني ما جرى بل أذهلني تماما، سوى متابعة سيري إلى الحمّام صفر اليدين من النّقود والعشاء معا، ثمّ عدت بعد الاغتسال إلى بيت مضيّفي ميلون فأويت إلى غرفتي مباشرة.

1-26 مأدبة ميلون

وإذا بالخادمة فوتيس تقول: "سيّدي يطلبك"؛ لكنّي اعتذرت بأدب، لعلمي بتقاليد ميلون التّقشّفيّة، متعلّلا بحاجتي إلى

الاستراحة من وعثاء السّفر لا بالطّعام بل بالمنام. لمّا بلّغتْه اعتذاري، أتى بنفسه، ومدّ إليّ يده محاولا جرّي برفق، ولمّا رأى تردّدي وتمنّعي بلين وأدب قال: "لن أبرح الغرفة حتّى تتبعني"، مردفا إلى قوله أغلظ الأيمان. فاستسلمت لإلحاحه مكرها، وتبعته إلى سريره حيث أجلسني وسألني: "كيف حال صديقنا ديمياس؟ وزوجته؟ وأبنائه؟ وخدمه وحشمه؟" × فقصصت عليه أخبارهم جميعا؛ ثمّ استخبر بالتّدقيق عن أغراض رحلتي؛ فسردتها له بالتّمام. ثمّ طفق يستوضح عن أخبار بلدي وأعيانه ثمّ واليه بأدقّ التّفاصيل(1) . ولمّا رآني، من شدّة تعبي من تلاحق القصص مضافا إل مشقّة رحلتي المضنية، أتوقّف وسط الكلمات مثقلا بالنّعاس، بل وأتلجلج في عيّ مغمغما بالكلمات المستعصية، قبل أخيرا أن يدعني آوي إلى فراشي. هكذا أفلتّ أخيرا من مأدبة عجوزنا المزعج الجزلة كلاما والهزيلة طعاما إلى النّوم، مثقلا بغير طعام، متعشّيا فقط على القصص، وعدت إلى غرفتي حيث سلّمت جسمي المكدود للجمام المنشود.

(1) أسئلة ميلون: كنادرة الأعرابيّ الذي راح يسأل صاحبه عن أهله وجمله وكلبه ولا يدعوه إلى طعامه (أوردها في ظنّنا القلقشنديّ)، أو لعلّه فعل كعتبة بن جبير القائل عن ضيفه حسب ما جاء في ديوان الحماسة لأبي تمّام: "أحدّثه إنّ الحديث من القرى/ وتعلم نفسي أنّه سوف يهجع"، وذاك لعمري منتهى الجود!

الكتاب الثّاني

2-1 المدينة المسحورة

تولّى الليل وبعثت شمس جديدة ضياء النّهار فنهضت من فراشي قلقا متشوّقا لمعرفة ما هناك من نادر ومعجب الأخبار. مفكّرا أنّي أدركت مركز تسّالية* الّذي تُجمع الألسن في كامل الأرض على الإشادة به كمولِد فنون السّحر وأنّ قصّة رفيقي الفاضل أرسطومان أتت من موقع هذه المدينة تحديدا، مشلولا عن الإرادة والفعل معا؛ وأخذت أنظر إلى كلّ الأشياء بفضول. فلم يكن شيء في تلك المدينة يبدو لي إذ أنظر إليه هو حقًّا ما هو. بل بدت لي كلّ الأشياء قد تحوّلت(1) بنبس نحس إلى صورة مختلفة. حتّى خلتُ الحجارة الّتي ألاقيها مُسخت من الهيئة البشريّة إلى الصّلابة، وبنفس النّحو اكتسبت الطّيور

(1) التّحوّلات: في الأدب القديم أمثلة على تحوّل بشر إلى حيوانات بفعل السّحر كما فعلت كرخية بأصحاب أوديسّيوس. أمّا التّحوّل إلى جماد فهو من صنع الآلهة: كما في أسطورة نيوبية الّتي حوّلت إلى صخرة وكذلك أختيون، ودفنية الّتي حوّلت إلى شجرة غار وسمرنة الّتي حوّلت إلى شجرة مرّ، أو كيانة الحوريّة الّتي حوّلها هادس إلى غدير. وفي الأدب الحديث تعدّ قصّة "التّحوّل" لفرانتس كفكا أهمّ أثر أدبيّ في هذا المجال. لهذه الفقرة معنى فلسفيّ إذا اعتبرنا خلفيّة أبوليوس الأفلاطونيّة: لوقيوس في عالم الظّواهر المتغيّرة كما في أسطورة الكهف لأفلاطون. وفي الكتاب 11 سيصل إلى عالم الحقيقة الثّابتة.

الّتي أسمعها ريشها، والأشجار المحيطة بالأسوار أوراقها، ومياه الينابيع تدفّقت في الحقيقة من أجسام بشريّة. بل بدا لي أنّ التّماثيل والصّور ستمشي والجدران ستتكلّم والثّيران وغيرها من البهائم توشك أن تنطق بنبوءات، ومن السّماء نفسها وقرص الشّمس المتهادي تحت قبّتها سينزل بغتة وحي إلهيّ مبين.

2-2 لقاء قريبته

أخذت أطوف بكلّ الأشياء، مشدوها بل مذهولا برغبة عاتية تعذّبني دون أن أرى بداية ولا أدنى أثر لما كنت أرغب فيه. بينما أنا أهيم من باب إلى باب، في ما يشبه كسل المتسكّع، × دخلت السّوق فجأة على غير هدى، فإذا امرأة تسير هناك برفقة طاقم كبير من الخدم فحثثت خطاي لأدركها. كان الذّهب الّذي يرصّع حليّها ويوشّي جلبابها ينمّ عن سيّدة من النّخبة بالتّحقيق. وكان يمشي بجانبها عجوز أثقلته السّنون، ما كاد يراني حتّى هتف: "إنّه لوقيوس وحقّ السّماء." وأقبل عليّ يعانقني ثمّ وشوش بكلام لم أتبيّنه في أذن المرأة وخاطبني: "ألا تتقدّم وتسلّم على أمّك؟" أجبت:" أخشى ألاّ تكون سبقت لي معرفتها"، وتأخّرت لتوّي مطاطئا رأسي مخضّبا بحمرة الخجل. أمّا هي فالتفتت إليّ ممعنة فيّ النّظر وقالت: "هي ذي استقامة أمّه سلُوية* الفاضلة ودماثة أخلاقها في وجهه؛ بل أيّ تطابق وأيّ تناسق في بقيّة أعضاء الجسم: × القدّ المشيق والقامة الهيفاء والحمرة الخفيفة والشّعر الأشقر دون خضاب، والعينان الزّبرجديّتان اليقظتان، كعيني النّسر، والوجه المتألّق في كلّ قسماته والمشية الأنيقة غير المتكلّفة."

2-3 استضافتها له

ثـمّ أضافت: "أنا الّتي ربّيتك بيديّ هاتين يا لوقيوس؛ فأنا قريبة أمّـك لا بالدّم فقط بل بالرّضاعة أيضا. ننحدر سـويّا من أسـرة أفلوطرخـس(1) ورضعنا نفس المرضعـة وترعرعنا معا في تآلف الأختين(2). إنّما فرّقت بيننا المنزلة إذ تزوّجتُ هي أحد الشّخصيّات العامّة وأنـا أحد الخواصّ. أنا برّينة(3) الّتي قد تذكر اسـمها فلا شكّ أنّك سمعت ألسنة مربّيك تردّده. فانزل بلا حرج في بيتي بل اعتبره منزلك." رددت على دعوتها وقد زايلني الخجل أثناء حديثها: "معـاذ الآلهة يا خالة أن أغادر مضيّفي ميلون بلا سـبب. لكنّي سـأحرص على أداء واجباتي كاملة. وكلّما تجدّد دافع سفرتي، لن أنـزل عند سـواك." وبينما كنّـا نتجاذب أطراف هـذا الحديث وما شابهه، وصلنا في بضع خطوات، إلى بيت برّينة.

2-4 في بيت برّينة

كانت الرّدهة من أبهـى طراز، تحمل على أعمدة منتصبة في كلّ واحدة مـن زواياها الأربع تمثالا × لإلهة (النّصر*) بسـعفها المميّـز، وقـد أفـردت جناحيها، وانتصبت لا لتسـتقرّ، ملامسـة بأسـفل قدميها المهفهفتين كرة تـكاد تجرّها، حتّى لتخالها من خفّة الـوطء تطير. وهذا رخام باروس* منحوتـا في صورة ديانة*،

(1) الانتسـاب لأفلوطرخـس: للمرّة الثّانيـة، فهل يريد أبوليوس الإشـارة إلى خلفيّته الفلسفيّة الأفلاطونيّة؟

(2) انحدرنا...الأختين: نرى هنا، كما في مواضع كثيرة أخرى استخدام الصّيغة الثّلاثيّة المتدرّجةTrikolon .

(3) جهـل لوقيوس ببرّينة ووجودها في هيباتة: غيـر معقول طبعا وهي بمثابة أمّه؟ هل ترمز إلى إيزيس؟

يحتلّ وسـط الرّدهة الممهّد، تمثالا متألّقا، معارضا بثوبه نسمات الصّبا، ينبض في مشيته بالحياة، يلاقي الدّاخلين، مجلّلا بفخامة الألوهة. وكلاب تتبع الإلهة محيطة بجانبيها. كلاب لكنّها رخام، تتوعّد منها العيون، وتنتصب الآذان، وتنتفخ الخياشـيم، وتكشّر الأفـواه؛ فلـو أتى نباح مـن كثب، لخلتـه يخرج من تلـك الحناجر الحجريّـة. وقد أظهر فيه النّحّات المبدع أرقى نموذج للعمل الفنّيّ؛ ففي تلك الكلاب المتحفّزة من على لبّاتها المتينة، تربض القوائم السّـفلى وتتوثّـب العليـا(1). ووراء ظهـر الإلهـة ترتفع صخرة علـى نحو كهف وسـط الطّحالب والأعشـاب والأوراق والأفنان: هنـا عرائش مثقلة بعناقيدها، وهنـاك جنبات محمّلة بأزهار من حجـر. وفي الدّاخل يلقي الرّخام المتألّق على ظلّ التّمثال سـناه؛ وتحـت حافّة الصّخرة، تتدلّى فواكه وأعناب صُقلت بتفنّن وإتقان، عرضها الفنّ منافس الطّبيعة فجاءت شـبيهة بالحقيقة. حتّى لتظنّ بوسـعك جني بعض منها للأكل لمّـا يلقي عليها الخريف بنفحاتـه اللّواقح لـون النّضوج. ولو انحنيـت وتأمّلت النّبع وهو ينبجـس ثجّاجا فـي كلّ صوب مـن تحت قدم الإلهة فيسـبطرّ مرتعشـا في اللّجّة الوديعـة، لخلتها حبّات العنـب المتدلّية في الحقـل بين عرائـش الكروم لا تعوزهـا الواقعيّـة ولا الحركة. وبين الأغصان الحجريّة الّتي تتوسّـط المشـهد، يُرى أختيون* مشـرئبّا

(1) كلاب التّمثال: هنا كما في مواضع أخرى كثيرة ترمز الكلاب لوحشيّة عالم البهيمـة: 4-3 4-20 6-32 7-22 8-4 8-17 8-31 9-2 9-36 فضـلا عـن وصـف كربـروس 6-19 وتضيف صورة الكهف هنا إلى وحشـيّة المشـهد. نجد إشـارات أخرى إلى الوحشـيّة الحيوانيّة: الوحوش والكواسـر 3: 17، 6: 31، 8: 16، الدّبّ 7: 26، الخنزير البرّيّ 8: 5، التّنّين 8: 21، النّمل 8: 22، سباع السّرك: 8: 16، 10: 35

نحو الإلهة بنظرة فضوليّة، وقد أحيل ظبيا لكن من رخام، راقبا ديانة* وهي تستعدّ للاغتسال في النّبع(1).

2-5 برّينة تحذّره من زوجة مضيّفه

بينما أنا أستمتع بمشاهدة تلك التّماثيل مبهورا ناقلا بينها النّظر مستزيدا، قالت برّينة: "كلّ ما ترى هو لك"(2). ثمّ أوعزت إلى الآخرين سرّا بالانصراف. ولمّا انصرفوا كلّهم، قالت: "بحقّ الآلهة، يا لوقيوس العزيز، لشدّ ما أتعذّب خوفا عليك ولكم أودّ اتّخاذ أشدّ تدابير الحيطة خشية على قريب غال! فاحترس أرجوك كثيرا من شرور وإغراءات تلك المجرمة بنفيلة*، زوجة مضيّفك ميلون. يُعتقد أنّها ساحرة من الدّرجة الأولى عليمة(3) بفنون السّحر والتّعزيم برفات الموتى، وبعيدان وحصًى وسفاسف مماثلة تنفخ عليها بتمتمة تعرف كيف تغطّس ضياء العالم العلويّ في سُدف التّرتار* والسّديم الأصليّ. ولمّا ترى شابّا بهيّ الطّلعة تهوى حسنه وسرعان ما تحوّل عينها وفؤادها نحوه. وتنشر

(1) وصف التّمثال: يهتمّ أبوليوس في كتاباته بالفنّ التّشكيليّ وعلاقته بالطّبيعة وفق نظريّة أرسطو المعروفة: انظر مثلا مرافعته 14: 3-8 ومنتخباته 15: 6 لكنّ لاختيار قصّة أختيون بالذّات هنا دلالة خاصّة: فهي بمثابة تحذير للوقيوس من عاقبة فضوله بعد مثال سقراط. وقد تشير آلهات النّصر المحيطات بتمثال أختيون إلى انتصار لوقيوس النّهائيّ بفضل إيزيس. قد يكون التّمثال أيضا رمزا لعالم الظّواهر والوهم.

(2) كلّ ما ترى هو لك: نفس المعنى في قصّة بسيشية 5-2 قد يعني أنّ كلّ ما في الأرض هو للإنسان طالما بقي الإنسان متّصلا بعالم الألوهة بالنّحو الصّحيح، (تقريبا كالاستخلاف في الإسلام). والتّملّك هنا من جنس الّذي يشير إليه إيليا أبو ماضي في بيته: كم تشتكي وتقول أنّك معدم/ والأرض ملكك والسّما والأنجم.

(3) ساحرة/عليمة: جناس مع سجع maga primi nominis et omnis carminis sepulcharis magistra.

إغراءاتها(1) من حوله لتغويه وتستولي على عقله وتقيّده بشراك الهوى الأبديّة. من يفتر إذّاك تجاوبهم معها أو يثيرون بإعراضهم بغضها تمسخ حالا بعضهم حجارة أو أنعاما أو بهائم أخرى وتلاشي الآخرين تماما. لذا أخاف عليك من مكرها وأرى من واجبك الاحتراز من شرّها؛ فإنّها تستعر أبد الدّهر، وأنت بسنّك ووسامتك قادر على إثارتها": ذاك ما حدّثتني به برّينة في جزع.

2-6 خطّة "دون خوان"

لكنّي لفضولي الفطريّ، حالما سمعت اسم السّحر المحبّب دوما إلى نفسي، لم أدع الحذر من بنفيلة فقط، × بل اتّقدت رغبة في تلقّي دروس بمثل خبرتها ولو بأبهظ ثمن والارتماء بقفزة عجلى في الهاوية. فتخلّصت بعجلة هوسيّة من يدها كقيد بغيض وودّعتها متعجّلا، وطرت على جناح السّرعة إلى بيت ميلون. قلت لنفسي وأنا أسرع الخطو في جنون: "تيقّظ يا لوقيوس وكن ثبت الجنان. هي ذي فرصتك وبوسعك الآن إشباع قلبك من شغفه الدّائم بالعجائب. فدع عنك مخاوفك الصّبيانيّة، وبادر بحماس إلى الشّأن الّذي إليه تسعى. حذار أن تفكّر في ربط علاقة غراميّة مع مضيّفتك، واحترم قداسة عشّ الزّوجيّة إكراما لميلون الفاضل. لكن اجتهد للظّفر بخادمته فوتيس. إنّها حلوة لعوب، ومرهفة الذّكاء حقًّا: لمّا انسحبتَ البارحة لتنام، قادتك برقّة إلى غرفتك فوضعتك على الفراش متلطّفة وغطّتك مترفّقة، وبعدما قبّلت رأسك، أبدت على محيّاها وهي تنصرف

(1) تنشر إغراءاتها: serit blanditias أو: تحبك مكايدها. وأبوليوس كثيرا ما يستخدم كلمات مزدوجة المعنى.

من عندك مدى ضيقها بمبارحتك وتلكّأت ملتفتة إليك مرارا. لا يجوز أن تفوّت على نفسك هذه الفرصة السّعيدة الميمونة، لتغْوِ فوتيس."

2-7 رقصة القِدر

وصلت إلى باب ميلون وأنا أناقش هذه الأمور مع نفسي، راكبا رأسي كما يقال(1)؛ لكنّني لم ألق بالبيت ميلون ولا زوجته، وجدت فوتيس الحبيبة بمفردها. كانت تحضّر لسيّديها لحم سجقٍ مفروما ومحشوّا ولحما مقطّعا في مرق متبّل بذكيّ الأفاويه، وحسب ما تناهى إلى منخريّ قدّيدا شهيّا. كانت ترتدي مئزرا نظيفا من الكتّان تحزّمت عليه بزنّار أرجوانيّ رفعته إلى ما تحت النّهد مباشرة، وتدير القدر بيديها الحلوتين، وتقلقله في ليّات دائريّة برجّات متلاحقة، ثانية في نفس الوقت أعضاءها برقّة، هازّة برفق جذعها وموّجة بلطف خصرها. تسمّرت مبهوتا مفتونا أمام هذا المشهد وانتصبت أعضائي التي كانت هامدة قبلا(2). أخيرا خاطبتها: "عزيزتي فوتيس، ما أحلاك وما ألطفك وأنت تدوّرين هذه الطّنجرة مع ردفك! أيّ مرق لذيذ تعدّين! يا بخت ويا سعد من تأذنين له بأن يغمس فيه إصبعه." فردّت تلك البنت المرحة الطّروب: "انءِ بنفسك يا مسكين عن تنّوري! لو لفحك لسان من ناري لاتّقدت حتّى الصّميم ولن يستطيع إخماد الأوار أحد

(1) راكبا رأسي: pedibus in sententiam meam vado حرفيّا: أمشي بقدميّ منضمّا لرأيي: استخدام لعبارة مأثورة تقال عند التّصويت في مجلس الشّيوخ، حيث يذهب كلّ واحد للإدلاء ببطاقة في صندوق.

(2) التي كانت هامدة قبلا: quae jacebant ante كلمة ذات معنيين: "قبْلا" أي سابقا أو "قُبُلا" أي إلى الأمام.

سواي أنا الّتي أجيد الطّبخ، وأعرف كيف أهزّ أعذب الهزّ القدر والتّخت."

2-8 مديح الوجه

نظرت إليّ وهي تقول ذلك وضحكت؛ غير أنّني لم أنصرف قبل أن أتفحّص جيّدا مظهرها كلّه. لكن ماذا أقول عن البقيّة وهمّي الوحيد كان على الدّوام الشّعر والوجه: أنعّم فيهما النّظر بالخارج سابقا وأتنعّم بهما في البيت لاحقا. والمبرّر الثّابت لمذهبي هو أنّ هذا الجزء البارز من الجسم والكائن في محلّ بيّن وجليّ أوّل ما يبدو منه لأعيننا، وأنّ الحسن الفطريّ وحده هو الّذي يبهرنا في الوجه بخلاف بقيّة الأعضاء حيث ينوب عنه رونق اللّباس. بل إنّ الكثيرات، لإثبات جاذبيّتهنّ الطّبيعيّة، يخلعن كلّ رداء، ويتجرّدن من كلّ غلالة، ويحببن أن يتقدّم حسنهنّ عاريا، ليفتِنّ بنضرة بشرتهنّ المتورّدة أكثر ممّا يبهرن بسنا الذّهب في ملابسهنّ. لكن– ويا لفظاعة المثل الّذي سأسوق، فإنّ قوله لإحدى الكُبر- لو جرّدت من الشّعر رأس غادة رائعة الجمال وعرّيت وجهها من هذه الحلية البديعة الّتي حبتها بها الطّبيعة، ولْتكنْ نزلت من السّماء لتوّها أو انبثقت من البحر، أو خرجت من اللّجّة، بل لتكنْ فينوس* نفسها × محفوفة بموكب ربّات الرّواء* بأتمّهنّ وبكلّ آلهة الحبّ* مرفرفين حواليها، منتطقة حزامها البديع، فوّاحة بشذا الكافور، عبقة بأريج المرّ، تتدرّج صلعاء، فلن تعجب أيّا كان، حتّى زوجها فلكان*.

2-9 مديح الشّعر

لكن مـاذا لو أشـعّ بالشَّـعر لون فاتـن ورونق مشـرق، وتألّق معارضا أياة الشّـمس أو عاكسـا فـي دعة سـناها، أو تدرّج على سلّم الألوان، مشعشـعا تارة ببريق الذّهب الوهّاج ومنغمرا في فيء العسـل الفـاتح، ومحاكيا تارة أخرى بسـواد كالغـراب وُرقة النّتـف الغبشـاء في أجياد الحمائـم، أو دُهن بصمـغ بلاد العرب وسُـرّح بأسنان مشط رقيق دقيق، وألقي وراء العنق فتراءى لعين العاشـق، عاكسـا كالمرآة صورة كلّها بهاء وحـلاوة ورواء؟ ماذا لو ضُفر في عقصـة كثيفة مكلّلا أعلى الرّأس، أو انحدر منسـرحا علـى الظّهر خصلة مديدة ناعمة؟ من عظم شـأن الشّـعر أنّ المرأة مهما أخذت زخرفها وازّيّنت بالحلل الموشّـاة بالذّهب واللآ لئ وشـتّى الحلى، وتدرّجت تختال، لا يمكـن أن تعتبرها متزيّنة ما لم تصفّف شـعرها. أمّا فوتيس حبيبتي، فقد زادها الشّـعر عذوبة على العذوبة، لا بتسـريحته المتفنّنة، بـل بإهماله وفوضاه. فقد جمعت عقدة في أعلى رأسـها خصلها المتلاقّة وتركتها تنساب برقّة فتتدلّى من أعلى القفا وتنحدر على نحرها متموّجة ناعمة وتستقرّ على حافّة ياقة إزارها منعقفة أطرافها.

2-10 نشوة الحبّ

لم أسـتطع مقاومة عذاب الشّهوة أطول. فاقتربت منحنيا، وطبعت على محطّ خصلها، من حيث يصعد شـعرها إلى قمّة رأسـها، أعذب قبلة. إذّاك أدارت رأسها وغمزتني بعينين تلتمعان إغـراء، وقالـت :"انتبـه أيّهـا التّلميذ المشـاغب! ها أنـت تتناول

مقبّلات حلوة ومرّة. فحذار أن تثير بحلاوة العسـل المفرطة مرارة الصّفراء المسـتديمة!" أجبت :"ماذا تقولين يا بهجتي، أنا مسـتعدّ من أجـل قبلة واحدة تحيـي مهجتي، حتّى لأن أُصلـى ممدّدا فوق هذه النّار". قلت ذلك وأخـذت ألثمها وأضمّها بحرارة إلى صدري. فمـا لبثـتْ أن تجاوبت مـع اضطرامي، متّحدة معـي في التحام الغـرام، وشـذا أنفاسـها المتضوّع مـن ثغرها المنفـرج، وزغزغة لسـانها العذبة ينبضان بالرّغبة. هتفـتْ: "إنّي أهلك، بل هلكت إن لم تسـعفيني." فعـادت تعانقني وقالت: "تشـجّع فبي مثل مـا بك، وأنا أمة لـك، ولن تؤجَّل متعتنا أطول؛ عند الغسـق آتي إلى غرفتك؛ فاذهب وهيّء نفسـك، لأنّي اللّيلةَ منازلتك ببسالة وبطيب خاطر."

2-11 في انتظار الموعد

بعدمـا تبادلنا هـذه التّأمات افترقنا؛ وعند الزّوال أرسـلت لي برّينة، هدايا ترحاب، خنزيرا سـمينا وخمسـة فراريج ودنّا من خمر معتّقـة من أجود صنف. فدعوت فوتيـس وقلت: "هو ذا باخوس* مشـجّع فينوس* وحامل سـلاحها يسبقها. لنشـرب اليوم كلّ هـذه الخمر لتزيـل عنّا وجل الحشـمة وتبعث فينا جرأة الشّـهوة المتلظّيـة. لهذا الزّاد فقط يحتاج مركب فينوس* لنسـهر اللّيل كلّه ويطفـح بالزّيت مصباحنا وبالمدام أقداحنـا." قضيت بقيّة النّهار في الحمّام ثمّ العشـاء، إذ طلبني ميلون لأشاركه عشاءه، فاسـتلقيت أمام الخـوان متجنّبا نظر زوجته، ذاكـرا وصايا برّينة، ونائيا بعينيّ عن وجهها كأنّي أخشـى الوقوع في فوّارة أُورنوس*، لكنّي كنت أنعش مهجتي بالنّظر إلى فوتيس الّتي أتت لخدمتنا

بين الفينة والفينة. فجأة هتفتُ بنفيلة ملتفتة إلى المصباح، وقد حلّ المساء: "أيّ مطر غزير سيأتي غدا(1)." ولمّا سأل زوجها مستوضحا أجابت أنّ ذلك ما أنبأها المصباح. فعلّق ميلون ضاحكا: "إنّا نحتفظ حقّا في شخص مسرجتنا هذه بعرّافة سيبلّيّة* ترقب من مرصد مشكاتها كلّ شؤون السّماء، بل الشّمس نفسها!"

2-12 سهرة مع ميلون وبنفيلة

تدخّلت عند ذلك: "تلك فعلا أوّليّات فنّ العرافة. لا عجب أن يمكن هذه الذّبالة المهينة والمصنوعة بأيد بشريّة لا محالة، الحاملة مع ذلك ذكرى اللّهب السّماويّ الأعظم مصدرها الّذي منه انبثقت وفيه ستتلاشى أن تعلم وتنبئنا عِرافة وإلهاما بما دُبّر في أعالي الأثير. فمثلا، يوجد عندنا في كورنتوس*(2) عرّاف(3)عجيب يثير بكهاناته المدينة بأكملها ويعلن للجماهير أسرار الأقدار مقابل دوينقات. أيّ يوم مثلا يثبّت روابط زيجة، أو يرسّخ أسس مدينة، أو يناسب تاجرا، أو يواتي مسافرا، أو يلائم ركوب البحر. أنا مثلا لمّا سألته عن نتيجة سفرتي أنبأني بكثير من الأمور المتنوّعة الباهرة. بأمجاد ساطعة وقصّة رائعة ومغامرات غاية في العجب وكثير من الكتب."

(1) تكهّن بنفيلة بالمطر: أي بالعاصفة، تلميح إلى مغامرة لوقيوس الآتية.

(2) عندنا في كورنتوس: نعلم هنا وطن لوقيوس بعد إشارة خفيّة إليه أثناء الحديث عن ديمياس 1: 22

(3) عرّاف: في النّصّ "كلدانيّ" والكلمة لا تحمل دوما معنى جغرافيّا وإن أوحت أوصافه 2: 13 بأصل شرقيّ.

2-13 عرّاف عليم

قال ميلون ضاحكا على كلامي: "ما أوصاف عرّافك ذاك وما اسمه؟" فأجبت: "هو رجل فارع أسمر يدعى ديوفانس*." فهتف: "هو بعينه ولا أحد سواه! لقد أقام هذا الرّجل عندنا وقدّم للعديدين نبوءات كثيرة كاسبا من صنعته لا دوانيق بل أموالا وفيرة. لكنّ المسكين وقع في شرك حظّ لا أدري أأقول منكود أو غشوم(1). ذات يوم، بينما مضى، وسط جمهور غفير، يقدّم للجمع المتحلّقين به تكهّناته، أتاه تاجر يدعى كردون* مستفسرا عن اليوم المناسب لسفر ينويه. حدّد له يوما اختاره، وها هو يطرح هميانا فينثر النّقود ويعدّ مائة دينار هي أجر الكهانة، وإذا بشابّ تنمّ هيئته عن كرم محتده يتسلّل وراء صاحبنا، ويجذبه من طرف ثوبه؛ ولدى التفاته يعانقه بحرارة. فردّ تحيّته وأجلسه إلى جانبه، وخاطبه مشدوها وناسيا من فرط دهشته من اللّقاء المفاجئ الصّفقة الّتي كان بصدد إبرامها: × "متى نزلتَ أهلا بيننا بعد طول شوقنا؟" فردّ الشّابّ: "عند المساء تماما؛ لكن حدّثني بدورك، أيّها الأخ الكريم، كيف تمّت رحلتك بحرا وبرّا بعد إبحارك المفاجئ من جزيرة أوبويا*."

2-14 نباهة عرّاف

ردّ عرّافنا العليم ديوفانس وهو لا يزال في غيابه وذهوله: "على كلّ أعدائنا وخصومنا أدعو بمثل تلك السّفرة النّحسة الّتي أربت على رحلة أوديسّيوس* شؤما! فقد تلاعبت بالسّفينة

(1) حظّ منكود أو غشوم: تلاعب لفظيّ scaevam/saevam وهي كذلك فكرة تتكرّر عند أبوليوس.

الّتي أقلّتنا عواصف عاتية وفقدت كلتا دفّتيها ثمّ جنحت على ساحل شديد الوعورة مرتطمة بعنف وانغرست في القاع؛ وبشقّ الأنفس سبحنا إلى الشّاطئ ناجين بأنفسنا بعد ضياع كلّ أمتعتنا. وكلّ ما استطعنا من بعد جمعه، سواء من صدقات الأجانب أو من مساعدة الإخوان، انتزعه اللّصوص منّا. بل إنّ أخي الأوحد أرغنوتوس* الّذي تصدّى لجبروتهم بشجاعة الأبطال ذُبح أمام عينيّ هاتين." قبل أن ينهي قصّته الحزينة استولى التّاجر كردون على المال الّذي كان قد دفعه أجرا للنّبوءة وفرّ فورا. حينذاك فقط أفاق ديوفانس، وهو يرى الحضور المتحلّقين حوله ينفجرون في ضحكة مدوّية، وتفطّن للكارثة الّتي أوقعته فيها غفلته(1). لكن لك أنت وحدك، أيّها السّيّد الفاضل لوقيوس، لا بدّ أنّ ذاك العرّاف قال صدقا(2). كانت السّعادةُ بصحبتك واليمن رفيقَ مسيرتك."

2-15 الاستعداد لليلة حبّ

بينما مضى ميلون في هذه الأحاديث، كنت أتألّم داخليّا بصمت وأحترق نقمة على نفسي أنا الّذي أثرت هذه السّلسلة من القصص في الوقت غير الموافق، مفوّتا على نفسي جزءا هامّا من السّهرة وأنسها الرّائق. أخيرا غلبت حيائي وقلت لميلون: "فليُقاسِ ديوفانس ما قدّر له حظّه، وليسلّم بدوره إلى

(1) الكوارث التي وقعت لديوفانس: تلقي شكوكا على صحّة ما توقّع للوقيوس؛ عموما نلاحظ عند أبوليوس ازدواجيّة في الحديث عن المنجّمين والعرّافين؛ انظر مثلا: 8: 24 و 9: 8 أو في "المرافعة" 97

(2) لا بدّ أنّه قال صدقا: plane ille vera dixerit في الصّيغة اللاّتينيّة سخرية يصعب نقلها، فالتّمييز plane يعني التّأكيد، وصيغة الفعل dixerit (ماضي المستقبل) لا تخلو من التّشكيك.

البرّ والبحر سويّة ما استحوذ عليه من النّاس. أمّا أنا فما زلت خائرا من تعب أمس فائذن بأن آوي إلى فراشي باكرا." قلت ذلك وغادرته وذهبت إلى غرفتي؛ هناك لاحظت أنّ ترتيبات للعشاء دُبّرت بأحسن وجه. فقد فُرش للغلمان(1) خارج الغرفة على الأرض وبمنأى، لإبعادهم حسبما بدا لي عن سماع نأماتنا ليلا. وبجانب سريري نُصبت مائدة حفلت ببقايا عشاء طيّبة. ووُضع عليها قدحان من صنف وسط سُكبت فيهما خمر إلى النّصف فقط في انتظار مذقها، ورُكزت في متناول اليد قنّينة رُفعت بفتّاحة الأكواز سدّادتها، فوهتها المفتوحة ميسّرة للاغتراف: كلّ المعدّات لمنازلة عاشقين.

2-16 ليلة حبّ

ما كدت أتمدّد على السّرير حتّى أتت حبيبتي فوتيس طلقة الأسارير، بعد إيواء سيّدتها إلى فراشها. وقد دسّتْ وردا منظوما وآخر مفروطا في صدارها. وبعدما عانقتني بحرارة وطوّقتني بجديلة الورد وألقت عليّ نثار الزّهر، تناولت قدحا وسكبت فيه ماء ساخنا ثمّ قدّمته لي لأشرب. وقبل أن أفرغه تماما أخذته برفق ورويدا رويدا، مزّت البقيّة زامّة شفتيها ورانية إليّ. ثمّ دار بيننا ثان فثالث، وتنقّلت بيننا الأقداح تترى، حتّى تئقتُ خمرا وكمل استعدادي للشّبق، لا بالرّوح فقط، بل كذلك بالبدن، وانتشيت

(1) الغلمان: ذكر الكاتب أنّ ميلون بلا خدم ويذكر لاحقا عبدا واحدا له (2: 31، 3: 8، 3: 27، 7: 2) وفي 11: 20 يستخدم صيغة الجمع/المثنّى، وقصّة لقيانوس تذكر عبدا واحدا، فربّما استخدم الجمع من باب التّعميم أو نقل عن قصّة شعبيّة ولم يغيّرها لتحقيق التّماسك والأرجح أنّه يغيّر المعطيات حسب حاجته.

واعترانــي خدر خفيف. فأمطتُ إلى حدّ العانة طرف الرّداء، مبديا لفوتيس الحبيبة نفاد صبر شــهوتي. "ارحمينــي"، قلتُ، "وعجّلي بإسـعافي، فأنا كمـا ترين علــى أتمّ الأهبة بحماسـة للمعركة الوشـيكة الّتــي قرّرتِها لنا دون إعلان حرب حسـب الأصول. حالما تلقّيتُ في سـويداء قلبي أوّل سهم سـدّده كوبيدون* الغشوم صوبي، وتّرتُ قوسـي بـدوري بأقصى الشّـدّ، حتّى لأخشـى أن ينقطع الوتر من شـدّة المدّ. لكن لتبدي رغبتك بنحو أتمّ، أرسـلي شعرك في انسياب مهفهفا فوق ضمّاتك العذاب."

2-17 صراعات الحبّ

فــي الحـال أجُلت كلّ أطبـاق الطّعام بخفّة، وتجـرّدت من كلّ ملابسـها وحلّت شـعرها في دلّ مثير فتحوّلت بروعة إلى صورة لفينوس* وهي تخـرج من اللّجج، مغلّلة بغنج، لا مخفية بخفر، أنوثتها الأملود بكفّهـا القرمزيّة الصّغيرة. "إلـى النّزال"، قالت، "وإلـى النّزال ببسـالة، فما أنا لك بمستسـلمة ولا مولّية قفاي؛ فاصمـد أمامي وجها لوجـه إن كنت تحمل عـزم الرّجال واهجمْ بحماس وقاتل مستميتا، فلا توقّف الليلة لمعركتنا." طلعت وهي تقول ذلك على السّـرير وجلسـت فوقي برقّة، وبهزّات متلاحقة، وتثنّيـات مثيـرة أخذت تحرّك ظهرها الرّشـيق. فـروت ظمئي من لـذّة فينوس* المعلّقة حتّى فترت همّتنـا وكلّت جهودنا فتهاوينا معـا منهكين، ومتحاضنين مسـلّمين روحينا. وامتدّ بنا السّـهر ونحن في هذه الصّراعات وأمثالها إلى حدود الفجر، مسـتعينين بالقدح بين فينة وأخرى لشـحذ همّتنا وتأجيج شـهوتنا وتجديد لذّتنا؛ وشفعنا ليلتنا تلك بعدّة ليال أخرى مماثلة.

2-18 دعوة برّينة

ذات يوم طلبت منّي برّينة بإلحاح حضور مأدبة عشـاء عندها؛ ولمّا اعتذرتُ لها بشـتّى التّعلاّت لم تقبـل اعتذاراتي. فكان عليّ أن أذهب إلى فوتيس لسـتئذانها واسـتفتائها؛ ورغم اسـتيائها مـن ابتعادي عنها ولو قـدر أنملة، قبلت أخيـرا بطيب خاطر هذه الهدنــة الوجيزة لحربنا الغراميّة. أضافت: "لكن حاولْ أن تعود من العشـاء باكرا، فإنّ فئة مسـعورة من شـبابنا المنتمين إلى أرقى الأسر تشوّش الأمن العامّ؛ سترى هنا وهناك قتلى متناثرين على السّـاحات العامّـة، فحامية والـي إقليمنا لبعدهـا عن مدينتنا عاجـزة عن إراحتنا من هذا الأذى. وقـد يجلب لك الخطر مظهرك الموحي بالثّراء وكذلك الاستخفاف بالأغراب." أجبت: "لا تنشغلي يـا عزيزتي؛ ففضلا عن تقديمي لذّاتي معك على كلّ الولائم عند الغير، سـأزيل كلّ مخاوفك بالعـودة إليك باكرا؛ ثمّ إنّي لن أذهب بمفردي، بل سـأتقلّد على جنبي سـيفي رفيق دربي وإلفي، حاملا وسيلة سلامتي"؛ ثمّ التحقت مجهّزا بهذا النّحو بالمأدبة.

2-19 المأدبة

كـان هناك حشد غفير من المدعوّين هم بالضّرورة، كما يُتوقّع لدى امـرأة من النّخبـة، زهرة المدينـة؛ وكنتَ تـرى موائد فخمة متألّقــة بخشــب السّــرو(1) والعاج، وأسـرّة مسـجّاة بأغطية موشّاة بالذّهب، وأكوابا كبيرة متنوّعة في بداعتها وإن اتّحدت في

(1) خشـب السّـرو: citrus شـجر thuya articulata يدعـوه علمـاء النّبـات callitris quadrivalvis وأصلـه من شـمال إفريقية كان ولـع الرّومان به كولع نسـائهم بالجواهر، ذكر بلينيوس 13: 29 أنّ طاولة دائريّة بقطر 4-5 أقدام بيعت بثمن عقار كبير. وهو لا شكّ المعنيّ بالخشب الثّمين في رؤيا يوحنّا 18: 12

نفاستها. هنا الزّجاج المنقوش بمنتهى الإتقان، وهنا البلّور النّقيّ بلا شية، وهناك الفضّة الصّافية والذّهب المتلألئ والكهرمان المحفور بأروع الرّسوم، والأحجار الكريمة، أُعدّت للشّرب كلّها. وكلّ ما لا يمكن وجوده كان يوجد هناك. راح عدّة نُدل ارتدوا كسى فاخرة يعرضون بكياسة أطباقا حافلة بأشهى الأطعمة، وولدان جُعّد شعرهم بالحديد ولبسوا ثيابا جميلة يقدّمون للمدعوّين بلا توقّف أحجارا كريمة شُكّلت أكوابا من المدام الخندريس. بعدما أُدخلت المشاعل، تعالى السّمر حول المائدة وانطلقت من هنا وهناك الضّحكات والنّكات والدّعابات. عند ذلك خاطبتني برّينة: "كيف تجد العيش في بلادنا؟ نحن، فيما أعلم، نتقدّم بشأو بمعابدنا وحمّاماتنا وبقيّة المرافق العامّة على كلّ المدن، ونتفوّق كذلك بوفرة المعدّات المنزليّة. فهنا تتوفّر حقّا للزّائر الحرّيّة إن كان عاطلا(1)، وحيويّة رومية إن أتى يسعى في شغل، وراحة الرّيف إن جاء للاستجمام ببساطة؛ باختصار مدينتنا منتجع مستطاب لكلّ الإقليم."

2-20 السّمر

قلت ردّا على كلامها: "صدقا تقولين. فما خِلتني أكثر حرّيّة في أيّة بلاد أخرى ممّا أنا هنا؛ لكنّني أخشى في مدينتكم(2) مكايد السّحر الّتي تحاك في الخفاء وليس منها محيد. يقال إنّ قبور

(1) تتوفّر الحرّيّة للعاطل: libertas otioso et negotioso... لكن إن كانت negotiosa يصير المعنى: تتوفّر الحرّيّة الخليّة (من كلّ شغل وشاغل).

(2) أخشى في مدينتكم: oppido formido أو: أخشى كثيرا، ترد نفس العبارة بالمعنى الثّاني للكلمة في 2: 25 وفي "المرافعة" 62 تلاعب لفظيّ حولها. وقول لوقيوس يناقض ما قال عن اهتمامه بالسّحر.

الموتى نفسها ليست بمأمن من شرّها، بل يُبحث في المحرقات ونشوز الرّموس عن شتّى البقايا والمزع لتدبير المهلكات للأحياء. بل حتّى أثناء إقامة طقوس المأتم تستبق بعض السّاحرات العجائز بسرعة الطّير طريقة الدّفن الأخرى(1)." عقّب أحد الحضور على كلامي: "الحقّ أنّ الأحياء أنفسهم لا يسلمون ممّا ذكرتَ؛ وهناك شخص تعرّض لأذى من هذا النّوع فقد بُتر وشُوّه وجهه تماما." في الحال، انفجر كلّ الحضور مقهقهين بلا اتّزان، وسُلّطت وجوه وأنظار الجميع ناحية شخص منزو في ركن على سريره. فغمغم مستنكرا(2) وقد سيء بالاهتمام الجماعيّ وهمّ بالنّهوض. لكنّ برّينة استوقفته: "أرجوك، يا عزيزي تليفرون*، أن تبقى قليلا معنا، وتعيد قصّتك على مسامعنا، وفق حسن أدبك المألوف، ليستمتع ابني لوقيوس هذا بحلاوة حديثك اللّطيف." فردّ: "أنت يا سيّدتي دوما على ودادتك وإخلاصك لا جدل، لكنّ صفاقة البعض هنا أكبر من أن تحتمل." بدا وهو يقول ذلك في غاية التّأثّر إلاّ أنّ إلحاف برّينة التي راحت تناشده بإلحاح أن يحدّثنا بحكايته، وتستحلفه بحياتها حقّق لها ما أحبّت.

2-21 قصّة تليفرون: في لاريسة

كدّس الأغطية في كومة واستوى على الفراش متّكئا ثمّ

(1) يستبقن طريقة الدّفن الأخرى: alienam sepulturam antevortunt كما لو كانت أحد البدائل المتاحة (على سبيِل السّخرية). لكن قد يكون المعنى أيضا: يسبقن إلى دفن غريبٍ عنهنّ (أهله).

(2) غمغم باستنكار...: qui cunctorum obstinatione confusus indigna murmurabundus يمكن أيضا أن تكون indigna نعتا للاهتمام الجماعيّ (="غير اللاّئق". وإن كان موضعه الطّبيعيّ قبل الاسم).

مدّ يده اليمنى؛ وشكّلها على طريقة الخطباء، ثانيا إصبعيها الأسفلين، ومبرزا بقيّة الأصابع ورافعا برفق سبّابته، وأنشأ يقول: × "انطلقتُ من ميليتوس* وأنا لا أزال في طور الكفالة لمشاهدة الألعاب الأولمبيّة فعنّ لي أن أزور كذلك هذه الرّبوع من إقليمكم ذائع الصّيت. وبعدما جبتُ أرجاء تسّالية وصلتُ جرّاء طيور نحس إلى لاريسة*؛ وفيما رحتُ أتنقّل باحثا، بعد نضوب مواردي، عن كلّ وسيلة لتخفيف عُدمي، شاهدت وسط ساحة شيخا فارع القوام × قد اعتلى صخرة يهتف بصوت جهوريّ معلنا أنّ لمن يرغب في حراسة ميّت أن يراجعه حول الأجر. فسألت أحد المارّة: "ما معنى ذلك؟ أمن عادة الموتى في هذا البلد الفرار؟" × أجابني: "اسكت! واضح أنّك غلام غشيم، وغريب بلا شكّ، وتجهل أنّك في تسّالية* أين تتمزّع السّواحر وجوه الموتى حيث يجدن مستحضرات وصفاتهنّ السّحريّة."

2-22 حراسة الموتى

رددت سائلا: "قل أرجوك في ماذا تتمثّل حراسة الموتى التي ذكرتَ." فأجاب: "أوّلا يجب أن يظلّ الحارس متيقّظا ومنتبها كامل اللّيل، فاتحا عينيه باستمرار ومركّزا على الجثمان وألاّ ينشغل باله عنه بأيّ شيء سواه ولو بلفتة لأنّ أولئك السّعالى المَريدات يغيّرن أشكالهنّ إلى أيّ حيوان شئن ويزحفن متسلّلات حتّى لَيخفين عن عين الشّمس أو ربّة العدالة*. يتقمّصن أشكال طيور وكلاب وفئران بل وحتّى ذباب ويغرقن الحرّاس في نوم عميق بأخذاتهنّ. ولا أحد يستطيع أبدا أن يعرض باستيفاء كلّ ما يستنبطن من الحيل لتحقيق غاياتهنّ. ثمّ إنّ الأجر المقدّم لهذا العمل لا يتعدّى

أربعة أو ستّة مثاقيل*. وي! اعلمْ أيضا وهو ما كدت أغفله أنّ من لا يعيد الجثمان في الصّباح كاملا لأهله مجبر على ترقيع ما أُتلف أو أُنقص منه بخزعة مماثلة تُقتطَع من وجهه."

2-23 مع أرملة الفقيد

بعدما علمت بكلّ ذلك، استجمعت شجاعتي وتقدّمت من المنادي قائلا: "توقّف! أمامك حارس على أتمّ الاستعداد؛ فقل لي أجرك"؛ ردّ: "ستُعطى ألف درهم. لكن مهلا يا فتى! احتط جيّدا لحراسة الجثمان من أولئك الحرباوات* الدّواهي، فإنّه لابن أحد أعيان المدينة." قلت: "خرافات تروي لي ومحض سخافات! أمامك رجل من حديد لا يعرف جفنه الغمض، أحدّ بصرا من لنكيوس* نفسه أو أرغوس* كلّه أعين يقظى." ما كدت أتمّ قولي حتّى قادني إلى بيت أوصد بابه، فدعاني إلى الدّخول من باب خلفيّ صغير، واقتادني إلى غرفة أغلقت نوافذها ورانت عليها العتمة، فأشار إلى امرأة محزونة الفؤاد تلبس ثوب الحداد. قال وهو يقترب منها: "ها قد حضر رجل استؤجر لحراسة زوجك بكلّ أمانة." فأزاحت خُصل الشّعر المتدلّية أمام محيّاها، كاشفة عن وجه لم يمح الأسى نضرته، وقالت محوّلة إليّ نظرها: "احرص، أرجوك، على أداء مهمّتك بأتمّ اليقظة". فأجبت: "لا تشغلي بالك يا سيّدتي، حضّري فقط مكافأة مناسبة."

2-24 جرُد بالمستلمات

اتّفقنا ونهضت فقادتني إلى غرفة أخرى. هناك أماطت بيدها اللّحاف عن جثمان مسجّى بأكفان فاخرة، بعدما أدخلت

سبعة شهود. وأخذت تذرف فوقه الدّموع طويلا. وتعرض أعضاءه تفصيلا. وتستشهد الحضور: وقد سجّل أحدهم مسبقا بنود ذلك الجرد بالصّيغ المعمول بها على ألواح أُعدّت خصّيصا للغرض. قالت: "هذا الأنف كاملا وتان العينان صحيحتين والأذنان سليمتين والشّفتان وافيتين وهذا الذّقن تمّا بلا نقصان. فاشهدوا أيّها المواطنون الأفاضل"؛ ولم تنته من قولها حتّى خُتمت الألواح وانصرفتُ. قلت عندئذ: "مُري يا سيّدتي بأن يُجلب لي كلّ ما يلزم." ردّت: "ماذا تحديدا؟" أجبت: "مصباح كبير، وما يكفي من الزّيت للإضاءة حتّى الفجر، وماء ساخن مع نياطل من النّبيذ، وقدح، وصينيّة محمّلة ببقايا عشاء." فهزّت رأسها وقالت: "اغرب عنّي أيّها المجنون! تطلب عشاء ومخصّصات في بيت مفجوع لم يُر به دخان منذ أيّام. أتحسب أنّك جئت للقصف؟" × نظرت وهي تقول ذلك إلى خادمة وقالت: "مرّينة*، اجلبي حالا مصباحا وزيتا وأقفلي باب الغرفة على الحارس وانصرفي فورا."

2-25 سبحان من لا ينام

هكذا أُفردت لمؤانسة الجثمان، ففركت عينيّ طويلا وسلّحتهما لمقاومة النّعاس، ثمّ مضيت أثبّت قلبي مدندنا بالأغاني. إلى أن حلّ غبش الغروب، فغسق اللّيل السّاجي فاللّيل الدّاجي ثمّ هدأُ اللّيلِ الهاجع، ثمّ همود اللّيل الخاشع. ومع تلبّد الظّلمة ادلهمّت رهبتي. فجأة، تسلّل إلى داخل الغرفة نمس انتصب قبالتي وحدجني بنظرة شزراء، فطار قلبي شعاعا من فرط ثقة ذلك الحيوان الصّغير بنفسه. ثمّ خاطبته: "إليكِ عنّي أيّتها الخشاشة النّجسة، هيّا اختفي عند أمثالك من الجرذان

قبل أن تخبُري بطشي السّريع! هلاّ ارتحلتِ؟" × فأدار ظهره واختفى لتوّه من الغرفة؛ وإن هي إلاّ لحظة حتّى ألقى بي نوم عميق في غياهب هاوية سحيقة، حتّى أنّ إله دلفي* نفسه ما كان ليميّز مَن مِنّا نحن الاثنين المُمدّدين أكثر إيغالا في هجوع الموت. فقد كنت هامدا وبحاجة إلى حراسة غيري، وكما لو لم أكن موجودا هناك.

2-26 المكافأة

وما لبث أن علا، مؤذنا بانسحاب جحافل اللّيل مؤقّتا، صياحُ كتيبة المقنزحات. فأفقت أخيرا وهرعت، وقد تملّكني هلع شديد، إلى الجثمان؛ فقرّبت منه الضّوء وكشفت عنه، وأخذت أتفحّص بالتّفصيل ما أتاني بالجملة. وإذا بالزّوجة المنكودة تدخل باكية مع شهود البارحة وفي الحال تنكبّ مبلبلة على الجثمان فتضمّه طويلا بحرارة، ثمّ على ضوء المصباح تستعرض كلّ أعضائه، ثمّ تلتفت وتطلب وكيل أعمالها فيلودسبوتوس*. فتأمره بأن يسلّم في الحال للحارس الأمين أجره بالتّمام والكمال. وتخاطبني بعد أن سلّمنيه: "لك منّا، أيّها الفتى، جزيل الامتنان؛ وإنّا لنعدّك من الآن، وحقّ هرقل، أحد خلصائنا جزاء خدمتك المثلى." رددت وأنا أتهلّل فرحا بهذا المكسب غير المؤمّل مشدوها بالقطع الذّهبيّة الّتي رحت أقلّبها بين يديّ: "بل قولي أحد أتباعك يا سيّدتي؛ وكلّما رغبت في خدمتي مُري بفائق الثّقة." ما كدت أقول ذلك حتّى انهال عليّ رجالها، متطيّرين من فألي المشؤوم، مدجّجين بالعصيّ وكلّ ما وقع تحت أيديهم. هذا يهشّم بلكماته فكّيّ، والآخر يدقّ بزنديه كتفيّ، وذاك يطلق قبضتيه الفتّاكتين في

جنبيّ ويشبعني ركلا ويقلّع شعري ويمزّق ثوبي. ثمّ طُردت من البيت ممزّقا مخرّقا كذلك الفتى الأونيّ المتغطرس أو كذلك الموسيقار المعلّم المغرور(1).

2-27 تهمة خطيرة

بينما أنا في ساحة قريبة ألتقط أنفاسي وأستعيد بتأخير أقوالي النّحسة الطّائشة، موافقا على أنّي كنت أستحقّ زيادة عمّا نلتُ جلْدا كثيرا، × إذا بالميت قد أُخرج من البيت بعدما بكاه ذووه ونادوه، وبصفته واحدا من الأشراف نُظّمت له وفق عادات البلاد جنازة رسميّة سارت تشقّ مركز المدينة. فبرز شيخ يلبس السّواد، يبكي في انكسار ويمزّق شعره الأشيب الوقور؛ فأمسك النّعش بيديه وقال بصوت متهدّج يقطّعه الشّهيق: × "أناشدكم أيّها المواطنون بالأمانة ورباط المواطنة أن تتصدّوا لقتل مواطن، وتنتقموا بصرامة من تلك المجرمة الغادرة، عقابا على جريمتها المنكرة. هي، ولا أحد سواها، قتلت بالسّمّ ابن أختي هذا الفتى المنكود بسبب علاقة زنا وطمعا في الميراث(2)." وأخذ ذلك الشّيخ ينتقل من واحد إلى آخر، باثّا شكاواه المؤثّرة؛ فأثار شيئا فشيئا نقمة الجمهور ودفعتهم استلاحة الوقائع إلى تصديق التّهمة. فعلت أصواتهم تطلب النّار وتلتمس الأحجار وتحرّض ضدّ الزّوجة الصّغار. بينما أصرّت هي على إنكار الجريمة،

(1) الأونيّ: بنثيوس ملك طيبة بعد مؤسّسها قدموس جدّه لأمّه، رغم إنذار العرّاف تيرسياس لم يعترف بألوهة ديونيسوس لمّا قدم إليها في صورة إنسان بعد رحلته الآسيويّة، فمُزّق خطأ على أيدي أمّه وأخواتها. المعلّم المغرور الموسيقار لينوس ابن كليوبة ربّة الشّعر الغنائيّ قتله أبولّون لتطاوله أو تلميذه هرقل لضربه.

(2) اتّهام الزّوجة: في "المرافعة" 2 توجّه لأبوليوس تهمة قتل ربيبه بنتيانوس طمعا في الميراث.

مقابلة وعيدهم بدموع مهيّأة ومقسمة بأقدس المقدّسات.

2-28 إحضار العرّاف المصريّ لمعرفة الحقيقة

إذّاك هتف الشّيخ: "لنحتكم إذن إلى العناية الإلهيّة لتبيّن الحقيقة: يوجد بيننا زتكلاس العرّاف المصريّ القدير الّذي اتّفق معي قبل قليل، مقابل مكافأة ضخمة(1)، على إعادة الرّوح لمدّة وجيزة من العالم السّفليّ وإحياء الجسد واستدراك الموت إلى حين." قال ذلك وقاد إلى وسط الجمع فتى حليق الرّأس يلتحف إزارا من الكتّان وينتعل خفّين من السّعف. فلثم يده طويلا وتمسّح بركبتيه قائلا: "حنانيك أيّها العرّاف! ناشدتك بنجوم السّماوات، وبآلهة العالم السّفليّ، وبالعناصر الطّبيعيّة، بخشوع اللّيل وحرمة المعابد القبطيّة، بفيضانات النّيل وأسرار آلهة منفيس* وصنّاجات جزيرة فاروس*. هب هاتين العينين المغمضتين إلى الأبد نعمة الشّمس برهة. لا اعتراض لنا على حكم الضّرورة، ولا ننازع الأرض ملْكها؛ وإنّما نسأل ضارعين نزرا من الحياة علّنا نجد في الثّأر من الجاني شيئا من السّلوان." رقّ العرّاف لحاله فوضع عشبة في فم الميّت وأخرى في صدره. ثمّ ولّى وجهه قِبل المشرق ملتمسا في صمت بركات الشّمس المتهادية في مهابة وجلال. فأثار حماس الحضور الّذين اشرأبّوا متزاحمين يرتقبون الآية الكبرى.

2-29 بين الميت وأرملته

اندسستُ داخل الحشد وارتقيتُ صخرة عالية بجانب النّعش

(1) مقابل مكافأة ضخمة: إشارة فيها تعريض بالسّحرة والمشعوذين والعرّافين. في نفس الوقت هناك، في هندام العرّاف وابتهالاته، إرهاص بعبادة الإلهة إيزيس التي سيعرضها في الكتاب 11

مباشرة، وأخذتُ أتطلّع بعينين ملؤهما الفضول إلى كلّ أعضاء الميّت. وما هي إلاّ لحظة حتّى شال صدرَه انتفاخ، وهزّ عروقه نبضان، وسرت في كامل جسمه الحياة، ونهض الجثمان، وتكلّم الفتى. "لِم أعدتَني بحقّ السّماء بعدما شربتُ كؤوس ليثية*(1) وانطلقت سابحا في مستنقعات إستكس* إلى متاعب الحياة الفانية؟ كفى أرجوك! دعني في راحتي الأبديّة!" بهذا تكلّم الصّوت الصّادر من الجسم؛ لكنّ العرّاف قال بشيء من الحدّة: "ألا تكشف للشّعب بالتّفصيل أسرار موتك بالأحرى؟ أوَلا تظنّ بوسع صلواتي إحضار جنّيّات النّقمة* ولِيّ أطرافك التّعبى؟" × فردّ الميت من النّعش متوجّها إلى الجمهور في زفرة عميقة: "لقد أردتني مكائد زوجتي الّتي مضى قليل على اقتراني بها، وحكمت عليّ بكوب مسموم فتركتُ فرلشي الذي ما زال دافئا لعشيقها." إذّاك استجمعت المرأة الفاضلة شجاعتها وبلا وجل من انتهاك حرمة الموت راحت تجادل زوجها؛ فضجّ الشّعب وتباينت الآراء بين حاكم بدفن المرأة الفاجرة حيّة مع زوجها في الآن، ومستقبح تصديق مزاعم الجثمان.

30-2. المفاجأة

لكنّ تصريح الفتى التّالي حسم الجدال؛ إذ تنهّد مجدّدا من أعماقه وقال: "سأقدّم لكم أدلّة ساطعة على خالص صدقي، وأكشف ما لم يعلم أو يتظنّ يذكر أحد غيري." وتابع مشيرا

(1) كؤوس ليثية: Lethaea pocula في النّصّ يستخدم النّعت بدل الإضافة، ونجد نفس الأسلوب في مواضع أخرى (مثلا 2: 19 حيويّة رومية: Romana frequentia).

بإصبعه إليّ: "بينما كان حارس جسمي هذا الفتى البصير يضرب حراسة مشدّدة عليّ، حاولتْ ساحرات عجائز طامعات فيّ مسخن لهذا الغرض أنفسهنّ مغافلة يقظته المستمرّة السّهرى مرارا دون جدوى. أخيرا، وبعد ما ذررن في عينيه غبار النّوم وطمرنه في سبات عميق، أخذن ينادينني باسمي ولم يكففن إلاّ حين بدأتُ مفاصلي الهامدة وأطرافي الباردة تتململ في محاولات متخاذلة للاستجابة لأسحارهنّ. لكنّ هذا الشّخص الحيّ في الواقع والميّت بالنّوم(1) فقط، لأنّه سميّي، أفاق عند سماع اسمه جاهلا بالشّخص المعنيّ. فمشى تلقائيّا كشبح بلا حياة؛ ورغم أنّ باب الغرفة كان مغلقا بإحكام جُدع من خلال ثقب فيه أنفه ثمّ الأذنان؛ فتعرّض إلى هذه المذبحة الاستبداليّة مكاني. فلِيستدركن آثار خطئهنّ ألصقن له شمعا شُكّل على صورة أذنيه المصلومتين شبها كاملا وجهّزن كذلك للأنف بديلا مماثلا؛ والمسكين الآن هنا حاضر معنا، وقد نال ثمن جدعه لا جدّه." ما كاد ينهي قوله حتّى سارعت هلعا إلى وجهي أتبيّنه؛ مددت يدي وأمسكت أنفي فتبعها وجذبت أذنيّ فانفصلتا. وإذا بالحضور يشيرون إليّ بأصابعهم ويلتفتون مومئين ناحيتي وينفجر مدوّيا ضحكهم؛ ففررت متسلّلا بين أرجل المتفرّجين المحيطين بي وعرق بارد يبلّلني. بعدما صرتُ مسخا مضحكا بهذا الشّكل لم أستطع العودة إلى بيت آبائي وأهلي بل أطلقت شعري على الجانبين لأغطّي ندبة الأذنين، وأخفيت خزي أنفي بما يكفي

(1) الميت بالنّوم: النّوم موتة صغرى. انظر القرآن الكريم 39: 42 وجلال الدّين الرّوميّ: اسب جانها را كند عاري ززين/سرّ النّوم أخ الموتست أين (إنّ معنى الموت في النّوم مبان/ وخفاء الموت في النّوم عيان).

بإلصاق هذا اللّثام عليه بإحكام"(1).

2-31 تجديد دعوة برّينة

مـا إن انتهى تليفرون من رواية هذه القصّة حتّى عاد النّدامى المترعـون خمرا إلى الضّحـك؛ وبينما تعالـت أصواتهم مطالبة بشـرب النّوبة المعتادة على نخب ريسوس*. × توجّهت إليّ برّينة قائلة: "يحلّ غدا يوم الاحتفال بتأسـيس هذه المدينة لمّا كانت لا تـزال في المهد؛ ونحن وحدنا بين النّـاس نتقرّب في هذا اليوم إلى الإله المعظّم ريسـوس* بطقوس ملؤها الفـرح والمرح؛ فلتجعلْه بحضورك عندنا أبهج وأزهى. وحبّذا لو اسـتنبطتَ شـيئا طريفا من ابتكارك الخاصّ لتكريم هذا الإله علّنا نسـترضيه بنحو أفضل وأكمـل"؛ أجبت: "حسـنا. ليكن كما تأمرين؛ ألا ليت شـعري هل أصيـبنّ فكـرة تليق بـه إنّي إذن لسـعيد." ثـمّ لم ألبـث بعدما أخطرنـي خادمـي إلى تقـدّم اللّيـل أن نهضت تقئا بالخمر(2). وودّعت برّينة عجلا ثمّ توجّهت إلى البيت مترنّح الخطى ثملا.

2-32 صراع بطوليّ

لكن ما إن سـرنا في أوّل سـاحة حتّى أطفأت الرّيح المشـعل الّـذي كنّا نعتمد عليه فلم نتمكّن إلاّ بشـقّ الأنفس من العودة إلـى بيت مضيّفي منهكين وأصابع أرجلنا مدماة من العثار على الأحجار والتّخلّص من ظلمة اللّيل الغرّار. فبينما نحن نقترب منه

(1)شـهادة الميّت: هنا يسـتغفل أبوليوس قارئه إذ لا نـرى كيف يدلّ ما حصل لتليفرون على خيانة الزّوجة.

(2) بالخمـر: crapula الكلمـة تعنـي عند كتّـاب متأخّرين الطّعـام. كما في اعترافات القدّيس أغسطينوس.

مترافقـين. لاح لنـا ثلاثة صعاليك عـراض غـلاظ ينهالون بكلّ قواهـم علـى بابنا، دون أن يخيفهـم بتاتا وجودنا. بـل كرّوا بقوى مضاعفة متنافسين في العنف، بحيث بدوا لنا، ولي خصوصا، لا بغير مبرّر لصوصا ومن أشـرس صنف. في الحال انتضيتُ سيفي الـذي كنت أتقلّـده تحت ثوبي تحسّـبا لمثل هذه الطّـوارئ. وبدون تـردّد وثبتُ وسـط اللّصـوص فأغمدته عميقا فيهـم واحدا تلو الآخرلأسـحق كلّ من يقاومني. إلى أن لفظوا أخيرا أنفاسـهم أمـام قدميّ، مثخنين بجـراح عديدة وبليغة. هكـذا انتهيتُ من المعركـة الّتي أيقظت ضجّتها فوتيـس. ففتحتِ البيت فدخلتُ لاهثا مرهقا. أتصبّب عرقا؛ وسـلّمتُ نفسـي، منهكا من صراعي مع أولئك اللّصوص الثّلاثة، سوّغ قتل جريون*(1)، للفراش والنّوم معا.

(1) قتل جريون: يشبّه لوقيوس بأحد أعمال هرقل* الاثني عشر.

الكتاب الثّالث

3-1 الصّباح الجديد

مـا لبثـت أورورة* ذات الصّفائـح الأرجوانيّـة أن ارتفعت على جيادها في السّـماء نافضـة ذراعها المـورّدة؛ فانتزعني اللّيل من راحتي الآمنة وسـلّمني للنّهار. ألمّ بنفسي اضطراب وأنا أتذكّر جناية البارحة؛ فجلسـت على السّـرير ثانيا رجليّ، شابكا أصابع يـديّ ضاغطـا بهما علـى ركبتيّ ورحـت أذرف الدّمـوع، متمثّلا المحكمـة والمقاضـاة بل الحكـم وحتّى الجـلاّد. "أيقيّـض لي قاض رؤوف رحيـم إلى حدّ الحكم ببراءتي وأنا مضرّج بنجيع ثلاث مجازر، ملطّخ بـدم كلّ أولئك المواطنين؟ أهذه هـي الرّحلة الجيدة الّتي بشّـرني بها العرّاف ديوفانـس بإصرار؟" × بينما أنـا أندب حظّي متسـائلا عن مصيري إذا بالباب الخارجيّ يُقرع بعنف وسط هرج ومرج.

3-2 إلى المحكمة

فـي الحال فُتـح البيت بعنـف شـديد، وامتـلأتْ كلّ الأرجاء بقضـاة وأعوانهـم وخليـط مـن الدّهمـاء؛ وعلـى الفـور ألقى

القبـض عليّ فائسـان(1) بأمر مـن القضاة وأخـذا يجرّاني، وأنا بتعقّل ومطاوعة لا أبدي أيّة ممانعة. ما إن سـرنا في الزّقاق حتّى انصبّ السّـكّان في الطّريـق العامّ، متجمهريـن حولنا وتبعونا فـي ازدحام. ومع أنّي كنت أمشـي حزينا مطرقا، أنظر إلى الأرض بل إلى العالم السّـفليّ، لاحظت وأنـا أرمق من طرف خفيّ أمرا فـي منتهى الغرابة. فبين تلـك الآلاف من المواطنين المحيطين بي، لـم يكن هناك أحد إلاّ وهـو يتلوّى من الضّحك. وبعدما جابوا بي كلّ الميادين ولفّـوا بـي كلّ الزّوايا كما يطوّفون على السّـاحات العامّـة قرابـين الفداء، تكفيـرا عن الخطايا ودرءا لمـا أنذرت به خوارق من شـرّ البلايا، أحضروني أخيرا إلـى ميدان القصبة أمام المحكمة. في الحال اعتلى القضاة المنصّة وجلسـوا؛ وطلب المنادي مـن الجمهور الصّمـت؛ فجأة طلب الجميع بصـوت واحد أن تُجرى محاكمة بمثل تلك الأهمّيّة في المسـرح، نظرا إلى كثافة الحشد المعرّض من فرط الاكتظاظ لخطر الحزق. فهرول الشّعب فورا إلى المدرّجات بفوضى واحتلّها بسـرعة عجيبـة كلّها. وغصّ بالزّحام حتّـى المدخل وكلّ المنافذ، كثيرون متراصّون حول الأعمدة وآخرون متعلّقـون بالتّماثيـل وبعض تكدّسـوا على الكـوى والنّوافذ لا يُرى منهم سـوى جـزء، والكلّ مع ذلك لحرصهم على المشـاهدة مستهينون بالأخطار على سلامتهم.

3-3 عريضة الادّعاء

من مؤخّـرة الرّكح هدر صوت المنادي يدعـو المدّعي العامّ إلى

(1) الفائس: lictor يرافق القاضي ويحمل شارات.

الـكلام: فنهض شـيخ. وبينما مضـت زجاجة تُفيـض من الماء المسـكوب فيها قطـرة قطرة من خـلال أنبوب مسـتدقّ تحمله مـكان العنق لتحديد مدّة كلامه(1). حيّى الشّـعب وقال: "أيّها المواطنون الأفاضل. ليسـت قضيّة الحـال بالأمر الهيّن. بل تتعلّق أساسـا بأمن مدينتنا كلّها. وستصلح مستقبلا عبرة لمن يعتبر. لذا يتعـيّن عليكم. فرديّـا وجماعيّا وباعتبار الوظيفة السّـامية المفوّضـة إليكـم أن تحرصوا علـى ألاّ يكون هذا السّـفّاح الأثيم قد ارتكب مجزرته الوحشـيّة دون أن يعاقَب. لا تحسبوني مدفوعا إلـى الصّرامـة بحوافز خاصّة إرضـاء لغلّ شـخصيّ: فأنا رئيس نوبة الحراسـة اللّيليّـة ولا إخال بوسـع أيّ أن يطعن في يقظتي الحازمـة إلى هذا اليوم. باختصار سـأروي الواقـع ذاته وما حصل البارحـة بصدق وأمانة. في الهزيـع الثّالث(2) تقريبا. بينما كنت أقـوم بدوريّتـي متفحّصا من باب إلى باب كلّ شـيء في المدينة بأكملها بمنتهى التّدقيق. × رأيت هذا الشّـابّ المتوحّش ممتشـقا سـيفه ينشـر الرّدى في غارة شـعواء وثلاثة من ضحايا بطشه جُندلـوا أمـام قدميه محشـرجين ومتشـحّطين فـي دمائهم. اضطـرب كما كان طبيعيّا. إذ أدرك فداحة جرمه تلقائيّا. وفرّ فورا منسلاّ تحت جنح الظّلام في بيت ظلّ مختفيا داخله اللّيل كلّه. لكنّـي بفضل عناية الآلهة الّتي لا تسـمح للمجرمين بالإفلات مـن العقـاب. تدبّرت. بعدما انتظـرت حتّى الصّباح على الباب.

(1) الإناء الموصوف: هو السّاعة المائيّة clepsydra التي كانت تُستخدم لقياس وقت الخُطب.

(2) هزيع اللّيل: كان الرّومان يقسّمون اللّيل إلى ستّة أجزاء. فالهزيع الثّالث هو حوالي منتصف اللّيل.

وقبل أن يهرب من بعض الطّرق المسـتترة. لأقتاده أمام قداسـة محكمتكـم الموقّرة. بين أيديكم إذن متّهـم ملطّخ بجرائم قتل عديـدة. متّهـم ضُبط متلبّسـا بالجرم المشـهود. متّهـم غريب: فأنزلوا على أجنبيّ بشدّة حكمكم على جريمة كنتم ستعاقبون عليها حتّى أحد مواطنيكم بصرامة."

3-4 الدّفاع

قـال متّهمـي الفظيع ذلك ثمّ خرس صوتـه المريع: فطلب منّـي المنادي في الحال أن أبدأ إن كنت أودّ الرّدّ على تلكم الأقوال. لكنّي لم أكن أسـتطيع إذّاك سوى البكاء. لا نظرا وحقّ السّماء لعنف ذلك التّشـهير بقدر ما هو بسـبب تأنيـب ضميري: أخيرا رددت بشـجاعة ألهمنيها الآلهـة: × "لا أجهل كم يصعب على متّهـم بجرائم قتل. وقـد عُرضت جثث ثلاثـة مواطنين. وإن قال الحقّ واعتـرف بالوقائع تلقائيّا إقناع حشـد كهـذا ببراءته. لكن إن منحتُنـي رحمتُكم فرصة الإصغاء إليّ برهة. فسـأثبت لكم بسـهولة أنّي لا أواجه خطر الإعدام بوجـه حقّ على إجرامي. بل بالخطإ نقمة عنيفة على فعل حصل صدفة. نتيجة غضب مبرّر من أمر منكر.

3-5 رواية المتّهم

بينمـا كنت عائدا من العشـاء في سـاعة متأخّـرة نوعا ما. وبي شـيء من السّـكر. وهو لا جرَم جُرم لن أنكره. رأيت أمام باب بيـت مضيّفي- فأنا نازل عند مواطنكـم الفاضل ميلون- بعض اللّصـوص العتاة يحاولـون الدّخول ويجدّون لخلع الباب بنسـف

مفصلتيه. وبعدما اقتلعوا المزلاج الّذي كان مثبّتا بإحكام، شرعوا يتداولون حول قتل سكّان البيت. انبرى أشدّهم بأسا وأضخمهم جثّة يحرّض الآخرين بهذه الأقوال: × "هيّا بنا يا شباب، نهجم بعزم الرّجال على النّيام وقوّة الأبطال؛ ليزُلْ من قلوبنا كلّ تردّد وكلّ تهيّب؛ لنسلّ سيوفنا ولْيجُب الموت أرجاء البيت. فأمّا النّائم فلننحرْ وأمّا من يحاول المقاومة فلنجزرْ؛ فإنّما ننسحب سالمين إن لم ندع بالبيت أحدا سالما." أعترف، أيّها المواطنون الأفاضل، أنّي، خوفا على مضيّفي وعلى نفسي، واعتبارا لواجب كلّ مواطن صالح، هجمت على أولئك اللّصوص الأرذلين بسيفي الّذي أصطحبه تحسّبا لأخطار كهذا لترهيبهم وتهريبهم. لكنّ أولئك الهمج المتوحّشين لم يفرّوا، ومع أنّهم رأوني شاهرا سيفي، قاوموا بجسارة.

3-6 مرافعة مقنعة

اصطفّوا للمعركة؛ فهجم عليّ القائد عريف الآخرين بكلّ قواه؛ جذبني فورا بكلتا يديه من شعري، ولواني إلى الوراء مزمعا سحقي بحجر أوعز بإحضاره. لكنّي في الحين جندلته بيد واثقة؛ ثمّ سدّدت لآخر تعلّق بعنت برجليّ ضربة شقّت كتفيه؛ وأرديت الثّالث المندفع نحوي بدون تبصّر بطعنة في الصّدر. هكذا حفظت النّظام وحميت بيت مضيّفي والأمن العامّ؛ وكان ظنّي لا أن أنجو من العقاب فقط، بل أن أنال الثّناء الرّسميّ كذلك. أنا الّذي لم أُطلب للقضاء أبدا بأقلّ جنحة، بل كنت مقدّرا عند مواطنيّ دوما أوثر الاستقامة على كلّ المزايا. لا يمكنني حقّا أن أفهم لماذا أواجه الآن لانتقامي المشروع من أولئك اللّصوص

الأشرار غضبا للحقّ. بينما لا يمكن لأيّ كان إثبات وجود أيّة عداوة خاصّة بيننا مسبقا، بل ولا حتّى معرفة لي بهم من قبل مطلقا، ولا أيّ غُنم قد يُظنّ أنّ رغبتي فيه دفعتني إلى مثل تلك الفعلة."

3-7 تأثير المرافعة غير المتوقّع

قلت ذلك وعدت أذرف الدّموع، ومددت يدي مستدرّا رأفة الشّعب، مناشدا في ضراعة بائسة تارة هؤلاء وتارة هؤلاء باسم أغلى ما لديهم. ولمّا بدا لي أنّهم قد اهتزّوا شفقة، وتأثّروا رثاء لدموعي، أشهدت أعين الشّمس والعدالة*. وفوّضت أمري لعناية الآلهة. ورفعت بصري قليلا فرأيت الشّعب كلّه لا يتمالك نفسه من الضّحك. حتّى مضيّفي ووالدي الفاضل ميلون يتلوّى ليحبس ضحكة كبرى. إذّاك قلت لنفسي: "يا للوفاء ويا لنقاوة الضّمير! أنا أقتل من أجل سلامة مضيّفي وأُحضَر كمتّهم بجناية قد تكلّفني رقبتي، وهو لا يكفيه امتناعه عن منحي عزاء المساعدة، بل يضحك فوق ذلك ملء شدقيه من نكبتي."

3-8 النّطق بالحكم

في تلك الأثناء هرعت إلى وسط المسرح امرأة باكية متّشحة بالسّواد، تحمل في حضنها صغيرا، وخلفها عجوز متخافقة الأطمار تبكي بحزن مثلها، وكلتاهما تلوّح بغصن زيتون. فوقفتا على جانبي الفراش حيث سُجّيت جثث القتلى، وقالتا باكيتين ملتدمتين: × "باسم التّراحم بين المواطنين وحقّ الإنسانيّة المشترك، ارحموا هؤلاء الفتية المغدورين ظلما، وقدّموا لثكلنا

ووحدتنا العزاء بالثّأر لهم. أغيثوا على الأقلّ هذا الصّغير الّذي تُرك منذ نعومة أظفاره بدون مورد وقدّموا دم هذا السّفّاح كفّارة لقوانينكم والنّظام العامّ." ثمّ قام القاضي الأكبر سنّا وخاطب الشّعب بهذه الأقوال: "إنّ الجريمة المطلوب عقابها بحزم لا يستطيع الجاني نفسه إنكارها. لكن بقيت مسألة فرعيّة واحدة تشغلنا هي البحث عن مواطئيه في جرم بهذا الحجم. فمستبعد أن يكون شخص بمفرده قتل ثلاثة شبّان بمثل قوّتهم؛ لذا يجب كشف الحقيقة بالتّعذيب. فقد فرّ خفية غلامه الذي كان يرافقه ووصلت المسألة وضعا لا بدّ فيه من تعذيبه ليُقرّ على شركائه، ويُجتثّ من الأساس إرهاب هذه الفئة الباغية."

3-9 المقلب

في الحال أحضروا وفق عادة اليونان النّار والدّولاب وشتّى أنواع السّياط والقضبان. وزاد حقًّا بل ضاعف حزَني ألاّ يُسمح لي على الأقلّ بالموت كامل البدن. لكنّ تلك العجوز الّتي أفسدت كلّ شيء بدموعها قالت: "أيّها المواطنون الأفاضل، قبل أن تسمّروا على الصّليب هذا المجرم قاتل بنيّ البائسين، ائذنوا بكشف جثث المغدورين، × ليذكي مرأى بهائهم وشبابهم جذوة الاستنكار المشروع أكثر وأكثر أمام وحشيّة جرمه الشّنيع." فهتف النّاس لهذه الأقوال، وأمرني القاضي في الحال بالكشف بيدي عن الجثث المطروحة على الفراش. وبأمر من القضاة لقسري أمام تمنّعي العنيد عن إعادة جرمي السّابق بكشفه من جديد، اجتذب فائسان عنوة يدي المقبوضة إلى جنبي حتّى كادوا يخلعونها ومدّوها فوق الجثث. فاستسلمت أخيرا مكرها لحكم الضّرورة.

وعلى مضض أمطت اللّحاف لكشف الجثث. يا آلهة السّماء! ماذا أرى؟ أيّة أعجوبة هذه؟ أيّ منقلب مفاجئ من مقالب حظّي؟ كنت في عداد ممتلكات بروسربينة* ومماليك أركوس*. فإذا بي أتسمّر بغتة مشدوها حيال صورة مختلفة. لا يمكنني حقّا أن أفسّر سرّ المشهد الجديد بألفاظ مناسبة. إذ كانت جثث قتلاي ثلاث قِرب منفوخة مرقّشة بثقوب شتّى وفاغرة حسبما أذكر عن معركة البارحة في نفس المواضع حيث طعنت أولئك اللّصوص.

3-10 جبر الخواطر

إذّاك انفجرت بحرّية تلك الضّحكة التي احتبسها البعض بمكر إلى حين وسرتُ في الشّعب كاللّهب: هؤلاء يقرقرون من فرط بهجتهم، والآخرون يشدّون بأيديهم على بطونهم لتخفيف ألمهم؛ ثمّ انصرف الجميع من المسرح في انشراح وملقين عليّ نظرة استملاح. أمّا أنا فحالما سحبت الغطاء تسمّرت كالحجر باردا كالجليد، لا أختلف في شيء عمّا في المسرح من التّماثيل والعواميد. ولم أطْفُ من العالم السّفليّ قبل أن يقترب منّي مضيّفي ميلون ويمدّ إليّ يده ويجرّني بقسر رفيق(1)، وأنا أتمنّع و يطفر دمعي مجدّدا ويرجّع شهيقي. وإذ لاحظ خلوّ الطّريق الّتي قادني عبر منعرجاتها إلى بيته، طفق يسلّيني بشتّى الأحاديث، وأنا مكروب بل وحتّى ذلك الوقت مخضوض. لكنّه لم يستطع بحال تخفيف غيظي الكظيم من تلك الإساءة في صميمي.

3-11 تكريم

وإذا بالقضاة أنفسهم يدخلون البيت فجأة، وهم يحملون

(1) بقسر رفيق: clementi violentia تضادّ لفظيّ oxymoron لتأكيد المعنى.

شـــاراتهم. فيهيبون بي محاولين تطييب خاطري: "لا تجهل أيّها السّـيّد لوقيوس علـوّ مقامك وكـرم أرومتك؛ فقد طـوى أرجاء مصرنـا شـرف أسـرتك الشّـهير(1). ومـا لمضرّتـك تعرّضتَ لما تشـكو بشـديد التّأثّر؛ فأجْل عن صدرك الهمّ وأزلْ عن نفسـك الغمّ. فهذه الدّعابة الّتي نحييها عاما بعد عام بمشـاركة كافّة المواطنين احتفالا بالإله ريسـوس* الحميد تزدهر دوما بكلّ جديد مبتكـر. ويرافق هذا الإله مبتدعَه ومثّلَه في كلّ مكان مسـبغا عليـه بركاته وألطافـه؛ ولا يرضى أبدا أن تبخع نفسـك أسـفا وبسُرا، بل ليُطفحنّ محيّاك دوما بشاشـة وبشْرا. هذا وقد قدّمت لك مدينتنا اعترافا بفضلك أمجادا سـاطعة. فسـجّلتك ضمن حُماتهـا وقرّرت إقامة تمثال لك من البرنز." فرددت على خطابهم: "سـأكنّ لكِ يا زهرة مدائن تسّـالية* ودرّتها اليتيمة عرفانا يوازي هذا الشّرف الرّفيع. وإن كنت أرى من الأفضل تخصيص التّماثيل والصّور لمن هم أجدر منّي وأعظم شأنا"(2).

3-12 إلى الحمّام

قلـت ذلك بأدب. وبعد قليـل ودّعت القضاة عنـد انصرافهم بلياقـة طلق الأسـارير ومحاولا قـدر طاقتي أن أُظهـر مزيدا من الابتهاج. في نفس اللّحظة دخل الخادم مهرولا وقال: "أمّك برّينة تطلبـك وتنبّهك لاقتراب موعد المأدبة التـي وعدتها البارحة في

(1)شـرف أسـرتك الشّـهير: inclitae vestrae familiae nobilitas قلب hysteron proteron أو anastrophe/ anaphrase فالأصحّ "شـهرة أسـرتك النّبيلةِ".

(2) التّمثـال: حظي أبوليوس نفسـه بهذا التّكريم في حياتـه، من قرطاج وربّما مدن أخرى، وفي "المرافعة" 14 و"المنتخبات" 16 ما يبيّن حساسـيّته نحوه. كذلك وبعد قرنين تحدّث أغسطينوس عن تقدير سكّان قرطاج له.

آخر السّـهرة بحضورها." فرددتُ وقد دبّت فيّ قشعريرة من الخوف والنّفـور من بيتها: "لكم أودّ يا خالة الامتثال لأوامرك لو أتيح لي أن أفعـل دون إخلاف عهدي. فقد تدبّر مضيّفي ميلون لأشـاركه عشـاءه مقسـما بعـزّة ربّ هذا اليـوم فلا هو يبـرح بيته ولا هو يقبل أن أخرج؛ فلنؤجّل إلى مناسـبة أخرى تعهّدي بحضور مأدبة اللّيلـة." جذبني ميلون بيد حازمة قبـل أن أنهي كلامي. وقادني إلى حمّام قريب بعدما أمر بإتباع لوازم الحمّام؛ فما فتئت أمشـي ملتصقا بجانبه مستخفيا. تحاشيا لأعين النّاس وهربا من ضَحك المارّة الذي صنعت أنا نفسي. فمن خجلي لا أذكر كيف اغتسلت وتنشّـفت، ولا كيف عدت إلى البيت؛ إذ بقيت ذاهلا شارد الذّهن وأنا مرمى عيون الجميع وغمزاتهم وإشاراتهم.

3-13 زيارة فوتيس

تناولـت بعجـل عشـاء ميلون الهزيـل. ثمّ اسـترخصته في الذّهاب إلى فراشـي، متعلّلا بصداع شديد سـبّبته لي الدّموع الغزيـرة. فحصلتُ علـى إذنه بسـهولة وانصرفتُ؛ وأخـذت، وأنا مسـتلق علـى سـريري، أسـتعيد مكسـوف الخاطـر الأحـداث بالتّفصيـل. حتّى أتت حبيبتي فوتيس أخيرا، بعد إيواء سـيّدتها إلى فراشها وقد تغيّرت كثيرا: لم تكن تتكلّم بمحيّاها الضّحوك ولهجتهـا الفكهة، بل بجدّ وتجهّم وقد علـت جبينها الغضون. فاتحتنـي في تـردّد ووجل: "أعترف من تلقاء نفسـي أنّـي أنا الّتي تسـبّبت لك في ذلك الكـدر." قالت ذلك وأخرجـت من حضنها سـيُرا، ثمّ واصلت وهي تمدّه إليّ: "أمسك أرجوك وانتقم من امرأة غادرة بل سـلّط عليها أيّ عقاب أقسى؛ لكن لا تحسبني، أرجوك،

دبّرت لك ذلك الحرج عمدا؛ حاشا للآلهة أن يمسّك بسببي أدنى أذى. بل أهريق دمي فداك إن رقّت عليك ضرّاء؛ فإنّما ارتدّ عليك لسوء حظّي ما أُمرت بفعله لغرض آخر."

3-14 أدب الألفة والألّاف

استفاق إذّاك فضولي المعتاد ورددت متحرّقا إلى اكتشاف سرّ ما حصل: × "شاه السّير شرّ الأشياء وأسفهها ذاك الّذي تُعدّين لجلدك. لألاشينّه تشريما وتفتيتا قبل أن يمسّ بشرتك البضّة الغضّة. لكن، بصدق، خبّريني أرجوك، أيّ ارتباك نجم عمّا فعلت فردّه وبالا عليّ؟ أقسم برأسك الغالي أنّي لا يمكن أن أصدّق أحدا، ولا حتّى أنتِ نفسكِ، إن أكّد لي أنّكِ فكّرتِ أبدا في إلحاق أيّة أذيّة بي. إنّ النّتيجة العرضيّة غيرالمطابقة بل حتّى المضادّة للقصد لا تجرّم ذا النّوايا الطّيّبة"(1). ما أنهيت كلامي حتّى انكفأتُ على عيني حبيبتي المخضلّتين الرّامشتين الذّاويتين صبابة أغمرهما بقبلاتي الحرّى وأنهل بنهم منهما.

3-15 أسرار بنفيلة

قالت وقد استعادت بهجتها: "اسمح أوّلا أن أوصد باب الغرفة جيّدا مخافة أن أرتكب بتفلّت لساني النّزق ناكث العهد مخزية كبرى." قالت وعشّقت المزلاج بسكّته وأولجت في القفيز في نهايته، ثمّ عادت إليّ فطوّقتني بكلتا يديها وقالت بصوت خفيض بل كتيم تماما: "أخاف وأفرَق من كشف خفايا هذا البيت

(1) الأعمال بنواياها: فكرة نجدها عند أبوليوس في "المرافعة" 48 و"المنتخبات" 20 كذلك، وكذلك في "اعترافات" القدّيس أغسطينوس 3: 9 وفي الحديث الشّريف وهي إحدى أسس أخلاقيّات كنط.

وإفشاء أسرار سيّدتي. لكنّي أشيم فيك وفي نهج حياتك مخايل الخير: فإنّك، فضلا عن كرم المنبت وتسامي النّهى، تعلم، أنت المطلَع على عديد الأسرار المقدّسة، واجب الكتمان المقدّسَ. لذا أرجوك أن تحفظ طيّ الكتمان ما أستودع محراب فؤادك الطّهور وأن تجزي سلامة طويّتي إذ أبوح لك به باستمساكك بسرّيّته. فحبّي لك هو الّذي يفرض عليّ مسارّتك بما أعلم بمفردي. ها أنت ستعرف أوضاع بيتنا وستطّلع على أسرار سيّدتي العجيبة، الّتي تُخضع بها أرواح الموتى، وتحوّل عن مساراتها النّجوم، وتُرضخ الآلهة، وتسخّر العناصر. وأنشط ما تكون في استخدام سلطان فنّها إذا رنت بوله إلى فتى بهيّ الشّكل، وهو ما يحدث كثيرا لعمري.

3-16 الشّعر

هي الآن مفتونة بشابّ بيوتيّ* رائع الحسن شغفها حبّا، وتوظّف بحماس كلّ قوى فنّها وحيله(1) لاستمالته. في الأصيل سمعتها، بأذنيّ هاتين سمعتها تتوعّد الشّمس نفسها، لأنّها لم تسرع انحدارها في السّماء وتعجّل بالإفساح للّيل كي تمارس مكائد سحرها، بحجبها بضباب حالك وظلمات سرمديّة. وقد لاحظتُ أمس صدفةً، عند إيابها من الحمّام، ذلك الشّابّ جالسا في دكّان مزيّن، فأمرتني باختلاس قبضة من شعره الّذي اجتزّه المقراض وما زال ملقى على الأرض. وفيما

(1) حيله: machinas يستخدم أبوليوس كلمة تعني الوسيلة الحربيّة وتتّصل بعلم الآلة، الميخانيكا أو علم الحيل كما كان العرب يسمّونه. نجد نفس اللّفظة في "المرافعة" 97 في الحديث عن حيل رجل لتزويج ابنته.

أنا أجمعه بعناية وتخفّ، اكتشفني المزيّن. ولعلمه شيئا ما بما شُهر عنّا من تعاطي الأسحار أمسكني وقرّعني بفظاظة: × "ألا تنتهين أخيرا يا خسيسة عن اختلاسك المتكرّر لشعر من تنتقين من الشّبّان؟ إن لم تكفّي أخيرا عن هذا العمل الإجراميّ، فسأسلّمك بحزم إلى القضاة"؛ وأردف الفعل بالقول، داسّا يديه بين نهديّ للتّفتيش، فانتزع مغضَبا خصل الشّعر الّتي أخفيتها. تأثّرت ممّا حدث، وفكّرت في طباع سيّدتي الّتي اعتادت، من شدّة الغيظ لفشل كهذا، أن تضربني بقسوة؛ فأخذت أفكّر في الفرار لكنّي عدلتُ عنه في الحال لأنّك خطرتَ ببالي.

3-17 مستحضرات سحريّة

لكن بعدما انصرفتُ من هناك حزينة خشية أن أعود صفر اليدين لاحظتُ شخصا يجزّ بجلم قِربا من جلد الماعز. ثمّ رأيتها مربوطة بإحكام ومنفوخة ومعلّقة. فالتقطت قبضات من شعرها الأشقر الملقى على الأرض والشّبيه بشعر ذلك الفتى، فحملتها إلى سيّدتي مخفية عنها الحقيقة. هكذا منذ بداية اللّيل، قبل انسحابك من المأدبة، صعدتُ سيّدتي بنفيلة بالشّعر الّذي جلبتُ لها وبها لهب وحرّ ومن الحبّ جنون مستمرّ، متسوّرة إلى سقيفة بجانب البيت المقابل، معرّضة للرّيح من كلّ صوب، مطلّة على الشّرق والجهات الأخرى سويّا. تعوّدت المكوث فيها خفية إذ جعلتْها مناسبة تماما لممارسة أفانين سحرها. فأقامت فيها بدءا، حسب إعداداتها المعتادة، مشغلها المشؤوم، الحاوي كلّ أصناف العقاقير، وصفائح تحمل طلاسم مستغلقة، وما تبقّى من حطام سفن منكوبة، × وأجزاء كثيرة معروضة من

جثث بُكيتْ وأخرى دُفنتْ: هنا مناخر وأصابع وهناك دُسُر علقت بها جِذم من جثث مصاليب وهنالك دم قتلى محفوظ وجمجمة منهوشة انتُزعتْ من أنياب الوحوش غلابا.

3-18 حلّ اللّغز

ها هي بعدما تلتْ تعاويذ على أحشاء لم تبارحها اختلاجة الأنفاس، تسكب عليها أشربة شتّى، من ماء نمر، إلى حليب بقر، فماذيّ جبلٍ وبتع عسلٍ. ثمّ تقدّم ذلك الشّعر مضفورا ومعقودا(1)، مع أنواع شتّى من البخور، لجُذى متأجّجة لتأكله النّار. في الحال، بقوّة السّحر القاهرة وجبروت القوى العمية المسخّرة، تستعير تلك القرب الّتي تطقطق جززها على الجمر مشويّة، روحا بشريّة. فتحسّ وتسمع وتمشي وتأتي حيث تقودها رائحة شواء رفاتها، وتحاول، بدلا من الفتى البيوتيّ*، الدّخول، فتهجم على بابنا. وإذا بك تصل فجأة، مخبولا بالخمور ومخدوعا بظلمة اللّيل الغرور، فتستلّ سيفك بعزم وتشهره كأياس* في هياجه المسعور. لكن بينما مزّق هو في جنونه قطعانا من أغنام حيّة، أزهقتَ أنت بشجاعة أكبر بكثير أنفاس ثلاث قرب منفوخة من جلد الماعز(2). فعانقتُ إذّاك فيك يا بطلي، بعدما جندلت العدا بدون لطخة دم، لا باتر رقاب بل باقر قراب."

3-19 طلب غزِل

ضحكتُ من فكاهة فوتيس ورددتُ مازحا بدوري: "أستطيع

(1) معقودا: تُستخدم العُقد للعَقد ونجدها في كثير من الوصفات السّحريّة، وقد جاء ذلك في سورة الفلق.

(2) أزهقت أنفاس ثلاث قرب: تلاعب لفظيّ لأنّ exanimo تعني "قتل" وكذلك "أخرج النّفَس" أو الهواء.

إذن، منـذ هذه اللّحظـة، أن أعدّ هذا النّصر باكـورة مآثري، نظير أحد أعمال هرقل* الإثني عشـر. فإنّي أعدل بجثّة جريون* ثلاثيّة الجـذوع أو قامــة كربروس* ثلاثيّــة الرّؤوس عددا مماثـلا من القرب القتلـى. لكـن لأغفـر لك طوعـا وبطيـب خاطر خطـأك الّذي ألقانــي في كُرب كبرى امنحينــي مـا أطلبك بأقصى مناي. أريني سـيّدتك، وهي تعمل شـيئا مــن علمها الخوارقيّ؛ بـودّي أن أراها عند اسـتحضار الآلهة، أو على الأقلّ عند مسـخ نفسـها، فإنّي أتّقد رغبة في الاطّلاع على السّـحر عيانا. وإن كنتِ أنتِ نفسكِ لا تبديـن لــي حقّا قليلة أو عديمــة الخبرة بهذه الأمــور. أدرك ذلك وأحسّـه بكلّ وضوح، إذ تمسّـكينني، أنا الّذي كنت في ما مضى أنكف عن أحضان النّساء، عبدا راضيا برقّي، لعينيك المزغللتين$ ووجنتيك المتورّدتين وشعرك الشّعشـعانيّ وشفتيك المتلظّيتين ونهديك المتأرّجين. حتّى زهدت في بيتي وأهلي، وبتّ لا أوثر شـيئا على ليلتي معك."

3-20 الوعد

أجابـت: "كـم أودّ يا لوقيوس أن أمنحك ما تحـبّ؛ لكنّها، زيادة علــى جفاء طباعها، اعتادت الاختلاء بمفردهــا، بمعزل عن الجميع، لمزاولة أنشــطتها السّــرّيّة. غير أنّي سأقدّم مطلبك على خوفي مــن الخطر، وســأجتهد لتنفيــذه، متحيّنة فرصــة مواتية؛ لكن، كمــا قلتُ في البــدء، أعط من جهتك هذا الأمــر الخطير الأمانة والكتمان." هكذا بقينا نتسامر إلى أن أيقظت الصّبوة المتبادلة الشّــوق في روحينا وجســدينا معا. فنضونــا كلّ ثيابنا وأطلقنا عاريين أجردين جماح الهوى المتلظّي، حتّى منّت فوتيس عليّ وقد

أخذ منّي الإعياء، بالحلوان المرجّى، من جودها الفتيّ المسـتديم؛ ثمّ سـرتْ في عيوننا الذّاوية من السّهر سِـنة من النّوم أخذتنا إلى سراة النّهار.

3-21 تحوّل بنفيلة

بعدما قضينا بضع ليال نسـتنزل اللّذّات بهذا النّحو، هرعت إلــيّ فوتيس يومــا منفعلة والاضطراب باد عليهــا، فأخبرتني أنّ سـيّدتها عازمة في اللّيلة التّالية، لأنّ وسائلها الأخرى لم تقدّم شـيئا في شــأن حبّها، على اتّخاذ ريش والتّحوّل إلى طير لتطير إلــى حِبّها. وعلــيّ إذن أن أعتد لنفســي مرصدا آمنــا لرؤية هذا المشــهد الفريد. وعند حلول اللّيل، قادتني بنفســها خلسة إلى مقصورة السّــقيفة وأمرتني بمراقبة ما يجري من شقّ بالباب. ما لبثت بنفيلة أن تجرّدت من كلّ ملابســها وفتحت سفطا عندها ســحبت منه عــدّة علب نزعت ســدادة إحداهــا. فأخرجت منها على مــرّات مرهما دهنت به كفّيها طويلا ثــمّ عركت كثيرا كلّ جسمها من أخمص قدميها إلى قمّة رأسها، وأسرّت للمصباح بكلام كثير؛ ثــمّ انتفضت فجأة، وهزّت أطرافَها رجفاتٌ متتابعة. فمرنت وماعت ورختْ، ونبت عليها زغب ناعم، ثمّ نما ريش أخشن، وتصلّــب الأنف متقوّســا، وتيبّســت الأظافــر معقوقفة. صارت بنفيلة بومة! فنعبت نعيبــا عاليا ثمّ نطّت من على الأرض عدّة نطّات لاختبار طاقتهــا وبعد قليل طارت مرتفعة إلى أعالي الجوّ باسطة جناحيها.

3-22 لوقيوس يريد تقليد بنفيلة

لقد مسخت حقًّا نفسها طيرا وبمحض إرادتها؛ بينما تسمّرتُ أنا الّذي لم يفتنّي أيّ سحر مشدوها بما يجري أمام عينيّ. بل كنت أشبه إلى أيّ شيء منّي إلى لوقيوس. كنت مصعوقا غير واع بما حولي، كمن به مسّ، غائبا، مفتّحةً عيناي نائما؛ فأخذت أفرك جفنيّ وأعيد لأتأكّد أنّي في حالة اليقظة. أخيرا عدتُ إلى الوعي بما حولي، فأمسكتُ يد فوتيس وأدنيتُها على عينيّ وقلتُ: × "اسمحي، أرجوك، ما دامت الفرصة تدعوني، بالاستفادة من ثمار مودّتك العظيمة والرّائعة، وبإعطائي شيئا من ذلك الدّهان، بحياة نهديك ذينك يا حلوتي؛ واضمني، بهذه المنّة الّتي لا تقدّر بثمن، أن أظلّ عبدك إلى الأبد، واجعليني ألازمك كيوبيدا* مرفرفا حول فينوسي*." ردّت: "ماذا تقول ويحك، يا ثعلبان ويا زير النّسوان! أتدفعني إلى إعمال فأسي في رجليّ بنفسي؟ بالكاد أحتفظ به وهو أعزل من ذئبات(1) تسّالية* فأين ترى سأبحث عنه إن استحال طيرا، ومتى سأراه؟"

3-23 ويطمئن فوتيس

أجبت: "معاذ الآلهة أن أرتكب مثل هذا الجرم النّكر، أن أمتنع، حتّى بعدما أحلّق عاليا في السّماء كالنّسر، رسولا أمينا ليوبتر* الأعظم أو حاملا لمجنّه بادي البشْر، عن النّزول أخيرا مرفرفا إلى وكري. أقسم بعقصة شعرك الحلوة الّتي سبيتِ روحي بها ألّن أوثر على فوتيسي ما حييتُ امرأة غيرها. ولقد خامرتني بالمناسبة

(1) ذئبات: ذئبة تعني في اللاّتينيّة أيضا بغيّ. والمقصود هنا النّساء صيّادات الرّجال عموما.

خاطرة: أنّ عليّ بعدما أدّهن وأتقمّص هيئة الطّير أن أتجنّب كلّ دار؛ فلعمرك ما أظرف وما أبهى البوم عشيقا تقضي الغواني منه وطرا. ألسنا نحرص على إمساك هذه الطّيور اللّيليّة كلّما دخلت أحد البيوت، وتسميرها على الباب، لتفتدي أسرتنا بعذابها من الخطر الّذي يهدّدها به طيرانها المشؤوم؟ لكن، كدت أُغفل سؤالك عمّا أقول أو أفعل لأخلع ذلك الرّيش وأعود لوقيوس من جديد." أجابت: "لا خوف عليك في هذا الباب. فقد علّمتني سيّدتي بالتّفصيل ما يعيد إلى الهيئة البشريّة تلك الصّور المسيخة. لا تظنّها فعلت ذلك طيبةً منها، وإنّما ليمكنني ردّها بالعقّار النّاجع سيرتها الأولى. انظر بأيّة عشيبات تافهة مهينة يؤمَّن أمر بهذه الخطورة: قليل من الشّبت مع أوراق من الغار ممزوج في ماء نمير، يعطى مغتسلا وشرابا."

3-24 تحوّل لوقيوس

أكّدتُ لي ذلك مرارا، وتسلّلت وهي في غاية الاضطراب داخل الغرفة وأخرجت علبة من الصّندوق. فاحتضنتُها وقبّلتُها أوّلا داعيا أن تبارك طيراني، وبسرعة خلعتُ كلّ ملابسي ثمّ غمستُ يدي بلهفة، فاغترفت منها كمّيّة وافرة من الدّهان دلكت بها كلّ أعضائي. ثمّ أخذت أرفرف بذراعيّ كالطّير في محاولات متتابعة: لكن لا ريش ولا زغب حتّى. بالعكس اخشوشن شعر بدني تماما إلى سبائب، وتيبّست بشرتي الرّقيقة إلى جلد غليظ وفي أطراف أكفّي اتّحدت كلّ الأصابع في حوافر ونبت لي في العصعص ذنَب كبير. ها أنا الآن بوجه ضخم وفم عريض وخيشومين فاغرين ومشفرين متهدّلين وأذنين مسبسبتين مع

نماء مفرط. ولا أرى لي من عزاء على هذا التّحوّل التّعيس سوى نموّ بعض أعضائي، وإن بتّ الآن عاجزا عن احتضان فوتيس الحبيبة.

3-25 الدّواء في متناول...الفم

أخذت أقلّب البصر ولا وسيلة للخلاص، في كلّ أعضاء بدني، فلا أراني طيرا بل حمارا(1). فأهمّ بالشّكوى ممّا فعلت فوتيس بي. لكنّي سُلبت الحركة والصّوت البشريّين. فما أستطيع سوى مطّ شفتي والرّنوّ إليها بعينين دامعتين، موجّها إليها شكاتي الخرساء. لمّا شاهدتني على تلك الصّورة لطمت وجهها وهتفت: "سحقا لي من شقيّة! أضلّني تعجّلي واضطرابي، وخدعني تشابه العلبتين. لكن، لحسن الحظّ يوجد علاج لتدارك هذا التّحوّل بسهولة. ما عليك إلاّ أن تمضغ شيئا من الورد لتخرج من صورة الحمار وتستردّ فورا صورتك الإنسانيّة، فتعود لوقيوس حبيبي. ليتني أحضرت هذا المساء كعادتنا بعض أشرطة من الورد! ما كنت إذن لتنتظر ليلة واحدة! لكن، لا عليك، فأوّل مطلع

(1) التّحوّل إلى حمار: اختيار الحمار، الّذي اقتبسه أبوليوس، يعود إلى قدرته على التّنقّل وملاصقته للإنسان ممّا يسهّل كتابة رواية فيها عدّة مغامرات في أماكن شتّى أبطالها بشر، لكن قد تكون له دلالة فلسفيّة فالحمار في الدّيانة المصريّة القديمة رمز للحمق والشّرّ، بينما البومة في الميثولوجيا اليونانيّة/الرّومانيّة طير أثينة/مينرفة إلهة الحكمة (في مقدّمة مبادئ فلسفة الحقّ شبّه هيغل الفلسفة "بطير مينرفة الّذي لا ينطلق في الطّيران إلاّ في اللّيل"، وفي إنجيل متّى 3: 16 شُبّه الرّوح القدس بحمامة، كذلك في التّراث الإسلاميّ كرسالة الطّير لابن سينا وعينيّته ورسالة الطّيور لأحمد الغزاليّ- أخ أبي حامد- ومنطق الطّير لفريد الدّين العطّار يُكنى بالطّير عن النّفس وفي القرآن 27: 16 عن الحكمة وتقترن بنفس المعنى في قصّة الحمامة المطوّقة في "كليلة ودمنة". وتؤيّد ذلك قصّة بسيشية اللاّحقة). وقد يفسّر ذلك أيضا الشّبه بين كلمتي حمار وطير في اللّغة اليونانيّة (أنوس وأرنطوس) واللّغة والميثولوجيا السّومريّة (أنسو وأنزو) إن صحّ أنّ للقصّة جذورا في ثقافات الشّرق الأوسط. مسخه إلى حمار عقاب على فضوله سنفهم سببه في الكتاب 11

النّهار أحضر لك الدّواء."

3-26 بداية طيّبة

هكذا مضت في تذمّرها؛ أمّا أنا فاحتفظت، رغم مسخي حمارا وتحوّلي من لوقيوس إلى دابّة بكماء، بالإدراك البشريّ. فكّرت طويلا، متسائلا إن كان أحرى بي(1) أن أنهال على تلك المجرمة رفسا وعضّا حتّى أقتلها. لكنّ رأيا أصوب جعلني أعدل عن هذا المشروع المتهوّر، هو خشيتي أن أزيل إن عاقبتُ فوتيس بالموت كلّ ما يسعفني بالخلاص(2). فدلدلت وقلقلت رأسي وكظمت غيظي من هواني المؤقّت راضخا للظّرف العصيب؛ وذهبت إلى جانب راحلتي، جوادي الطّيّب الوفيّ، في الإسطبل حيث وجدت كذلك حمارا آخر آويا هناك(3). ميلون، مضيّفي إلى عهد قريب. كنت أخمّن أنّ حصاني، إن كان للدّوابّ البكماء عهد فطريّ مضمر، سيقدّم لي، بدافع الشّفقة والعرفان، القِرى، مأكلا ومنزلا. لكن، وايوبتر* المضياف! ويا ربّة الوفاء* المعتزلة عن عالم البشر! لقد تآمر عليّ الاثنان، زاملتي الوفيّة مع ذلك العيْر، مقرّبين رأسيهما، واتّفقا على إيذائي على الفور. ولخوفهما لا شكّ على علفهما، حالما رأياني أدنو من مذودهما، خفّضا آذانهما مغضبيْن، وأتبعا ذلك برفسات نحسات. هكذا دُحرت عن الشّعير الّذي وضعته مساء بيديّ لذاك الخادم الشّكور!

(1) تساءلت إن كان أحرى بي: deliberavi an deberem مجانسة صوتيّة.

(2) سأزيل إن عاقبت فوتيس بالموت ما يسعفني بالخلاص: مقابلة /morte salutares وmultata/suppetias وكان بإمكان أبوليوس كذلك استخدام جناس incepto inepto أي "مشروعي الأخرق" عوض temerario. الإسطبل...آويا: جناس مطلق stabulum/stabulantem.

3-27 تثنية الاجتراع

لم يسعني إزاء معاملتي بذلك النّحو ونبذي وإفرادي سوى الانزواء في ركن من الإسطبل؛ وبينما أنا أفكّر في سفاهة زميليّ، وفي الانتقام من ذلك الحصان الجحود، غداً لمّا أعود، بفضل نوُر الورود، لوقيوس من جديد، × رأيت على المنتصف تقريبا من العمود المركزيّ الذي يحمل سقف الإسطبل تمثالا للإلهة إيبونة* منتصبا على منصّته، زُيّن بتفنّن بأكاليل ورد جنيّ بالتّحقيق. راودني الأمل وأنا أتميّز وسيلة خلاصي، فمددت جاهدا قدر طاقتي قائمتيّ الأماميّتين، وانتصبت بقوّة ممطّطا عنقي وممغّطا مشفريّ إلى أقصى حدّ، واشرأببت بكلّ جهدي لالتقاف الأكاليل. لكن لنكد حظّي رآني فجأة وأنا أحاول ذلك خادمي الّذي اعتدتُ أن أكِل له تعهّد حصاني؛ فنهض مستنكرا وصاح: × "حتّام نتحمّل هذا البرذون المتحرّش السّاعةَ بعلف الدّوابّ والآن بتماثيل الآلهة؟ × لأورثنّ مدنّس الأقداس هذا عرجا وعاهة مستديمة"؛ والتفت فورا يبحث عن أداة لضربي. فعثر على حزمة حطب وُضعت بالصّدفة هناك. فانتقى أغلظ ما فيها، شطَبة فلعاء كثّاء، ولم يكفّ عن ضربي حتّى سمع الباب يُرَجّ في قرقعة عنيفة وسط صخب شديد، والجيران يلغطون منبّهين إلى اللّصوص؛ ففرّ فزعا.

3-28 ثمّ ثالثة الأثافيّ

ما هي إلاّ لحظة حتّى فُتح الباب بقوّة، واحتلّت زمرة من اللّصوص كلّ النّواحي؛ فطوّقت مجموعة مسلّحة كلّ أقسام

البيت، وتصدّت بضراوة للمدد الّذي هبّ للنّجدة من كلّ صوب حركة الأعداء المحمومة. كانوا مجهّزين بسيوف ومشاعل أضاؤوا بها الدّجى فبرق كضوء الشّمس سنا الشُّعل وفرند السّيوف. ها هم يهبّون إلى مخزن مقام وسط الدّار، مغلق وموصد(1) بأمتن الرّتج، يغصّ بكنوز ميلون، فيميلون عليه فيفلقونه بفؤوسهم الصّوارم، ثمّ، بعدما يهشّمون أقفاله، يخرجون كلّ الثّروات، فيحزمونها بعجلة في رزم يتوزّعونها. لكنّ كمّية الأحمال ربت على عدد الحاملين؛ فاضطرّوا، وهم من وفرة الثّروات المفرطة في أشدّ حرج، إلى إخراجنا نحن الحمارين وحصاني من الإسطبل. فحمّلونا رزما ثقالا إلى أقصى طاقة ممكنة، وأخرجونا متوعّدين بالعصيّ من البيت الذي بات خاليا، تاركين أحدهم ليراقب ويبلّغهم عن مجرى التّحقيق في الجريمة، وقادونا على شعاب جبليّة منعزلة موجفين علينا من هراواتهم بزخّات متتالية.

3-29 واقيصراه!

فمن ثقل الحمولة ووعورة انحناء الجبل وطول الطّريق أيضا صرت لا أختلف عن الميّت في شيء؛ وخطر ببالي، بتأخير لا محالة لكن بجدّ(2)، أن ألجأ إلى السّلطات طالبا نجدتها فأخلّص نفسي من تلك المتاعب مستغيثا باسم الإمبراطور المبجّل(3). حاولتُ

(1) مغلق وموصد: obseptum obseratum"que جناس ناقص استهلاليّ.

(2) بتأخير لكن بجدّ: sero/serio جناس مختلف.

(3) باسم الامبراطور: قد يشير هذا إلى تاريخ كتابة الرّواية، ففي الفترتين 161-169 و176-180 أشرك مرقس أورليوس معه امبراطورا ثانيا: "أخاه" ويروس ثمّ ابنه كومّودوس، ممّا يرجّح تأليفه في الفترة 169-176. لكنّ "حمار" لقيانوس يشير هو أيضا إلى امبراطور واحد مع أنّ لا شيء يثبت أنّه هو ولا الأصل الذي

عند مرورنا بقرية حافلة بالسّكّان مشهورة بسوقها، وقد طلع النّهار، أن أرفع عقيرتي، بين حشود الأهالي اليونان، نادبا بلسان البلاد اسم قيصر المعظّم. فلهجت ب"وا" فصيحة وصحيحة، لكنّي عجزت عن نطق اسم قيصر المتبقّي. فانهال اللّصوص مستهجنين صوتي النّكر النّاشز على جلدي المنكود من كلّ صوب فتركوه لا يصلح بعد حتّى غربالا؛ لكنّ يوبتر* هيّأ لي أخيرا خلاصا لم أكن أحلم به. فقد لمحت، أثناء مرورنا بعدد من الضّياع والمنازل الفخمة، حديقة غنّاء رائقة، أينعت فيها، بين أعشاب غضيرة نضيرة أخرى، ورود أبكار، تتلألأ بندى الصّباح. اقتربت منها مرتعشا من الشّهوة ومنتعشا بأمل الخلاص، يستخفّني الفرح. وبدأت أمدّ شفتيّ المرتعشتين لتناولها حين عنّ لي رأي أسلم عقبى. فلو ظهرتُ بعد سلخ صورة الحمار لوقيوس مجدّدا، لوجدت على أيدي اللّصوص هلاكا مؤكّدا، سواء لارتيابهم بممارستي السّحر، أو لاشتباههم في نيّتي الوشاية بهم. أمسكت عن الورود إذّاك عن اضطرار، متحمّلا محنتي الحاضرة باصطبار، ورحت ألوك الكلأ كدأب كلّ حمار.

نُقل منه ألّف في نفس الفترة، ثمّ إنّ هذه الإشارة في عمل روائيّ لا تعكس بالضّرورة واقعا تاريخيّا. من ناحية أخرى لا يشير أبوليوس ولا خصومه في "المرافعة" إلى الرّواية (مع أهمّيتها كدليل لكلا الطّرفين في مسألة اهتمامه بالسّحر)، ولا يذكرها بشكل صريح في "المنتخبات"، ممّا يؤيّد أنّها أُلّفت بعد 169. كذلك قد يشير حديثه عن "قاضي النّاحية" في 1: 6 إلى تأليفها في عهد مرقس أورليوس.

الكتاب الرّابع

4-1 في المرعى

قرابة الزّوال ووهج الشّمس على أشدّه، نزلنا ببلدة عند عجوزين من أصحاب اللّصوص وخلصائهم. تشهد بذلك فعلا وقدر ما يتاح لحمار إدراكه حفاوة الاستقبال والمحادثة الطّويلة والقُبل المتبادلة. فقد أنزلوا من على ظهري بعض الأمتعة وقدّموها لهما وبوشوشات خفيّة بدوا كأنّهم يبيّنون لهما أنّها نصيبهما من غنائم سطوهم. ثمّ حملونا، بعدما رفعوا عنّا أحمالنا، إلى مرعى قريب لنرعى طلقاء أينما بدا لنا؛ فلم تستطع صحبتي كمؤاكل للحمار والحصاني شدّي إلى الحشائش الّتي لم أعتدها حتّى ذلك اليوم في حميتي. لكنّي بصُرت قرب الإسطبل بحديقة دخلتها، وقد أهلكني الجوع، بخطوة واثقة؛ فأقبلت على الخضر رغم نيوءتها آكل منها بشاهية، وأجيل بصري في كلّ ناحية، مبتهلا إلى جميع الآلهة علّي أجد في الجنائن المجاورة مِوُردة تسطع متألّقة. كان خلوّ المكان ذاتُه يمنحني ثقة، إن تناولت بمنأى عن الطّريق ومخفى بالجنبات دوائي، فانتصبت مجدّدا بلا راء، قائما من وضع الدّابّة المحنيّ إلى وضع

الإنسان السّويّ.

4-2 يا وردة سطعتْ ...وطاب أريجها

بينمـا أنـا أتأرجح في بحر تلـك الفِكر، بصُرت عـن جُنُب بواد صغير تظلّله غابـة غلباء، تتألّق بين أعشـابه المتنوّعة وخضرته الضّاحكة ورود متلألئة حمـراء. فأوحى إليّ فؤادي الّذي لم يتلبّد كفؤاد البهيمة أو يتبلّد بأنّه غاب مقدّس لفينوس* وربّات الرّواء* تشـعّ بين جوانبه المنعزلـة الكمداء وردة جذلى بسـناها الملكيّ الـلألاء. فاسـتخرت إوَنتوس* الرّضيّ ولـيّ التّوفيق واندفعت في ركض محموم حتّى أحسستني بالتّحقيق. لا حمارا وحقّ الآلهة بل فرس سـباق أُطلق بأقصى السّـرعة. لكنّ روعـة ذلك المجهود لـم تغلب رعونة حظّـي المنكود. إذ لم أر عنـد اقترابي من المكان ورودا طريّة، رائقة نديّة بقطرات الطّلّ ورحيق الآلهة. انبثقتُ بين الأشـواك الجذلة الحالة، × ولا أيّ واد بل فقط ضفّة نهر محفوفة بكثير من الأشـجار × تحاكي بكثافة أوراقها شجيرات الغار. تتورّد أكمامها المديدة زهورا بلا شـذا. × يسـمّيها العامّة بلغة الرّيف ورود الدّفلى، وهي سمّ لكلّ دابّة وردى.

4-3 مزايا الحِمية النّباتيّة

في غمـار البلايـا المتتالية بـتّ أرفض حتّى حفظ سـلامتي وأرغـب عمدا في تناول تلك الزّهرة السّـامّة. بينما أنا أدنو متردّدا لقطفهـا إذا بفتى هو كما يبدو صاحـب الجنينة الّذي أتلفت له كلّ الخضـار، × يهرع بعدما علـم بذلك الدّمـار، مغضبا وحاملا هراوة غليظة، فيسـتلمني وينهال بها علـى كلّ بدني حتّى كاد

يودي بحياتي، لولا أنّي بحكمة قدّمتُ العون لذاتي. رفعتُ قطَنيّ عاليـا وأطلقت عليـه بقائمتيّ الخلفيّتين(1) وابـلا من الرّمحات. ولّمـا رأيتُـه يثوي مهيضـا على منحنـى أكمة بجـواري، خلّصتُ نفسـي لائذا بالفرار. لكنّ امرأة، هي زوجته بلا جدل، رأته مجندلا وشـبه ميّت من علٍ، فهبّت إليه مولولة بأسى في الحال، لتجعل رحمتها به وبالا عليّ حسبما بدا لي. إذ أثار نواحها كلّ الفلاّحين، فأطلقوا فورا كلابهم مغضبين، وراحوا يحمّشونها من كلّ ناحية لتمزّقني بوحشيّة. أشـفيت على الموت حقّا وأنا أرى تلك الكلاب الضّخمة جثثـا والكثيرة عددا والأنسـب لعمري لقتـال الدّببة والأُسُـد تؤلّـب وتهيَّج ضـدّي. فحزمت أمري للخطـب وأقلعت عـن الهرب وعدت أدراجـي إلى المأوى حيث كنّا قـد نزلنا. فمنعوا كلابهم عنّي بصعوبة ثمّ أمسـكوني، وربطوني إلى حلْقة بسيْر متـين وأخذوا من جديد يضربونني حتّـى كادوا يقتلونني. لولا أنّ معدتـي المتشـنّجة من ألم ضرباتهـم المبرّحـة، والممتلئة بتلك الخضر النّيّئة، والمصابة بمُشـاء وإسهال من فجاجتها، قذفت عبر المعي بمجاجتها، ففرّقتهم عن ظهري المحتدَم، بعضهم برشـاش ذلك السّرجين الوخِم، والآخرين بنتنه المغثي الزّخِم.

4-4 فرصة ذهبيّة

لّما زالت الشّمس مع العصر، أخرجَنا اللّصوص من الإسطبل، مثقِلـين ظهري أنـا خصوصا بأرزن حمل. كنّا قد قطعنا شـوطا معتبـرا من الطّريق وقـد هدّني طول المسـافة وانقصم ظهري

(1) رمحات بقائمتيّ الخلفيّتين: pedum posterioribus calcibus نوع من المجاز المرسل hypallage إذ يجعل أبوليوس نعت "الخلفيّتين" في إعرابه تابعا للرّمحات (لضرورة السّجع على الأرجح).

بثقل وزري وأوهنتني لطعات العصيّ وتآكلت حوافري فصرت أظلع وأتعثّر في سيري. وفيما كنت أمشي حذو جدول تتثنّى مياهه رقراقة رقيقة، لقيت لحسن الحظّ فرصة دقيقة: فكّرت أن أبرك ثانيا بمهارة قوائمي ملقيا على الأرض بكلّ جسمي، × مصمّما بإصرار على ألاّ أنهض مهما أشبعوني ضربا لمواصلة السّير، مستعدّا للموت من الضّرب لا بالعصا فقط بل حتّى بالسّيف. ففي تلك الحال من العجز والإرهاق، كنت واثقا من استحقاقي إجازة مرضيّة وأنّ اللّصوص لا شكّ سويّة، لنفاد صبرهم من التّأخير، وحرصهم على الإسراع في الفرار، سيفرّقون على الدّابّتين الأخريين ما على ظهري من الأوزار، ويتركونني شماتةً بي جزرَ الذّئاب والنّسور.

4-5 وعسى أن تحبّوا شيئا وهو شرّ لكم

لكنّ القدر الخذول عرقل مشروعي الجميل؛ فقد حدس الحمارُ الآخر فكرتي وسبقني إلى تنفيذها، فهوى بكلّ ما عليه من الأحمال، متظاهرا بشدّة الإنهاك، وثوى كالميّت بلا حراك. ورغم ضربات العصيّ والنّخسات، وجذب ذيله وأذنيه وقوائمه إلى كلّ الجهات، رفض أن ينهض. حتّى أعيوا وقطعوا منه أخيرا رجاءهم، فتشاوروا وكيلا يؤخّروا فرارهم بِرهن أنفسهم على حمار مات بل تحجّر من زمان، × وزّعوا أحماله عليّ وعلى الحصان، واستلّوا سيفا قطعوا به كلّ عراقيبه، ثمّ جرّوه قليلا عن الطّريق ودفعوه في الوادي القريب على جرفه السّحيق. فاتّعظت بمصير رفيقي التّعيس، وقرّرت أن أتخلّى عن الغشّ والتّدليس، وأُظهر نفسي لأسيادي حمارا على طريق الرّشاد. فقد فهمت من أحاديثهم أنّنا

سنحطّ الرّحال بعد قليل، ونستريح بعدما بلغنا نهاية السّبيل، وأنّهم يتّخذون ذلك المكان لهم مقرّا ومقاما. وما لبثنا فعلا، بعد عبور مرتفع خفيف الصّعود، أن وصلنا إلى المكان المقصود: هناك وضعوا عنّا كلّ الأحمال، وأخفوها بالدّاخل. فرُحت حرّا من الأثقال أزيل تعبي بالتّمرّغ في الرّغام، بمثابة الاغتسال في الحمّام.

4-6 كهف اللّصوص

هنا بمقتضى الموضوع والظّرف أرى لزاما عرض وصف للموقع وللكهف الّذي يقطنه أولئك اللّصوص. فبذلك سأضع قريحتي على محكّ الاختبار، وأمكّنكم في الآن نفسه أن تقدّروا بالوجه الصّحيح إن كنت إذّاك حمارا أيضا بالذّهن والأفكار. كان جبلا كالحا تلقي عليه أغصان الغابات الملتفّة ظلالا داكنة ويرتفع شاهقا بين أعلى الجبال؛ وعلى منحدره الوعر الّذي تكتنفه صخور ناتئة يتعذّر بلوغها، تتناثر أودية مخدّدة ومجوّفة، مرقّشة بغياض كثيرة، تحيط به من كلّ جوانبه، مشكّلة تحصينا طبيعيّا. ومن قمّته يتدفّق سيل عارم مدردرا متوثّبا على المنحدرات، متقيّئا لججه الفضّيّة، ثمّ يتفرّق إلى عدّة جداول، ناشرا حشدا من الأضى بين تلك الوهاد، ويحتصرها بما يشبه بحرا طاميا أو خنادق مياه راكدة. هناك، على شفا الجبل، ينتصب حصن الكهف المنيع؛ ويحمي القلعة العتيدة المناسبة كحظيرة للأغنام، سياج من حواجز متينة ممتدّة على كلّ الجوانب أمام مدخل ممشى ضيّق يشبه سورا مبنيّا. أراهن بكلّ ثقة أنّك لو رأيتَه لقلتَ ذاك مخبأ لصوص. ولا شيء إلى جانبه سوى كوخ صغير مغطّى كيفما اتّفق بخوص متشابك، يراقب منه في كلّ اللّيالي، كما

اكتشفت لاحقا، عسس يعيّنون بالقرعة من بين اللّصوص.

4-7 اللّصوص في المغارة

هناك نزلوا لواذا زاحفين حازقين أطرافهم بعدما ربطونا بحبل متين أمام المدخل رأسا. ثمّ نادوا بغلظة عجوزا فانية حناها عبء السّنين وُكِلت إليها وحدها كما يبدو سلامة وخدمة كلّ ذلك العدد من الفتيان. "تبّا لك يا غثاءة القبر وثفالة الحياة. يا حثالةً يعافها أركوس* دون العالَمين. هكذا تعيشين في البيت عاطلة كسلى ولا تقدّمين لنا ما يؤسينا عن أعمالنا الخطيرة الجلّى إذ نأخذ أخيرا قسطا من الرّاحة. وأنتِ لا همّ لك ليل نهار سوى قذف الخمر في أتون جوفك الرّهيب." ردّت العجوز مرتجفة وبصوت فيه تهيّب وصغار: "رويدكم يا فتيتي أبسل الأبطال، وأولياء نعمتي دائمي الأفضال. ها قد أعددت لكم أطباقا شهيّة حافلة بشتّى أصناف الطّبيخ، وخبزا وفيرا، وملأت الأكواب خمرا بعدما غسلتها وفركتها بفائق العناية. وحضّرت ماء ساخنا لحمّامكم السّريع المعتاد." ما إن أنهت كلامها حتّى نزعوا ثيابهم. فأنعشوا أبدانهم التّعبى بالبخار المتصاعد من على نار ذات لهب، واغتسلوا بالماء السّاخن، وادّهنوا بالزّيت ثمّ اتّكؤوا أمام موائد عجّت بما لذّ وطاب.

4-8 فروع اللّصوصيّة

ما إن اتّكؤوا حتّى قدم شبّان آخرون أكثر عددا، يمكن الحكم بدون تردّد بأنّهم لصوص مثلهم. إذ كانوا يحملون مثلهم غنائم متنوّعة: نقودا وأواني ذهبيّة وفضّيّة وكساء من حرير موشّى

بخيوط الذّهب. فأنعشوا أجسامهم كالأوائل بحمّام ساخن، ثمّ جلسوا بين أرائك رفاقهم؛ واختير بالقرعة بعضهم للخدمة. فأكلوا وشربوا بلا لياقة ولا اعتدال مزدردين الطّبيخ أكداسا والخبز أكواما وأكواب الخمر صفّا صفّا. وتفكّهوا في لغط، وغنّوا في صخب، وتعالت فكاهاتهم الفجّة وعربداتهم الفاحشة القريبة من مجون اللاّبثيّين* أشباه الوحوش أو القناطير* أشباه البشر؛ ثمّ انبرى أحدهم، يبدو الأقوى بينهم. "داهمنا اللّيلة بيت ميلون الهيباتيّ؛ وفضلا عمّا غنمنا بفضل شجاعتنا من ثروات طائلة، عدنا إلى قلعتنا بكامل عددنا، بل، إن كان يجدر ذكر ذلك، بزيادة ثماني أرجل. أمّا أنتم الّذين قصدتم مدن بيوتية*، فعدتم بعدد منقوص بفقدان قائدكم المقدام لاماخوس* الّذي أفدي حياته، كما هو أهل له، بكلّ هذه الغنائم الّتي جلبتم. لكنّ فرط شجاعته هو الّذي أورده الرّدى؛ ولتخلّدنّ الأيّام ذكرى ذلكم البطل بين مشاهير الملوك وقادة الحروب. أمّا أنتم، فلستم سوى سرَقة شطّار تتسلّلون متخفّين ومتخوّفين إلى الحمّامات وغرف العجائز، فتنهبون ما تقع عليه أيديكم في عمليّات اختلاس صغيرة تليق بالخدم والعبيد."

4-9 غنيمة سهلة

ردّ واحد من الفريق الأخير: "أتراك دون الجميع تجهل أنّ أكبر البيوت أسهلها اقتحاما؟ فلئن كان عديد من الخدم يقطنون البيت الكبير، إلاّ أنّ همّ كلّ منهم النّجاة بجلده قبل ثروات سيّده. بينما يذود الأشخاص الحريصون الّذين يعيشون بمفردهم ببسالة عن ثروتهم الصّغيرة، بل وربّما الكبيرة، والّتي أتقنوا

إخفاءها(1) ويبذلون دماءهم فداءها؛ مصداق قولي ما حدث لنا نحن أنفسنا. حالما وصلنا طيبة* ذات الأبواب السّبعة، شرعنا في الاستخبار بدقّة عن ثروات المواطنين. فذلك أوّل متطلّبات مهنتنا. فعلمنا بصيرفيّ صاحب أموال طائلة يدعى خريصروس*، يخفي بأفانين من الدّهاء ثروته الواسعة تهرّبا من الأعباء والفروض العامّة. فكان يعيش منفردا ومنطويا(2) في بيت صغير لكن حسن التّحصين، راضيا بعيشه ذاك، مرتديا أسمالا رثّة، مقتّرا بنحو مزر، حاضنا أكياس الذّهب. فرأينا أن يكون أوّل من نغشى، مستصغرين مقاومة يد واحدة، ومستسهلين الاستحواذ على أمواله.

4-10 القوّة والحيلة

بادرنا منذ بداية اللّيل بالتّربّص أمام بابه الّذي لم نستصوب شيله أو خلعه أو فتحه عنوة، مخافة أن تؤلّب علينا قرقعة مصراعيه الجيران. ما كان إذّاك من زعيمنا العظيم لماخوس إلاّ أن عمد بثقة في شجاعته المشهودة إلى إيلاج يده بالتّدريج إلى ثقب القفل المفسح لإيلاج المفتاح وراح يحاول سحب المزلاج. لكنّ خريصوس، شرّ من دبّ على قدمين حقّا، كان يرقب يقظا كلّ حركاتنا منذ فترة فتسلّل الهوينى ملازما صمتا تامّا، وبمسمار غليظ ثبّت فجأة وبكلّ قواه يد قائدنا على فردة الباب. وتركه مشدودا بقيده المردي وصعد إلى سطح الدّار فأخذ يصيح

(1) تفنّنوا في إخفائها: dissimulanter obditos الكلمتان مترادفتان تقريبا.

(2) منفردا ومنطويا: solus ac solitarius كلمتان مترادفتان تقريبا، وجناس مطلق مع سجع.

بأعلى صوته مستنفرا جيرانه، داعيا كلاّ باسمه، منذرا بالخطر على سلامة الجميع، مدّعيا أنّ حريقا شبّ فجأة في بيته؛ فهبّ الجميع لنجدته، مذعورين من الخطر الدّاهم.

4-11 أشدّ من السّقم الذي أذهب السّقم

وجدنا أنفسنا أمام خيارين أحلاهما مرّ: إمّا أن يداهمونا وإمّا أن نتخلّى عن رفيقنا؛ فارتأينا برضاه مَخرجا ناجعا من مأزقنا الطّارئ. سدّدنا بدقّة لعضو زعيمنا الواصل بين اليد والعضد ضربة على مستوى المفصل الأوسط^ فصلت ذراعه؛ فتركناها هناك وضمّدنا الجرح بقطع من القماش كيلا تكشف أثرنا قطرات الدّم، وانسحبنا سراعا، حاملين ما بقي من لماخوس. وبينما كان الضّجيج المتعالي يستحثّنا في قلقنا على صاحبنا، والخوف من الخطر المقترب يدفعنا إلى الفرار في هلع، × لم يستطع ذلك الرّجل ذو الهمّة العالية والشّجاعة الفذّة مسايرتنا ولا التّخلّف عنّا بأمان. فمضى يطلب منّا بعديد الخطب وعديد التّوسّلات، ويناشدنا بيمين مارس* وبحرمة ميثاقنا، أن نخلّص من العذاب والأسر معا رفيقا مخلصا. إذ ما جدوى إبقاء لصّ باسل بعد فقدان يده التي هي وحدها القادرة على السّلب والقتل؟ وإنّه لسعيد بالموت برضاه على أيدي رفاقه. لمّا عجز عن إقناع أيّ منّا بالإجهاز عليه بإرادته، أخذ باليد المتبقّية سيفه وعانقه طويلا، ثمّ شكّ بطعنة صمّاء صدره في الوسط. فحيّينا بإجلال شهامة زعيمنا الهمام ولففنا بعناية بقيّة جسمه في لحاف من الكتّان، وألقينا به إلى البحر حيث يثوي الآن، متّخذا عنصرا بأكمله لحدا.

4-12 الرّأي قبل شجاعة الشّجعان

هكـذا وضـع حـدّا لحياته يليـق فعـلا بمناقبـه. أمّـا رفيقنا ألكيموس*، فلم يسـتطع بخططـه الذّكيّـة أن يجلب لصفّه مشيئة الحظّ الغشوم. اقتحم دويرة عجوز أثناء نومها وصعد إلى الغرفة العليا. وكان الأوْلى به أن يعصر عنقها فيكتم أنفاسـها، لكنّه فضّل البدء بإنزال الأمتعة واحدا تلو آخر من شـبّاك واسع إلينـا في الخارج لنحملها طبعا. ولمّا انتهى تماما من ترحيل الأثاث، أبى أن يعفّ حتّى عن مفرش العجوز الغارقة في النّوم؛ فدحرجها من فوقه وسـحب الحشـيّة بنيّة إنزالها بنفس الطّريقة. فجثت الماكرة على ركبتيها مسـتعطفة: "قل يا بنيّ. لِم تعطي أسمال وأسـقاط عجوز بائسـة لجيرانها الأثرياء الّذين تطلّ هذه النّافذة على بيتهـم؟" × خدعه كلامها المتلئ مكـرا ودهاء وبات واثقا من خطئه. فخشـي طبعا إلقاء ما بعث سـابقا وما ينوي بعثه لاحقا لا إلى شـركائه، بل إلى بيت الجيران. فاعتلى النّافذة وتعلّق بهـا، ملقيا نظرة متفحّصة حواليه، سـيما علـى البيت المحاذي ليطّلـع على الثّروات الّتي زعمـتُ. ففيما هو يحاول ذلك، بعزم لا شكّ لكن بدون احتراس، ألقت به العجوز الماكرة، بدفعة ضعيفة لا محالة لكـن مباغتة وغير منتظَرة، وهو يحملق غير مسـتقرّ شارد اللّبّ. وفضلا عن سقوطه من مثل ذلك العلوّ الشّاهق، وقع على صخرة مذبّبة ملقاة قريبا؛ فاندقّ صدره وتهشّـمت ضلوعه وروى لنا ما حدث وهو ينفث من فمه أسرية من الدّم؛ وفارق الحياة دون أن يطـول عذابـه. إذّاك حملنـاه لدفنه بالطّريقة السّـالفة وأعطيناه لماخوس خير رديف.

4-13 انسحاب المنتصرين

بعدما أصابتنا هذه الخسارة المثنّاة بضربة قاصمة، تخلّينا عن محاولاتنا في طيبة*وقصدنـا بلاتية* القريبة. هناك تناهت إلى أسماعنا شـهرة رجل يدعى ديموخريص* على وشك تقديم عرض مجالديـن؛ وقد دأب هـذا الرّجل كريم المحتد والمتميّز بسـعة ثرائه وسـخائه على إتحاف الشّـعب بفخامة عروضـه اللاّئقة بثروته. من يسـتطيع فعلا، مهما بلغ مـن النّباهة والفصاحة أن يصف بكلمات مناسبة شـتّى أوجه إعداداته المعقّدة؟ هؤلاء مجالدون مشـهورون بقوّتهم، وهؤلاء مصارعو وحوش مشهود ببراعتهم، وأولئـك مجرمون يوفّرون بوجباتهم، فـي أَمَنة الهلاك المحقّق(1)، غذاء لتسمين السّباع. وتلك محالة برج مركّب من ألواح مجمّعة ومترابطة على شـاكلة بيت متنقّل، مزدان برسوم زاهية الألوان، محلّ مشـهد الصّيد الموعود. أمّا عن تشـكيلة السّباع، عددها وأنواعهـا، فحـدّث ولا حرج: فقـد جلب بفائق الحـرص من الخارج قوافل من تلـك المثاوي الكريمة للمحكوم عليهم بالإعدام. لكنّه بجانـب بقيّـة التّجهيزات لعرضه الرّائع، سـخّر كلّ ثروته خاصّة لاقتنـاء مجموعـة كبيرة من الدّببـة الضّخمـة. بعضها صاده عبيده، وبعضا اشـترى بالجملة، وحصـل على أخرى من أصدقائه المتباريـن في إتحافه بمثـل هذه الهدايـا؛ وكان يعتنـي بتغذيتها وينفق عليها دون حساب.

(1) أمنــة الهلاك المحقّق: perdita securitate عبارة موجزة فيها مجاز مرسـل فالهلاك نعت للأمنة. في العربيّة أيضا قد يقوم المفعول مقام المصدر: بأيّيكم المفتون أي الفتنة أو العكس صُنع اللّه أي مصنوعه.

4-14 خطّة ذكيّة

لكنّه لم ينج، لشهرته والتّحضيرات الباذخة لعرضه الجماهيريّ الشّيّق، من عيون الحسد المَريدة. فقد ملّت تلك الوحوش أسرها الطّويل، وصهرها في نفس الوقت قيظ الصّيف، وأضرّ بجسمها طول الجمام. فأصيبت بوباء مفاجئ قلّص عددها إلى لا شيء تقريبا. فكنت ترى جثث تلك السّباع المحتضرة متناثرة هنا وهناك على السّاحات العامّة؛ وما لبث الرّعاع الّذين اضطرّهم شظف العيش إلى البحث بغير انتقاء عن أغذية إضافيّة ولو غير صحّيّة وأطعمة مجّانيّة أن هرعوا إلى تلك المآكل الملقاة في كلّ الأماكن. فاستوحينا، أنا وإيبولوس* هذا، من ذلك الوضع الطّارئ فكرة ذكيّة. حملنا إلى مخبئنا واحدا من تلك الدّببة، هو أضخمها قواما، كما لو كنّا نريد إعداده لنا طعاما. فسلخنا جلده عن لحمه بإتقان، محافظين بمهارة على مخالبه، وعلى رأسه إلى حدّ العنق، وكشطنا الجلد جيّدا وذررنا عليه رمادا ناعما لدبغه ثمّ نشرناه للشّمس لتجفيفه. وفي انتظار تيبّسه بوهج الشّمس أقبلنا بهمّة على اللّحم خضفا وقصفا، ثمّ وضعنا هذه الخطّة للحملة القادمة. أن يتطوّع أحدنا، لا الأقوى جسما بل الأمضى عزما، لتقمّص جلد الدّبّ والتّنكّر في تلك الهيئة، فنُدخله تحت جنح الظّلام إلى بيت ديموخريص ليؤمّن لنا الدّخول بسهولة.

4-15 البطل

أثار مثال البطل الكيّس تنافسا بين عدّة رفاق من الفريق لأداء

المهمّة. فانتُقي من بينهم باختيار كلّ الفريق ثراسليون*. فتقدّم مجازفا بإنجاز ذاك التّمويه الخطير، واختفى طلق المحيّا داخل الجلد الّذي اكتسب مرونة ولدانة. إذّاك طابقنا بخياطة دقيقة طرفيه، وغطّينا شقّ ملتقاهما الدّقيق بالوبر الكثّ المتلبّد حواليه. وبشيء من العسف حشرنا رأس ثراسليون بأعلى النّحر حيث حُزّ عنق الوحش. وأحدثنا حول أنفه وعينيه ثقوبا صغيرة للتّنفّس والنّظر وحشرنا برفيقنا الصّنديد، وقد حوّله التّنكّر إلى دبّ بالتّأكيد، وسط قفص اشتريناه بسعر زهيد؛ فانسلّ داخله بعزم وخفّة. بعد إنجاز الإعدادات بذلك الشّكل، واصلنا بقيّة عمليّات التّزييف كما يلي.

4-16 هديّة معتبرة

استخبرنا عن رجل من تراقية* يدعى نيقانور*، تربطه بديموخريص صداقة حميمة. فاختلقنا رسالة تنبئه افتراء أنّ صديقه الودود يهديه بواكير صيده لتجهيز عرضه. ولمّا تقدّم المساء، اغتنمنا ستر الظّلام لنقدّم لديموخريص قفص ثراسيليون والرّسالة المدلّسة. فمن إعجابه بضخامة الوحش وفرحه بعطيّة صديقه الّتي أتت في الوقت المناسب أمر بأن تُصرف لنا فورا من خزانته عشرة مثاقيل ذهبيّة كانت إذّاك بحوزته، كحلوان لحاملي التّحفة سبب فرحته. وكما يدفع حبّ الجدّة النّاس إلى كلّ مستحدث، توافد على الوحش عديد المعجبين؛ وكان ثراسيليون يذبّ الفضوليّين منهم بهجماته المتوعّدة المتكرّرة. أشاد المواطنون بديموخريص مجمعين على أنّه سعيد ومحظوظ، فبعد كارثة نفوق وحوشه صمد بنحو ما

بهذا الرّفد الجديد أمام الحظّ(1)؛ وأمر بنقل الدّبّ فورا وبعناية إلى أراض مخصّصة لثروته الحيوانيّة؛ فرددت:

4-17 إنقاذ الموقف

"حذار يا مولاي أن تضمّ هذا الدّبّ المنهك من حرّ الشّمس وطول الطّريق إلى مجمع وحوشك العديدة والعليلة على ما يقال. لِم لا توفّر له بالأحرى مكانا واسعا ومهوّءا ببيتك، بجوار الماء والكلإ وفي جوّ منعش؟ ألا تعلم أنّ هذا النّوع من الحيوانات يسكن دوما الحراج المغلولبة والمغاور الرّطبة والجداول العذبة؟" أثارت هذه التّحذيرات مخاوف ديموخريص، واستعرض في نفسه ما مُني به من خسائر، فوافق بدون ممانعة، وأذن لنا بوضع القفص أينما أعجبنا. قلت: "إنّا مستعدّان لقضاء اللّيالي واقفين أمام القفص، لنقدّم لهذا الحيوان المتعَب من الحرّ والمضايقات والحركة طعامه وشرابه في الميعاد بدقّة وانتظام." فأجاب: "لا نحتاج البتّة إلى تجشيمكما هذه المشقّة، فكلّ الخدم تقريبا مدرَّبون بحكم طول الممارسة على تغذية الدّببة."

4-18 عمليّة سطو مرتّبة

ودّعنا وغادرنا فرأينا، عند خروجنا من باب المدينة، مقبرة تقع في مكان منعزل ناء عن الطّريق. فتحنا هناك عشوائيّا بعض التّوابيت النّخرة الّتي لا تكاد، من القِدم والبِلى، تغطّي ما بداخلها، يسكنها موتى استحالوا غبارا ورمادا، لنجعل منها مخابئ لغنائمنا مستقبلا. تحرّينا من اللّيل، وفق أصول الحرفة، فترة أفول

(1) novo proventu quoquo modo: صمد بنحو ما بهذا الرّفد الجديد أمام الحظّ: fortunae resisteret معنى ثان ممكن: نهض شيئا ما برفد جديد من الحظّ.

القمر، لمّا يتغشّى النّوم من أوّل كرّة قلوب البشر؛ فامتشقت كتيبتنا السّيوف واتّخذت أمام باب ديموخريص مواقعها حسب خطّة السّطو الموضوعة لها. ولم يشذّ عنّا ثراسيليون: هو أيضا آنس من اللّيل اللّحظة المواتية للسّرقة واندفع خارج القفص، فأعمل سيفه في كلّ العسس المضطجعين في سبات بقربه ثمّ في البوّاب نفسه. واستلّ منه المفتاح وفتح لنا الباب على مصراعيه؛ فاندفعنا إلى داخل البيت حيث استقبلنا ودلّنا على مخزن رأى المساء، بفطنة اللّصّ الأريب، كثيرا من الورِق يودَع فيه. في الحال شددنا على الباب شدّة رجل واحد فاقتحمناه؛ فأوعزت لرفاقي أن يحمل كلّ من الذّهب والفضّة على قدر طاقته، فيخفيه بعجل في بيت الموتى الأمناء، ثمّ يعود بسرعة لتهريب شحنة أخرى؛ بينما أبقى وحدي واقفا على عتبة البيت أرقب بانتباه كلّ ما يطرأ إلى حين إيابهم؛ وكان يبدو لي أنّ مشهد دبّ يذرع صحن الدّار كفيل بإلقاء الرّعب في أيّ من الخدم يستيقظ صدفة. ومن بالفعل، وبالأخصّ في اللّيل، مهما بلغ من الإقدام والعزم، لا يندفع لمرأى وحش بذلك الحجم، إلى الفرار على الفور، وإيصاد غرفته لينزوي فيها مرتجفا من الذّعر؟

4-19 إذا تمّ شيء بدا نقصه

لكن، رغم اتّخاذنا كلّ هذه التّراتيب السّديدة، حدث ما أفسد خطّتنا: بينما أنا أنتظر قلقا عودة رفاقي، أيقظ الضّجيج، بمشيئة الآلهة على الأرجح، أحد الخدم فتسلّل الهوينى. ولمّا رأى الوحش يذرع فناء الدّار جيئة وذهابا، عاد أدراجه ملازما الصّمت، وأخبر بما رأى كلّ من في الدّار، كيفما استطاع. في الحال امتلأ الفناء

بعديد الخدم، وأنارت الظلمةَ المشاعل والشّموع والقناديل وشتّى وسائل الإضاءة. لم يأتوا عزّلا، بل تقدّموا شاهرين كلّهم عصيّا وقسيّا ومتشقين سيوفا لحراسة المنافذ. وأطلقوا كلاب الصّيد للتّحكّم في الدّبّ فتألّبت وقد انتصبت آذانها وقفّ شعرها.

4-20 بين شدقيْ كربروس

أخذت إذّاك، وسط الضّجيج المتزايد، في التّراجع رويدا رويدا وبارحت البيت؛ لكنّني شاهدت جيّدا من مخبئي خلف الباب، ثراسيليون يقاوم الكلاب ببسالة عجيبة. فرغم أنّه كان على حافّة الحياة القصوى، لم ينس بسالته وبسالتنا السّالفة، وتصدّى مستميتا لأشداق كربروس* المكشّرة لنهشه. تمسّك بدوره الاختياريّ وبصمته؛ وظلّ يراوغ متقهقرا كرّة ومقاوما كرّة بحركات وتكشيرات شتّى، حتّى انسلّ أخيرا خارج البيت؛ لكن، رغم فوزه بحرّية الطّريق العامّ، لم يستطع أن ينشد النّجاة بالفرار. فقد انضمّت كلّ كلاب الزّقاق المجاور الرّهيبة ضراوة وعددا جحافل تلو أخرى إلى كلاب الصّيد التي كانت في ذلك الوقت تحديدا قد خرجت تتعقّبه مثلها. شاهدت إذّاك منظرا مؤثّرا وفظيعا، منظر أخينا ثراسيليون مطوّقا ومحاصرا بجيوش من الكلاب الضّارية وممزّقا بنهشاتها المتتالية. لم أحتمل ذلك المشهد المؤلم فاختلطت بالجماهير المتجمّعين حول مسرح الأحداث، ولم أجد وسيلة لإنقاذ رفيقي دون افتضاح أمرنا، × سوى الإهابة بسوّاس الكلاب: "يا للفضيحة العظيمة! أن نضيع حيوانا هائلا بمثل تلك القيمة!"

4-21 مصرع البطل

غير أنّ حيلي الخطابيّة لم تجد المنكود نفعا؛ إذ هبّ من البيت فتى فارع الطّول متين البنية، وبدون تردّد، غرس رمحه في صدر الدّبّ، وتبعه آخر ثمّ سرعان ما اجتمع عليه حشد، وقد ذهب الخوف عنهم، متنافسين على إثخانه من قريب بطعنات سيوفهم المتلاحمة. هكذا ظلّ ثراسيليون زين فريقنا السّاطع متجلّدا بنحو لا مثيل له، حتّى أُزهقتْ أخيرا روحه الجديرة بالخلود دون أن يخون بصرخة أو توجّع عهدنا المقدّس.(1) متحمّلا حتّى وقد خرّقته النّهشات ومزّقته السّيوف بلاءه الحاضر دون أن يَصدر عنه سوى دمدمة وتململ كما تفعل الوحوش. فسلّم حياته لمصيرها المحتوم محتفظا لنفسه بمجد سرمديّ(2). وقد قذف في قلوب المحتشدين الرّعب،إلى درجة أنّ أحدا لم يجرؤ على مسّ الوحش، حتّى وهو ملقى على الأرض، ولو بإصبعه إلى مطلع الفجر بل حتّى وضح الضّحى. أخيرا تقدّم جزّار أشجع من الباقين شيئا ما بوجل وتردّد، فبقر بطن الوحش وسلخ من الدّبّ اللّصّ العظيم. هكذا مات رفيقنا ثراسيليون هو الآخر، لكن ما مات غيرَ مجيد؛ فجمعنا في الحال أكياسنا الّتي حفظها لنا الموتى الأمناء، وارتحلنا عن بلاتية* حاثّين خطواتنا، متفكّرين طويلا في قرارة ذاتنا أنّا لسبب وجيه لا نجد للأمانة أثرا في حياتنا، فقد هجرتنا كارهة غدرنا إلى الموتى وأرواحهم. هكذا عدنا منهكين من ثقل الأحمال ووعثاء الطّريق بنقص ثلاثة من رفاقنا وجلبنا

(1) مصرع ثراسيليون: يذكّر باغتيال قيصر أو مصرع الذّئب في قصيدة فيني: 49-50. كما نرى يشبه لصوص أبوليوس أبطال الملاحم لكنّهم يموتون ميتة فظيعة وغير كريمة وهذا جانبه الواقعيّ والسّاخر.

الغنائم الّتي ترون هنا."

4-22 حملة جديدة

بعد انتهاء التّقرير، شربوا على نخب رفاقهم الفقيدين خمرا أصيلة في أكواب من الذّهب، وغنّوا بعض الأناشيد للإله مارس*. ثمّ غفوا في نشوة خفيفة. أمّا نحن، فأعطتنا العجوز من شعير الحول الطّريّ بسخاء وبلا كيل، حتّى ظنّ حصاني أمام كلّ تلك الخيرات الّتي هي له وحده لا شريك له فيها، أنّه يحضر مأدبة للسّاليّين*. أمّا أنا الّذي ما اعتدت الشّعير إلاّ دقيقا منخّلا وطُباخة خاثرة من طول الغليان، × فعثرت في إحدى الزّوايا على بقايا خبز مكدّسة، أعملت فيها بعزم بلعومي الموهن من طول الصّيام، بل المفروش بخيوط العنكبوت. فجأة أفاق اللّصوص وقد تقدّم اللّيل، واستعدّوا للرّحيل، مجهّزين أنفسهم بشتّى العُدد والعتاد، فحمل البعض سيوفا، وتنكّر آخرون في أزياء الأرواح الهائمة، وانصرفوا يحثّون الخطى. من جهتي انصرفت إلى القضم والجرش بعزم لم يفلّه حتّى النّعاس الّذي بدأ يداهمني. فرغم أنّي اعتدتُ زمان كنتُ لوقيوس أن أرفع يدي عن الطّعام بعد الكسرة والكسرتين، مضيتُ، وقد دُهيتُ بهذا الكرش السّحيق أخدمه، في جرش السّلّة الثّالثة؛ وباغتني وأنا منهمك في هذا العمل مطلع النّهار.

4-23 الرّهينة

فانصرفت عنه على مضض يحدوني تعفّف الحمير وأطفأت عطشي في جدول قريب. وما لبث اللّصوص أن عادوا متكدّرين

ومنشغلين؛ لم يجلبوا معهم كيسا واحدا ولا حتّى أبخس لباس، بل فقط بسيوفهم وبكلّ قواهم وكلّ أفراد طاقمهم، × فتاةً كريمة الأصل تنتمي بالتّحقيق، كما تنمّ عنه هيئتها، إلى علية القوم في تلك المنطقة، فتاة يشتهيها لعمري حتّى حمار مثلي، وهي تنتحب وتمزّق شعرها وثوبها. قالوا لها لمّا أدخلوها المغارة مهوّنين عليها: "أنت هنا بأمان على عرضك وحياتك، فامنحينا قليلا من أناتك لنتدبّر رزقنا، فإنّما اضطرّنا إلى هذه الحرفة فقرنا. ولا شكّ أنّ أبويك مهما بلغا من الشّحّ سيُحضران قريبا من بحر ثرواتهما فدية دمهما."

4-24 شكوى السّبيّة

لم تسكّن هذه التّخاريف وما شابهها روع الفتاة؛ ولا غرو فقد وضعتْ رأسها بين ركبتيها وانخرطت في البكاء دون اعتدال. فدعوا العجوز من داخل الكهف وطلبوا منها الجلوس بجانبها ومؤاساتها قدر الإمكان بعذب الأحاديث؛ ثمّ عادوا إلى أعمال جماعتهم المعتادة(1). لكن لم تستطع أقوال العجوز ثني الفتاة عن مواصلة البكاء بل علا نحيبها وزاد شهيقها وانهزّت منه ضلوعها فهَما دمعي تأثّرا لها. مضت تقول باكية: "يا لشقائي، أُفردتُ من بيت عزّ ومن بين طاقم الخدم والحشم الأحبّة ومن بين أبويّ وأهلي الأجلّة، وها أنا ضحيّة اختطاف مشؤوم سبيّة ومعتقلة في هذا السّجن الصّخريّ، محرومة من كلّ النّعم التي وُلدت وترعرعتُ فيها × مهدّدة في حياتي وجزًرا

(1) عادوا إلى أعمال جماعتهم المعتادة: seque ad sectae sueta conferent جناس صوتيّ بالسّين.

لهؤلاء اللّصوص وهذه العصابة الرّهيبة من السّفّاحين. فكيف لي بالكفّ عن البكاء بل حتّى بمواصلة العيش؟" استمرّت هكذا في شكواها حتّى أعياها أسى روحها والتهاب حلقها وإرهاق جسمها فأسلمت للنّوم عينيها الذّاويتين.

4-25 العجوز تزجر الأسيرة

لكنّها لم تنم مدّة إذ صحت فجأة من غفوتها كأنّ بها جِنّة، فبدأت تتفجّع بقوّة مضاعفة، قارعة صدرها بشدّة ولاطمة وجهها الوضّاء بلوعة. ولمّا سألتها العجوز بإلحاح عن أسباب أساها الجديد والمُعاد، تنهّدت من الأعماق وقالت: "أوّاه، الآن أيقنت من هلكتي وقنطت من النّجاة؛ ولم يعد أمامي حقًّا سوى الحبل أو السّيف أو إلقاء نفسي من شفا الجبل." غضبت العجوز وسألتها بحدّة لِماذا تبّاً عادت إلى البكاء والشّكوى بمثل هذه الغلواء بعد نومتها الهادئة. وقالت: "لعلّك تنوين حرمان فتيتي من فديتك الباهظة؟ × لئن واصلت لأتدبّرنّ لتُحرقي حيّة فضلا عن عذاب تلك الدّموع الّتي يستخفّ بها خاطفوك(1)."

4-26 قصّة الأسيرة

أثار هذا الوعيد فزع الفتاة، فأخذت تقبّل يديها قائلة: "عفوا يا أميمتي. انظري بقليل من الحلم والرّحمة إلى محنتي العصيبة. فما إخالك بسبب كبر سنّك الّذي أنضجك فقدتِ في مشيبك الموقّر كلّ أثر للرّأفة؛ انظري لتعذري إلى مشهد نكبتي. اعلمي أنّ شابًّا وسيما تميّز بين لداته واعتبرته المدينة ابنها بإجماع المواطنين،

(1) خاطفوك: في النّصّ "اللّصوص".

وهو فضلا عن ذلك ابن عمّي ويكبرني بثلاث سنين. × تربّى وترعرع معي في علاقة ودّ حميمة منذ الصّبا الغرير، في نفس البيت، بل نفس الغرفة، وعلى نفس السّرير؛ ثمّ جمعنا رباط الحبّ المقدّس في شبابنا؛ × خطبني وقرّر مؤخّرا عقد قراننا برضا أهلنا. وأعلن زواجنا بعقد رسميّ؛ فسار يوم العرس يتوسّط موكب الأقارب والأصهار وراح يقدّم الذّبائح في الهياكل والمعابد العموميّة؛ وعلتْ في البيت المزدان بأغصان الغار والمتلألئ بأضواء المشاعل أهازيج الزّفّة. ضمّتني أمّي بتأثّر إلى صدرها وأخذت تسوّي لي زينة زفافي، وبعدما غمرتني بقبلها العذاب مضتْ تعزّز بدعواتها الحارّة أمل الذّرّيّة الّذي بات قريب المنال. وإذا بجماعة مسلّحين يقتحمون علينا البيت فجأة، ووجوههم تتلهّب بوحشيّة البطش وسيوفهم المجرّدة تومض منذرة بالويل؛ فلم يمدّوا أيديهم لقتل أو سرقة، بل في الحال انقضّوا صفّا متراصّا على مخدعنا. وبدون أيّ دفاع ولا أدنى مقاومة من الأهل والخدم أخذوني من حضن أمّي وأنا أرتجف بائسة من الفزع. هكذا تشوّش حفل زفافنا وتفرّق كما حدث لأتّيس* أو برُتسِلاس*.

4-27 كابوس مفزع

وقد أعاد إليّ السّاعةَ ذكرى مصابي بل ضاعف بؤسي حلم مريع. رأيتُني أُنتزع عنوة من بيتي، بل من غرفتي ومخدعي وأستغيث منادية في الفلوات النّائية زوجي المنكود. ورأيتُه قد هبّ حالما حُرم عناقي وهو لا يزال مضمّخا بالطّيب ومزدانا بأكاليل الزّهور يقتفي أثري حيثما تحملني أقدام خاطفيّ. وأخذ يشكو للشّعب خطف زوجته الجميلة ويستنصره. فانزعج من ملاحقته

أحد اللّصوص والتقط من أمام قدميه حجرا كبيرا ضرب به زوجي الشابّ التّعيس فأرداه؛ روّعني المشهد فأفقت فزعة من نومي المشؤوم." إذّاك قالت العجوز وقد تأثّرت لبكائها: "هوّني عليك يا سيّدتي ولا ترتاعي من أضغاث أحلام. فرؤى النّهار حسب كلّ العارفين كاذبة بل حتّى أحلام اللّيل قد تنبئ بعكس الواقع. فالبكاء والتّعرّض للضّرب أو القتل أحيانا بشائر خير وغُنم. بينما الضّحك وملء البطن بشهيّ الحلويّات والاستمتاع بلذّة الجماع نذُر ترح للرّوح وسقم للجسد وغير ذلك من البلايا. لكن أرجو أن أطيّب خاطرك حالا ببعض القصص الشيِّقة وحكايات العجائز"؛ وأنشأت تقول:

4-28 حكاية العجوز: جمال ربّانيّ

"كان في قديم الزّمان بإحدى المدن ملك وملكة رُزقا ثلاث بنات رائعات الجمال. لكنّ الكبريين وإن كانتا لا محالة على جمال بديع يُعتقد أنّ بوسع كلام البشر الإشادة بحسنهما بنحو مناسب. أمّا بهاء الصّغرى الباهر الفائق فتقصر لغة البشر حقّا عن وصفه والإشادة به بنحو كاف. فكان كثير من المواطنين والأغراب الّذين حشدتهم بأعداد هائلة شهرة ذلك المشهد الفائق البديع يقفون مشدوهين إكبارا لحسنها الفائق كلّ حسن ويضعون أيمانهم أمام أفواههم جامعين الخنصر بإبهامهم المرفوع كما يفعلون إجلالا للإلهة فينوس* نفسها. وقد شاع في المدن القريبة والمناطق المتاخمة أنّ الإلهة الّتي تمخّضت بها لجّة البحر الفيروزيّة، وأخرجها ندى أمواجه المزبدة، تخلّت عن عظمة الألوهة بغير خطّة واختلطتْ بعامّة الشّعب؛ بل إنّ فينوس* أخرى تزينها

زهرة البكارة، وُلدت، لا في خضمّ البحار، بل على الأرض من بذرة جديدة من منّ السّماء.

4-29 خلط شنيع

هكذا انتشر في أيّام معدودات هذا الاعتقاد على أوسع نطاق، واكتسح الجزائر القريبة وكثيرا من الأراضي والأقاليم. وتوافد النّاس متجشّمين الأسفار الطّويلة في أرجاء البرّ وأعماق البحر ليشهدوا آية العصر الفريدة. ولم يعد أحد يبحر إلى بافوس* ولا كنيدون* ولا كوثرة* لرؤية الإلهة فينوس*؛ هكذا أُغفلتْ طقوسها وهُجرتْ معابدها وديستْ وثائرها وأُهملتْ أعيادها. فلا أكاليل لتماثيلها، وفي هياكلها الخالية برد الرّماد مدنّسا حرمتها. لتلك الفتاة باتتْ توجّه الصّلوات وفي زيّ بشر تُستدرّ بركات تلك الإلهة العظيمة؛ ولمّا تخرج الفتاة صباحا، تقدَّم الذّبائح والأطعمة تيمّنا باسم فينوس* الغائبة؛ ولها يتقرّب النّاس في ازدحام لمّا تتمشّى في السّاحات العامّة، فيغمرونها بالزّهر منظوما ومنثورا في تعبّد وإجلال. أثار تحويل التّقديس الواجبة للإلهة إلى عبادة فتاة فانية وبمثل هذا الغلوّ، حفيظة فينوس* الحقيقيّة؛ فهزّت رأسها باحتداد وانفجرت، قائلة لنفسها وهي تتميّز من الغيظ:

4-3. غضب الإلهة

"تبّا! أنا منشأ الطّبيعة العتيق، أصل العناصر الأوّل، ومغذّية الأكوان، أنا فينوس* أُهان إلى حدّ أن تُشرك في ألوهتي فتاة من الفناة، ويدنَّس في أدران الأرض اسمي المسبَّح في السّماوات.

حتّام أتحمّل هذا الخلط وأن تشـرك في التّقديس الواجب لاسمي معبودة ثانية، وتحمل صورتي حيثما راحتْ فتاة فانية؟ ^ لقد ضاع سدى حكم ذلك الرّاعي* الّذي أيّد عدالتَه يوبتر* العظيم نفسه ونزاهتَـه، لمّا قدّمني لجمالي الفائـق على أعظم الإلهات؛ كلاّ. لن تغتصب شـرفي ناعمة البال تلك الفتاة أيّا تكن بين الإنسـيّات؛ لأجعلنّها تكفّر عن حسنها غير المشروع هي بالذّات!" وفي الحال دعت ابنها المجنّح، ذاك الولد النّزق الوقح، الّذي يُمضي كامل اللّيل يجوس خلال ديار الغير، مسـلّحا بالأقباس والسّـهام، مستخفّا بسلوكه الشّائن بالنّظام العامّ، مدمّرا كلّ الأسر. يأتي بلا عقاب كلّ شـرّ ونُكـر ولا يعمل قـطّ أيّ خير. فحرّضتـه بأقوالها فضلا عـن طباعه الماجنـة أصلا، واقتادتـه إلى تلك المدينـة وأرته عيانا بسيشية*- كذلك فعلا كانت تدعى تلك الفتاة.

4-31 فينوس تستنصر ابنها

روت لـه القصّـة بالتّمـام والكمـال عن تلك المنافسـة على عـرش الجمـال. وقالت وهـي تتّقد مـن الغضـب وتئـنّ وترتعد: "أناشـدك برابطة الأمومة المقدّسـة، بجراح سـهامك العذبة وحرائق أقباسـك الحلوة أن تأخذ لأمّك ثأرهـا بالكامل؛ × وتنتقم لحرمتها من هذا الجمال المتطاول. أن تفعل لي شـيئا واحدا لقاء كلّ جمائلـي: × أن يتعلّق قلب هذه الفتاة شـخصا في منتهى الحطّـة، قسـا عليه الحـظّ في الجـاه والمـال والصّحّة، ونـزل إلى الحضيض خساسـة حتّـى لا يجد في الأرض كلّهـا من يضاهيه تعاسـة." قالت ذلك وشـدّت على ابنها طويلا شفتين متّقدتين. ثمّ قصدتْ مكانا قريبا على الشّـاطئ حيث ترتدّ اللّجّة؛ فاعتلتْ

بقدميها الموّردتين زبد الموج الهفهاف وها هي تتهادى عائمة على سـطح اللّجّة الصّافي. وبمجرّد ما بدأتْ، وما كادتْ، تريد، وكما لو تدبّـرت الأمر منـذ أمد بعيد، التفّ بها في الحـال موكب أتباعها من سـكّان البحار. حضرت بنـات نيريوس* هازجـات، وبُرْتونوس* ذو اللّحيـة الكثّـة اللاّزورديّة، وصلاقية* المثقلـة بصدارها المليء بالأسـماك والحـوذيّ الصّغيـر بلايمـون* علـى صهـوة الدّلفـين وجماعـات التّريتون* متوثّبين من هنـا وهناك على صفحة البحر مرحين. هـذا ينفخ أعذب الألحان في صدفيّـة، وذلك يقي الإلهة وهـج الشّـمس بغلالـة حريريّة، والآخـر يحمل مرآة أمـام عيني سـيّدته، وآخـرون يتماقلـون مثنى تحت مركبتها مرحين؛ سـار الموكب يرافق فينوس* في طريقها للقاء أقيانوس*.

4-32 آلام بسيشية

في الأثناء لم تجْنِ بسيشـية رغم جمالها الوضّاء أيّ نفع من بهائهـا؛ فالـكلّ يتأمّلونها ويمدحونها، لكنّ لا أحـد، ملكا كان أو أميرا أو حتّى من سـواد الشّعب، تقدّم يطلب يدها وقلبه يخفق بالحبّ. النّاس يعجبون بحسـنها الرّبّانيّ، لكن كما يعجب الجميع بتمثـال منحوت بفنّ بديع. منـذ أمد خُطبت أختاهـا اللّتان لم تلهـج بحسـنهما العاديّ أفـواه النّـاس لملكين، وفازتـا بزيجتين موفّقتـين. بينما تُركتُ هي بكرا في دار أبويها، تبكي عنوسـتها الموحشة، سقيمة الجسـم عليلة الفؤاد، وباتت تكره في نفسها ذلـك الحسـن، وإن كانت محـلّ إعجـاب الأمم. فتألّم لتعاسـتها أبوها، وسـاوره شكّ في ضغائن من السّماء، وخشي غضبا علويّ المصدر؛ فذهب يستفسـر عرّاف إله ميلتوس* العتيق. أخذ يدعو

الإله العظيم متوسّلا بالصّلوات والقرابين طالبا لابنته زيجة وبعلا؛ لكنّ أبولّون*، مع كونه إغريقيّا وإيونيّا*، ردّ، اعتبارا لصاحب هذه القصّة الميليتيّة، بهذه النّبوءة باللّغة اللاّتينيّة:

4-33 زفاف مشؤوم

"على صخرة الجبل العالية، تخلّ عن ابنتك الغالية، مزيّنة لزيجتها القاضية. لا تنتظر صهرا من نسل الفناة إنسانا، بل ارتقب وحشا ضاريا شرسا أفعوانا. ينشر، محلّقا فوق الأثير، أسوأ الدّمار، ويعذّب كلّ الكائنات بالحديد والنّار؛ يخشاه يوبتر* ذاته الذي يرهبه الأرباب، وتخافه سُدف إستكس* ويعتري مياهه الاضطراب." لمّا سمع الملك تلك النّبوءة، انقلبت سعادته شقاء وارتدّ على آثاره حزينا كسير الخاطر وأفضى إلى زوجته بأوامر القضاء الجائر؛ فعمّ المدينةَ الحزن والبكاء والتّفجّع أيّاما؛ لكن لا بدّ أن ينفَّذ القضاء المرّ مهما بلغت فظاعة تنفيذه. فأُعدّ جهاز للاحتفال بزفاف الفتاة التّعيسة، وأيّ احتفال! بهتتْ نار مشعل الزّفّة وسوّدها السّخام، وتحوّل نغم المجوز إلى ما يشبه شكوى المهرّج، وانتهت أهازيج هذا الزّواج إلى ولولة كالجنائز، وراحت الفتاة، وهي على وشك أن تُزفّ، تمسح عبراتها بطرحتها. شاطرت كلّ المدينة الأسرة المنكوبة الألم من قدرها المأساويّ، وأُعلن وفقا لذلك عن الحداد الرّسميّ.

4-34 الرّضا بالقضاء

لكنّ ضرورة الانصياع لأوامر السّماء كانت تقتضي بسيشية المسكينة التّوجّه إلى العقاب المعدّ لها؛ لذا لم يسعها، بعد

إجراء احتفالات زفافها المأتميّ، إلاّ أن تتقدّم للقاء عريسها جنازةً حيّةً، في موكب شعبيّ حاشد؛ لم تمش بسيشية الباكية في زفّة عروس بل في موكب ناووس. وفيما وقف أبواها في انكسار يعصرهما الأسى متردّدين في إنجاز ذلك الأمر الإمر، تقدّمت مهيبة بهما: ^ "لِم تُغرقان شيخوختكما البائسة في الدّموع المسترسلة؟ لِم تعذّبان روحكما الّتي هي روحي بالشّكاوى المتواصلة؟ لِم تشوّهان وجهيكما اللّذين أجلّ بدموع لا تجديكما؟ لِم تجرّحان عينيّ في عيونكما؟ لِم تقطّعان شيبتكما المهيبة؟ لِم تلطمان أحضانكما المقدّسة الحبيبة؟ هذه هي الثّمار الرّائعة الّتي تجنيان من حسني الفتّان؛ وبعد فوات الأوان ها أنتما أدركتما أنّ غيرة وحشيّة بطشت بكما. لمّا كانت الأمم والشّعوب تعظّمني بأمجاد الألوهة، لمّا كانوا جميعا يدعونني بفينوس* الجديدة، كان عليكما إذّاك أن تألما، إذّاك أن تبكيا، إذّاك أن تأسيا، كما لو كنتما مذّاك ثكلتما. الآن أدرك، الآن أرى أنّ اسم فينوس* أوردني الرّدى. خذاني وعلى الصّخرة الّتي حدّدتها الأقدار ذراني؛ إنّي أتعجّل لعقد هذا القران السّعيد، وأتحرّق شوقا لرؤية زوجي الحميد؛ لِم أؤجّل، لِم أحاول أن أدفع لقاء من وُلد لدمار العالم أجمع؟"

4-35 إلى المصير المحتوم

هكذا تكلّمت الفتاة، ثمّ صمتت ودخلت بخطوة واثقة في موكب المشيّعين. ذهبوا إلى الصّخرة المحدّدة من ذلك الجبل الكالح، فتركوا كلّهم الفتاة واقفة بأعلى قمّتها، مبقين عندها مشاعل زفّتها التي استضاؤوا بها عند قدومهم وقد أطفأتها دموعهم، وعادوا إلى البيوت ناكسين رؤوسهم. أغلق الأبوان البائسان،

المســحوقان تحت تلك الرّزيّة بيتهما وانطويا فــي ظلمته، ناذرين ما تبقّــى من العمر لليل ســرمديّ. أمّا بسيشــية فبقيت على صخرتها خائفة، مرتعشــة، باكية، وبعد حين أحسّت ثوبها يهتزّ برفق بنفحات زفيروس* الرّقيقة، ونفخت أنفاســه شــيئا فشيئا أثنــاء ثوبها فأخذت ترتفع، وحملتها نســماته اللّطيفة بلين عبر رواهص ووهــاد واد عميق، وتضجعها برقّة كحفيف الخمائل على بساط ناعم من عشب مزهر نضير.

الكتاب الخامس

5-1 القصر العجيب

سـكن كدر بسيشية في ضجعتها العذبة على ذلك المفرش من الكلإ الغضّ النّديّ وغفتْ بفتور؛ وبعدما جدّد قواها قسط كاف من النّوم قامت صافية الذّهن. فرأت حولها غابة نبتت فيها أشجار فارعة فينانة، ورأت نبعا يتلألأ فيه ماء زلال؛ ووسط ذاك الغاب قرب رأس النّبع شيد قصر ملكيّ بني لا بأيد بشريّة بل بصنعة إلهيّة. من المدخل تعلم أنّك أمام منزل لأحد الآلهة يزهو فخامة وبهاء؛ وتحت تسقيفته المزخرفة بفنّ بالعاج وخشب السّرو، تنتصب أعمدة من الذّهب؛ وتغطّي جدرانَه نقوش من الفضّة تمثّل حيوانات وحشيّة وأليفة شتّى تبرز لأنظار الدّاخلين. فأيّ فنّان مبدع فذّ، بل أيّ نصف إله، بل أيّ إله أضفى على تلك الفضّة حياة وتحفّزا. بل حتّى البلاط زُركش بفسيفساء من الحجر الكريم، شُكّلت بها شتّى الرّسوم(1)؛ فطوبى وألف نعمى لمن تطأ أقدامهم تلك الجواهر والحلى. وكلّ أقسام القصر الّتي تمتدّ على الطّول والعرض تحفا نفيسة لا تقدّر بثمن، وكلّ الجدران

(1) وصف الرّسوم: يرينا اهتمام أبوليوس بالفنّ التّشكيليّ (2: 4 و"المرافعة" 14 و"المنتخبات" 16: 5).

الملبّسة بالذّهب المصمت الخالص تتلألأ بضياء ذاتيّ، حتّى لَيشرقُ القصر لو أبت الشّمس إرسال نورها بضياه؛ والغرف والأروقة وحتّى الأحواض تشعّ نورا يذهب بالأبصار سناه. وتتجاوب بقيّة التّجهيزات مع فخامة المنزل، حتّى لتظنّه حقّا، وما ظنّك بغير المبرّر، قصرا إلهيّا شاده يوبتر* العظيم للاتّصال بالبشر.

5-2 مفاجأة

اقتربت بسيشية، تدعوها بهجة تلك الجنّة، وبمزيد من الثّقة، جرؤت على تخطّي العتبة؛ ثمّ أخذت تجيل بصرها في كلّ ما حولها، مبهورة بذاك المنظر الرّائع البهاء، وتنظر على جانبي البيت في الحجرات البديعة الإنشاء وكلّها ملأى بكنوز لا تحصى؛ فليس في الدّنا ما لا يوجد هنا. لكنّ أعجب ما في تلك الكنوز أنّ لا وثاقا يحميها ولا قفلا ولا حارسا إطلاقا. فيما هي تتأمّل تلك التّحف بمتعة قصوى، سمعت صوتا مجرّدا من الجسم يقول لها: "لِم تنظرين يا مولاتي مشدوهة إلى هذه الثّروات؟ كلّ ما هنا لك أنت؛ فتفضّلي إلى غرفتك واستريحي من عنائك على التّخت، ثمّ استحمّي متى شئت. نحن الّذين تسمعين أصواتنا طاقم خادماتك المسارعات لتنفيذ طلباتك. وبعد العناية ببدنك، ستُحضر مأدبة ملوكيّة في الحين لك."

5-3 خدمات عالم سحريّ

أحسّت بسيشية نعيم اللّطف الإلهيّ، وأصغت إلى توجيهات الهاتف اللاّمرئيّ؛ فنامتْ ثمّ استحمّت مزيلة كلّ عناء عنها، × فرأت في الحال مائدة نصف دائريّة وُضّبت قريبا منها،

أدركت أنّها أعدّت لها فجلست بطيب خاطر حيالها. في طرفة قُدّمت لها أطباق حافلة بخمر رحيق وأطعمة مختلفة، بدون نادل بل مدفوعة إليها بنفحة متلطّفة. كانت لا تستطيع رؤية أحد، وإنّما فقط تلتقط الكلمات، الّتي تصدر حولها، ولا خدم لها سوى الأصوات. بعد المأدبة الفاخرة، دخل شخص لم تره وغنّى، ونقر آخر أوتار قيثارة لامرئيّة هي الأخرى، ثمّ بلغ سمعَها إنشاد قطعة جماعيّة من البيّن، وإن لم يظهرْ(1) أيّ بشر، أنّه لفرقة غنائيّة.

5-4 العادة والسّعادة

بعد تلك الملاذّ، أوت بسيشية، مستجيبة لدعوة المساء، إلى فراشها؛ وصلت أذنيها، وقد تقدّم اللّيل، هفهفة خفيفة رفيفة. فخافت وارتعشت من وحشة الوحدة خشية على عذرتها فهي توجل، أكثر من أيّ مكروه، ممّا تجهل. ها قد أتى عريسها المجهول فاعتلى التّخت قربها وأتمّ زواجه ببسيشية وقبل طلوع النّهار أسرع بالارتحال. فهبّت في الغرفة الأصوات المنتظرة لخدمة العروس المفترَعة في الحال؛ وتكرّرت الأمور مدّة على ذلك المنوال. وكما هي سنّة الطّبيعة أخذتْ بتكرّر العادة الرّتيبة تتعلّق بوضعيّتها الغريبة، وكان الصّوت اللاّمرئيّ عزاء وحدتها الرّهيبة(2). في الأثناء كان أبواها يُفنيان شيخوختهما البائسة في الحداد والأسى؛ وطوى الخبر الآفاق فبلغ أختيها الكبريين

(1) بيّن وإن لم يظهر...: pareret/pateret جناس مضارع مع سجع مع ترادف.

(2) الصّوت اللاّمرئيّ عزاء وحدتها الرّهيبة: sonus vocis incertae solitudinis erat solacium يمكن أن تكون incertae نعتا للوحدة (غير مأمونة، لا تبعث على الاطمئنان) أو للصّوت (خفيّ، مجهول)

فتركتا حالا بيتيهما حزينتين باكيتين وأسرعتا لتريا أبويهما وتتحدّثا إليهما.

5-5 بين العِرسين

ليلتها خاطب بسيشية زوجها الّذي لم تكن تدرك حضوره أمام عينيها إلاّ بأذنيها أو يديها: ("أي بسيشية زوجتي الحلوة الحبيبة: قدر غشوم يهدّدك بخطر جسيم. أرى أن تحترسي منه بحذر عظيم. فأختاك المفجوعتان لظنّهما أنّك متّ على وشك القدوم إلى الصّخرة اقتفاء لأثرك. فإن سمعت شكاتهما لا تردّي بل لا تنظري قطّ ناحيتهما؛ وإلا سبّبت لي ألما مريرا ولنفسك ويلا وثبورا." فأبدت موافقتها واعدة بالتّصرّف حسب رأي زوجها؛ لكن بعد انصرافه مع انصرام اللّيل أمضت المسكينة في الدّموع والشّكاوى كامل النّهار ^ مردّدة أنّها الآن أكثر من أيّ وقت مضى انتهتْ تماما. إذ هي حبيسة سجنها الهنيء، محرومة من محادثة ومخالطة البشر، لا تستطيع مدّ يد المساعدة لأختيها المتفجّعتين عليها بل حتّى رؤيتهما. وبدون إنعاش جسمها بحمّام أو طعام، أو أيّ شيء يجدّد قواه، أوتْ ذارفة دموعا هتنا لتنام.

5-6 لكلّ حديث عندهنّ بشاشة

ما لبث زوجها أن أتى مبكّرا قليلا عن موعده المعتاد فاضطجع على الفراش بجانبها واحتضنها بحنوّ، ودموعها لا تزال تبلّل وجهها، وأهاب بها مترجّيا: (1) "أهذا ما وعدتني يا حبيبتي؟ ماذا أنتظر أنا زوجك منك وماذا أرجي؟ ها أنت لا تكفّين طول

(1) الحازم/ بعد فوات الأوان: نفس التّلاعب بالألفاظ الذي رأينا في 3: 29 seriae/sero.

النّهار واللّيل وحتّى في أحضان زوجك عن تعذيب نفسك. افعلي إذن ما تشائين واستجيبي لفؤادك الّذي يطلب الويل لنفسه! ستذكرين نصحي الحازم فقط لمّا تبدئين في النّدم بعد فوات الأوان^." عند ذلك أخذت تتوسّل إليه مهدّدة بأنّها ستموت حتّى نالت موافقته على رغباتها في رؤية أختيها وتخفيف أساهما والتّحدّث معهما. فاستجاب لتوسّلات عروسه بل وافق فوق ذلك على أن تهديهما ما شاءت من الذّهب والحليّ. لكنّه حذّرها بإلحاح وحذّرها مرارا من مغبّة السّعي، تأثّرا برأي أختيها الضّارّ، إلى معرفة صورة زوجها، وإلاّ هوت جرّاء ذلك الفضول الأثيم من علياء ذيّاك النّعيم لتقع في الحضيض ولن تحظى بعد بعناقه اللّذيذ. فشكرت زوجها وقالت منشرحة: "بل الموت مائة مرّة أحبّ لي من حرماني لذّة حياتنا المشتركة؛ فبكلّ كياني وكحبّي مهجتي، أحبّك أيّا تكون ولا أعدل بك حتّى كوبيدون*. لكن أرجو أن تمنّ عليّ منّة أخرى: مر خادمك زفيروس* بإحضار أختيّ على بساط كالّذي أقلّني عليه." وطبعت عليه قبلا ملؤها التّحضيض مردّدة كلمات معسولة وطوّقته بذراعيها مضيفة إلى تلك الملاطفات هذه الكلمات المتحبّبة:" يا أغلى وأحلى الأزواج، يا روح بسيشية الحبيب." فأذعن الزّوج مكرها لقوّة وسلطان الهوى ووعد بتنفيذ كلّ طلباتها؛ ثمّ مع اقتراب الفجر اختفى من بين أحضان زوجته مرّة أخرى.

5-7 لقاء الأخوات

أمّا الأختان فاستخبرتا وذهبتا فورا إلى الصّخرة والمكان حيث تُركت بسيشية؛ هناك أخذتا تنوحان وتقرعان صدريهما. فردّت

الصّخور صدى بكائهما. وأخذتا تناديان أختهما المنكودة باسمها، ودوّى عبر الوهاد نحيبهما وسقط في أذني بسيشية فخرجت من البيت مضطربة وقد طار صوابها وهتفت: "لِم تهلكان نفسكما بالنّحيب بلا داع؟ ها أنا الّتي تبكيان. كفّا عن العويل وامسحا خدودكما المبلّلة بدموعكما المسترسلة؛ فبوسعكما عناق من تبكيان." ثمّ دعت زفيروس* وذكّرته بأمر زوجها؛ فاستجاب فورا لأمرها، حاملا إليها حالا أختيها بأنفاسه الرّقيقة على بساطه النّاعم. فتعانقن طويلا وطابت بعديد القُبَل أنفسهنّ. وعادت دموعهنّ بعدما هجعت جراحهنّ، تحدوها أفراحهنّ. قالت: "هيّا إلى بيتنا، وأعيدا البهجة إلى مهجتكما الكسيرة مع بسيشية حبيبتكما."

5-8 الأختان في بيت بسيشية

قالت ذلك وأرتهما ثروات قصرها الذّهبيّ الطّائلة، وأسمعت أذنيهما أصوات طاقم الخدم المسخّرين لها، ثمّ جدّدت قواهما بحمّام مفتخر. شفعته بمأدبة حوت ما لا يخطر على قلب بشر. فلمّا شبعتا من تلك الخيرات الرّبّانيّة الفيّاضة، دبّ في سويداء قلبهما الحسد. أخذت إحداهما تسألها بإلحاح وتدقيق عن صاحب تلك النّعم الإلهيّة، عمّن يكون زوجها، وما صفته. لكنّ بسيشية لم تخالف بأيّ وجه وصيّة زوجها، ولا أخرجت ما في خفايا صدرها؛ ولفّقت ارتجالا أنّه فتى وسيم بدأ زغب الشّباب يوشّح عذاريه مشغول جلّ الوقت بالصّيد في الجبال والحقول. وكيلا تفضح شفتاها بالاسترسال في ذلك الحديث سرّها المكنون، حمّلتهما قناطير من الذّهب المشغول والجواهر والحليّ.

ثمّ دعت زفيروس* وعهدت بهما إليه لإرجاعهما.

5-9 الغيرة

فنفّذ الأمر فورا؛ ولمّا عادت الأختان الودودتان إلى البيت أخذت نار الغيرة(1) اللاّذعة تكويهما وعلا لغطهما وهما تتبادلان أحاديث تنضح حسدا؛ قالت إحداهما: "أيّها الحظّ المتعثّر الجائر الغشوم، أيطيب لك أن تتباين مناباتنا إلى هذا الحدّ وقد وُلدنا من نفس الأبوين؟ نحن الكبريان نُعطى خادمتين لزوجين أجنبيّين ونُنتزع من بيتنا وأرض آبائنا لنقضي العمر بعيدا عن أبوينا في منفى الغربة، بينما تحظى أختنا الصّغرى، آخر حبّات العنقود، ونتاج الرّحم المكدود، بكلّ تلك الخيرات وتتزوّج إلها وهي لا تعرف حتّى كيف تستفيد على الوجه الأسلم من ذلك الفيض من الأنعم. أرأيتِ يا أختاه كم ينتشر في بيتها من الحليّ، وأيّ حليّ، أرأيت الملابس المتألّقة والجواهر المتلألئة، وكلّ الذّهب المنتشر على أرضه موطئا للأقدام؟ × وإن يكن لها حقًّا زوج بالوسامة الّتي تقول، فلا امرأة اليوم على الأرض أسعد منها؛ بل قد يصل بزوجها تطوّر العشرة واستحكام الألفة بينهما إلى جعلها إلهة هي نفسها؛ وإنّ الأمر وعزّة هرقل* لكذلك. وبتلك الصّورة كان سلوكها وتصرّفها(2). ها قد غدت تتطلّع إلى أعلى، متّخذة الأصواتَ خوادم لها وملقية إلى الرّياح أوامرها. بينما كان نصيبي، يا لنكد حظّي، زوجا هو ابتداءً أكبر من أبي، وفوق ذلك

(1) الغيرة بين الإخوة: يرى فيه القدّيس أغسطين (اعترافات 1: 7) دليلا على تأصّل الشّرّ، وقد تناولت آداب وأديان شتّى الشّعوب هذا الموضوع: قصّة قابيل وهابيل، قصّة الأختين الحاسدتين في "ألف ليلة وليلة"

(2) سلوكها وتصرّفها: gerebat ferebat(que) إتباع.

أقرع كاليقطينة، وأقصر من أيّ من الأطفال، وضع البيت كلّه تحت حراسة مشدّدة خلف الأغلال والأقفال."

5-10 المؤامرة

ردّت الأخرى: "أمّا أنا فبُليتُ بزوج عرّجه النّقرس وحناه، لا يكاد يلتفت إلى زهر شبابي جرّاه. فأنا أُفني العمر في تمسيد أصابعه المحقوفة المتكلّسة، وأُثفن يديّ النّاعمتين بالضّمائد النّتنة والكمادات القذرة واللّصائق العفنة؛ لا أقوم لديه بدور الزّوجة الودود العروب بل الممرّضة الكدود الدّؤوب. يبدو أنّك يا أختاه ماضية في أداء وظيفة شبيهة بجلَد أو بالأحرى بخناعة. إن قلتُ ما أحسّ بصراحة؛ أمّا أنا، فلا أستطيع أن أتحمّل مرأى تلك البحبوحة آلت إلى غير أهلها أطولَ. تذكّري بأيّ زهو وأيّ كِبْر كانت تعاملنا، وبأيّ تباه وأيّ تبجّح نفّاج كانت تنفش نفسها أمامنا. وكيف رمتْ لنا غصب نفسها بغيْض من فيض خيراتها. وسرعان ما ملّت وجودنا معها فأوعزت بترحيلنا بالصّفير بل بالنّفيخ! قسمًا ما أنا امرأةً ولا جديرةً بالحياة إن لم أنزلها من تلك الأبّهة إلى الدّرك الأسفل؛ وإن كنتِ أنت أيضا تحسّين، كما يُفترض، حرقة حقريّتنا، فلنبحثْ عن خطّة ناجعة فيما بيننا. يجب بدءا ألاّ نبدي ما نحمل لأبوينا أو لأيّ سواهما، ولا حتّى علمَنا شيئا عن حالها. يكفي أنّا رأيناها نحن اللّتان نموت أسفا على مرآها؛ فلا نزدْ نفسنا كمدا بنشر الخبر السّعيد بين أبوينا وكلّ النّاس؛ فما بالسّعداء من لا يعلم ثرواتهم أيّ راء. ولتعلمْ أنّا أختاها الكبريان لا خادمتاها؛ والآن لنرجعُ إلى زوجينا وبيتينا الفقيرين لكن الخاليين قطعا من القصوف؛ ولنعدْ مستعدّتين

بعد التّفكير المليّ المتأنّي وأصلب عزما لمعاقبة غرورها."

5-11 تحذير جديد

راق للشّرّيرتين سوء مكرهما فأخفتا كلّ الهدايا النّفيسة وعادتا إلى البكاء المليء بالرّياء، قاطعتين شعرهما وخادشتين خدودهما كما تستحقّان فعلا، مؤجّجتين بذلك أوجاع أبويهما الّتي سكنت قليلا قبْلا. وتركتاهما بعجل قاصدتين بيتيهما تتميّزان من نار غيظهما، لتدبّرا لأختهما البريئة مكيدة ماكرة بل جريمة منكرة. في الأثناء حذّر بسيشية مجدّدا زوجها الذي لم تر في أسمارهما اللّيليّة أبدا: "أترين أيّ خطر يهدّدك؟ ها أنّ الحظّ يناوشك من بعيد، وعمّا قريب يصارعك وجها لوجه إن لم تحتاطي لنفسك جيّدا. ذئبتان مداجيتان تجتهدان لإعداد مكيدة فظيعة لك، ملخّصها إقناعك باستطلاع صورتي الّتي، إن تريها فلن تريها بعد مطلقا، كما قلت لك وكرّرت سابقا. لذا لمّا تأتيك مستقبلا تانك السّعلاتان* الماكرتان، مضمرتين لك شرّا، وإنّي لواثق أنّهما ستأتيان، فلا تخوضي في حديث معهما، وإن تعذّر عليك تحمّل ذلك لسلامة طويّتك، فعلى الأقلّ لا تسمعي منهما أيّ سؤال عن زوجك أو تردّي عليه. واعلمي أنّ أسرتنا ستزداد فإنّ رحمك هذا الّذي ما زال في طور الطّفولة يحمل لنا طفلا آخر، إلها خالدا إن حفظتِ أسرارنا طيّ الكتمان، وإن هتكتِها فبهيئة الإنسان."

5-12 وآخر أخير

تهلّلت بسيشية انشراحا بالبشرى، وصفّقت ارتياحا لأمل

السّليل الإلهيّ، واهتزّت فرحا بمجد الحبيب الآتي، وابتهجت بشرف اسم الأمومة. وها هي في شوقها تعدّ(1) ما مضى من الأيّام والشّهور، وترقب معجبة تطوّر حملها من بُداءات غير مميزة إلى انتفاخ ضخم لرحمها في مدّة وجيزة. لكنّ جنّيتي النّقمة* الحاقدتين النّافثتي سمّهما النّاقع أبحرتا إليها متعجّلتين تنفيذ خطّتهما. فعاد الزّوج إلى تحذير بسيشية: "ها قد أزف اليوم الفصل والامتحان الأخير. هذا عدوّك الّذي هو من جنسك ودمك امتشق سلاحه واتّخذ مواقعه وسوّى صفوفه واستنفر للانقضاض عليك؛ أجلْ لقد جرّدت أختاك الغادرتان السّيف لنحرك. أيّة كوارث كبرى توشك أن تحلّ بنا يا بسيشية العذبة؛ فرحمةً بنفسك وبنا، ولْتقي بصيانة سرّنا المقدّس عشّنا ونفسك وصغيرنا شرّ دمار داهم. لا تري ولا تسمعي تينك المجرمتين اللّتين لا يجدر بك إزاء حقدهما الدّمويّ ودوسهما روابط الدّم أن تسمّيهما أختيك، لمّا تطلقان من أعلى الصّخرة، كعرائس البحر* نداءاتهما المشؤومة فتدوّي بها جلاميد الوادي."

5-13 سلاح المرأة

ردّت بسيشية مختنقة بغصصها وعبراتها: "لقد أتيح لك منذ مدّة، على ما أعلم، تقدير مدى أمانتي وتكتّمي. وستثبُت لك هذه المرّة أيضا صلابة نفسي. مُر فقط خادمنا زفيروس* بأداء خدماته مرّة أخرى، وعوّضني عن رؤية طلعتك الإلهيّة المحرّمة عليّ على الأقلّ برؤية أختيّ. أناشدك بخُصل شعرك الفوّاحة

(1) وها هي تعدّ: ينتقل أبوليوس من ماضي الوصف(=الطّمأنينة) إلى مضارع السّرد (=الشّوق والقلق).

بذكيّ الطّيب المتدلّية على جبينك، وبخدّيك الغضّين الأسيلين الشّبيهين بوجنتيّ، وبهذا الحضن النّابض بحرارة غريبة لأتعرّف محيّاك على الأقلّ في صغيرنا. استجبْ لتوسّلات امرأة حائرة وتضرّعاتها الحارّة بمنحي نعمة تقبيل أختيّ، وأحيِ روح بسيشية المخلصة لك المتفانية. لن أطلب بعد المزيد عن صورتك. فحتّى ظلمات اللّيل لا تزعجني، ما دمت أنت معي يا نور عيني." فُتن الزّوج بهذه الكلمات وبغنج عناقها فكفكف بشعره دموعها ووعد أن يفعل وراح قبل أن يدركه الصّباح.

5-14 نفاق

من السّفينة توجّهت الأختان المتلازمتان، ثنائيّا وحّدته المؤامرة الآن، دون رؤية أبويهما رأسا إلى الصّخرة للاندفاع بسرعة؛ ودون أن تنتظرا حضور الرّيح لحملهما قفزتا بجسارة جنونيّة إلى الأعماق. لكنّ زفيروس* الّذي لم ينس أمر مولاه تلقّاهما، وإن كرهًا، في حضن نسمته اللّطيفة وهبط بهما على الأرض. وعلى الفور وبدون تردّد دخلتا البيت بخطى حثيثة، وعانقتا فريستهما بصفتهما أختيها زوراً، وتملّقتاها مخفيتين في أعماقهما كنوزا من الغدر خلف وجهين يفيضان سرورا. "بسيشية، لم تعودي صبيّة كأمس؛ ها قد صرت أمّا: أيّ بشرى تحملين لنا في استدارة بطنك الحلو الصّغير! وأيّ أفراح ستبعثين في بيتنا كلّه! × هنيئا لنا ونعمّا تنشئة طفلك الحبيب! إن شابه، كما يحرى به، بهاء أبويه، فكوبيدونا* سيولد يقينا!"

5-15 الكذب فنّ أو لا يكون

بهذا التّودّد المليء رياء خلبتا شيئا فشيئا لبّ أختهما؛ ثمّ إنّهما جلستا فاستراحتا من وعثاء الطّريق وانتعشتا بحمّام ساخن. وردّت لهما الرّوح بمائدة فاخرة صُفّفتْ عليها الأطعمة الشّهيّة واللّحوم المقليّة. ثمّ أمرت القيثارة أن تتكلّم فعزفت، والمزامير أن تشتغل فشدت، وفرقة الغناء أن تنشد فأنشدت؛ فكانت أنغام حلوة خفيّة المصدر تبعث السّكينة في نفوس السّامعين. لكن حتّى رقّة تلك الأنغام العذاب لم تلطّف غلّ القهرمانتين الشّرستين. بل حوّلتا الحديث إلى الشّرك الذي حدّدتا بخطّتهما الماكرة وأخذتا تسألانها عن زوجها صفته وبلدته مخفيتيْن غايتهما. ولسذاجتها نسيتْ سابق روايتها(1) وأتت بكلام جديد. زاعمة أنّه تاجر ذو مال ممدود. ومن بلد قريب. وكهل في أوسط العمر وخطت شعره بدايات مشيب. واختصرت حديثها. ثمّ أعادتهما على بساط الرّيح محمّلتين بأنفس الهبات.

5-16 ارتياب الأختين بكذبة بسيشية

أثناء عودتهما. محلّقتين على نسمة زفيروس* رُخاء. راحتا تتحاوران بمرارة: "ما نقول يا أختاه في أكاذيب هذه الحمقاء الفاحشة؟ مرّة فتى يزهرّ زغب غضّ بلحيته. والمرّة التّالية كهل في أواسط العمر ضحك المشيب بهامته؛ فمن يكون تُرى هذا الّذي غيّره في مدّة قصيرة شيب مفاجئ إلى هذا المدى؟

نسيت كذبتها السّابقة: يذكر الكاتب في المرافعة مثلا يقول: يحسن بالكاذب أن يكون ذا ذاكرة جيّدة.

لا تفسير لذلك يا أختاه سوى أنّ هذه المرأة السّوءى تفتري كذبا أو تجهل صورة زوجها؛ وفي كلتا الحالتين يجب أن نخرجها من عيشها الرّخيّ بأسرع ما يمكن. وإن صحّ أنّها تجهل وجه زوجها، فلا بدّ أنّها تزوّجت إلها وتحمل في بطنها إلها؛ وإمّا تمسينّ، لا شاءت الأقدار، أمّا لطفل إلهيّ(1) لأشنقنّ في الحال نفسي بخرتة حبل. في الأثناء. هيّا نعد إلى أبوينا ولنختلق لهما أكاذيب من قبيل ما قالت(2)."

5-17 افتراء ماكر

في حرقتهما. بعد كلمات عجلى مع أبويهما وليلة مؤرّقة مكدّرة. طارتا في الصّباح الباكر وقد طاش صوابهما إلى الصّخرة. ومنها هبطتا بعون الرّيح المعتاد في لمح البصر؛ وبدموع اغتصبتاها من العيون من فرط حكّ الجفون توجّهتا إلى الفتاة الغرّة بهذا الكلام النّاصح مكرا: ^ "أنت تجلسين هانئة سعيدة لجهلك بالشّرّ العظيم. غير آبهة بالخطر المتربّص بك. بينما نحن اللّتان نسهر حرصا على حوائجك نذوق سوء العذاب من مصائبك. لقد علمنا يقينا. ولمشاطرتنا إيّاك طبعا محنتك وأساك لا نستطيع أن نخفيك أنّ ثعبانا ضخما يزحف جارّا أثناءه المتعدّدة المتموّجة. وينفث من أوداجه سمّا ذعافا. ويفغر فاه عن جوف سحيقة. هو الّذي يضطجع معك متخفّيا كلّ ليلة. تذكّري

(1) أمّ لطفل إلهيّ: هناك في الميثولوجيا اليونانيّة والرّومانيّة عديد الأمثلة على زواج بين الآلهة والبشر.

(2) لنختلق أكاذيب من قبيل ما قالت: exordio sermonis huius quam concolores fallacies adtexamus أو: لنختلق تتمّة لحديثنا أكاذيب (أو حيلا) توافقه؛ أو ربّما: لإعداد ما سنقول لبسيشية.

نبوءة العرّاف(1) الّتي ذكرتْ أنّك معدّة للزّواج بوحش شرس؛ ولقد رآه فلاّحون عديدون ومن بالجوار يصطادون وسكّان كثيرون يعود من مرعاه مع الغروب ويسبح في مياه النّهر القريب.

5-18 فضح نوايا الوحش

الكلّ يؤكّدون أنّه لن يستمرّ في تسمينك بلذيذ الأطعمة ولطيف الدّلع مليّا. فما إن ينضج حملك حتّى يلتهم فريسته كثمرة أحسن رئيا ورِيّا. والرّأي لك والخيار بين موافقة أختيك الحريصتين على حياتك الغالية والعيش معنا في أمان بمنأى من الأخطار، أو دفنك في جوف وحش ضار. وإن أعجبتك وحشة هذا الخلاء المأهول بالأصوات، وهذه الخلوة المستخفية المقرفة والمليئة بالمهلكات، وعناق ثعبان سامّ أفعوان. فسنكون على أيّة حال قد أدّينا ما علينا كأختين بارّتين." أرعج على بسيشية المسكينة من هول أقوالهما المريعة لسذاجة قلبها النّقيّ. وطار صوابها ونسيت تحذيرات زوجها ووعودها. وألقت بنفسها في الهاوية؛ ردّت عليهما مرتعشة، غائرة اللّون شاحبة، مهمهمة كلمات متقطّعة بصوت متلعثم لا يكاد يبين.

5-19 الوقوع في المصيدة

"لقد دأبتما يا أختيّ الغاليتين على أداء ما يملي عليكما برّكما كما كان يحرى بكما؛ وبالفعل لا يبدو لي أنّ من يؤكّدون تلك الأمور يكذبون. أنا فعلا لم أر أبدا وجه زوجي. ولا أدري من أيّ بلاد هو. إنّما أسمع فقط هسهسته ليلا. متقبّلة زوجا غامض

(1) نبوءة العرّاف: sortis Pythicae يستخدم أبوليوس اسم بيثية، عرّافة معبد دلفي، في معنى عامّ.

الهويّة يفرّ من الضّياء، ومرتضية بحقّ وحشا كما تقولان بصدق(1). وهو لا ينفكّ يخوّفني من مغبّة رؤيته، وينذرني شرّا عظيما من حبّ مشاهدة طلعته. والآن إن تستطيعا تقديم عون لإنقاذ أختكما المعرّضة للأخطار، فبادرا إلى مساعدتي دون انتظار. فالإحجام عن المساعدة بعد الإنذار من الخطر يفسد هذا الجميل." هكذا لقيتِ الجرمتان نفس أختهما عارية مفتّحة لهما أبوابها. فتخلّتا عن تخفّي آلة الحرب المدسوسة وجرّدتا سيف الغدر وانقضّتا على فكر الفتاة السّاذجة المليء بالمخاوف.

5-20 الدّين النّصيحة

قالت إحداهما: "تقتضينا وشائج القربى ألاّ نضع نصب أعيننا أيّ خطر في سبيل سلامتك. لذا سنطلعك على طريق فكّرنا بها طويلا طويلا. هي وحدها الكفيلة بإيصالك إلى برّ الأمان. خذي مطواة ذربة واشحذيها على لوحة مسنّ ثمّ أخفيها جيّدا في الفراش، في الجهة الّتي اعتدت النّوم فيها. ودسّي سراجا صغيرا مليئا بالزّيت ذا ضوء وضّاح في قعر مكيال. خبّئي العدّة جيّدا. ولمّا يأتي زاحفا ساحبا أذياله، فيرتقي إلى مضجعه المعتاد ويتمدّد، ثمّ يستولي عليه خدر النّعاس، ولا يلبث أن يغطّ في نوم عميق، × تسلّلي حينذاك من الفراش وامشي الهوينى حافية القدمين، مخفّفة وقع خطاك؛ ثمّ بعد ما تحرّرين من سجن الظّلام البهيم نفسك بالسّراج(2) تحيّني على هدي

(1) أرتضي بحقّ وحشا كما تقولان بصدق: bestiam(que) aliquam recte dicentibus vobis merito consentio تأويل ثان: أوافق، ولا أعدم مبرّرا، على أنّه وحش كما تقولان صدقا.

(2) بعدما تحرّرين نفسك بالسّراج: liberata lucerna أو: بعدما تحرّرين السّراج.

ضوئـه فرصة لتنفيذ فعلتـك(1) البطوليّة. خـذي الخنجر بعزم وارفعـي يـدك عاليـا فاقطعي بضربة شـديدة مجمـع الهامة والعنق من الثّعبـان المَريد. ولن تعدمي العون منّا؛ فحالما تحقّقين بموته الخلاص لنفسـك سـتجديننا بانتظارك على أحرّ من الجمر، وبعد أخذ كلّ هذه الكنوز بسرعة معك(2)، سنُزوّجك وفق مناك إنسانا مثلك."

5-21 تردّد بسيشية

بعدمـا أجّجتا بهـذه الأقوال حريقا في أعمـاق أختهما الّتي غدت متحمّسـة للخطّة تماما تركتاها بعجل لخشـيتهما على نفسـيهما القـرب من موقع المأسـاة الرّهيبة. حُملتـا فورا على جنـاح الرّيح وبالدّفع المألـوف إلى الصّخرة ومـا إن حُطّتا فوقها حتّى لاذتا بالفرار من الخطر فاسـتقلّتا فورا سـفينتهما وارتحلتا. أمّا بسيشـية الّتي تركتاهـا وحيدة، وما كانت حقّا كذلك إذ أتت جنّيّـات النّقمـة* يكدّرن نفسـها، فكانت تضطـرب في كربها كالبحـر المتلاطم، ورغم صمـود عزمها وصلابـة تصميمها، بل حتّى وقد بـدأت تُعدّ بيدها للجريمة، ظلّت تتأرجح حيرى تتنازعها في مأساتها مشاعر شتّى، متعجّلة متمهّلة، مُقدمة مُحجمة، قانطة حانقة(3)، بل، وهو أدهى، في نفس الجسم مبغضة وحشا

(1) فعلتـك: tui facinoris يسـتخدم أبوليـوس كلمة تختصّ عـادة بالفعال الذّميمة، تقريبا كأفعولة في العربيّة.

(2) أخـذ الكنوز معـك: تأويلان ممكنان: تأخذين الكنـوز معك، أو نأخذك ومعك الكنوز.

(3) متعجّلة/متمهّلـة...: أتـت هـذه الثّنائيّات المتضادّة فـي صيغة أفعال مع فصـل asyndeton يعطيهـا قوّة يصعب نقلها إلى العربيّة (حيث يسـتخدم الفصل أكثر مع أفعال الأمر كقول المتنبّي: أقلْ أنلْ أقطع احملْ علِّ سلِّ أعدْ/ زدْ هشِّ بشِّ تفضّلْ أدنِ سُـرّ صلِ؛ أو: عِش ابْقَ اسْمُ جُدْ قُدْ مُرِ انْهَ اسْرُ فُهْ تُسَلْ/ غِظِ ارْمِ صِبِ احْمِ اغزُ اسْبِ رُعْ دِ لِ اثْنِ نلْ أو مع النّعت والحال: مكرّ مفرّ مقبل مدبر معًا).

ومحبّة زوجا؛ ثمّ ضمّها المساء، حاملا في أعقابه الدّجى. فأعدّت للجرم عدّتها بعجلة متهوّرة. حلّ اللّيل وأتى زوجها فما لبث بعد مناوشات الهوى الأولى أن غرق في نوم عميق.

5-22 الوحش

إذّاك، وبمشـيئة القـدر الغاشـمة، اسـتجمعت بسيشـية الضّعيفـة في غير تلك اللّحظة جسـما وعزمـا قواها وحملت المسـرجة واستلّت المدية وسرت فيها شـجاعة الذّكران. لكن ما إن اتّضحـت على ضوء المسـرجة أسـرار تختها حتّـى رأت أعذب وأرقّ الوحـوش كلّها. رأت الإله البهيّ كوبيـدون* ذاته ينام ببهاء؛ فتنامى لمشـهده ضوء المسرجة وقد مسّته سرّاء، وخجل الخنجر بذبابـه المتطاول على جـلال الألوهة. أمّا بسيشـية فقد وقعت فـي روعها من جلال المشـهد رهبـة، وخذلتها قواها، وغشـيها شـحوب وذهـول، وخـرّت جاثية علـى ركبتيهـا؛ وهمّـت بإخفاء السّلاح، لكن في صدرها. كانت ستفعل حتما لو لم تنطّ المدية، لهول الجريمة، مفلتة من يدهـا الأثيمة؛ ظلّت طويلا تتأمّل خائرة مبهورة بهاء وجه الإله. ثمّ ما لبثت أن اسـتفاقت من غشـيتها. نظرت إلى شـعر الرّأس الذّهبـيّ المضمّخ برحيـق الآلهة والجيد البـضّ والخدّين المتورّدين المزدانين بأقـواس الذّوائب. تدلّى بعضها إلى الأمام وارتدّ بعضها إلى الوراء، وأشـعّت بسـنا اهتزّ له ضوء السّراج نفسه. وعلى كتفي الإله المجنّح تألّق ريش كالزّهرة المبلّلة

بالنّدى(1)، وعلى حافّة الجناحين السّاكنين، كان زغب غضّ ناعم يهتزّ مرتدّا في رعشة لطيفة. وباقي الجسم نيّر أملود لا تخجل بإجابه على تلك الصّورة حتّى فينوس*؛ وأمام قوائم التّخت أُلقيت القوس والسّهام والكنانة، أسلحة الإله المباركة.

5-23 الجريمة...

لبثت بسيشية تتأمّل وتمعن في قسماته بفضول لا يشبع، وتعجب(2) من أسلحة زوجها، ثمّ استلّت من الكنانة سهما. أرادت اختبار حدّته على أنملة إبهامها، فغرزته فيها عميقا بضغطة قويّة من سُلاماها المرتجفة حتّى تلك اللّحظة، جعلت قطرات دقيقة من دمها المشرب بلون الورود تنبجس على أديم بشرتها. هكذا وقعت بسيشية من تلقاء نفسها وبدون أن تدري في حبّ إله الحبّ؛ فأخذت تتّقد بهوى كوبيدون* أكثر وأكثر وانحنت عليه تغمره بجحيم من القبل العريضة المتلظّية(3) بنهم وتعجّل، خائفة من ابتسار نومه. لكن فيما هي تضطرب سقيمة الفؤاد حيرى في تلك السّعادة السّكرى، أسالت المسرجة من أعلى ذبالتها، غدرا ودناءة أو حسدا وإساءة أو تحرّقا للمس جسم الإله ولثمه بنحو ما بدورها، قطرة من زيتها المحرق على كتف الإله اليمنى. فيا لك، أيّتها المسرجة الجسورة الأثيمة من خادم كَلّ للهوى، ها قد أحرقتِ بنارك من بناره يكتوي الجميع،

(1) ريش برّاق كالزّهرة النّديّة: pinnae roscidae micanti flore في النّصّ مبادلة بين النّعتين.

(2) تمعن/تعجب: rimatur/miratur جناس معكوس.

(3) القبل العريضة المتلظّية: patulis ac petulantibus saviis جناس ناقص استهلاليّ.

أنت الّتي ابتدعك يقينا في البدء عاشق ليقهر بك ظلام اللّيل أطول وقت يمكن! هبّ الإله منتفضا من الحرقة واكتشف كيف نُكث عهده وهُتك سرّه فطار في الحال بعيدا عن شفتي ويدي زوجته البائسة دون أن ينبس بكلمة.

5-24 ...والعقاب

لكنّ بسيشية أمسكت فورا، لحظة نهوضه، رجله اليمنى بكلتا يديها وتعلّقت به بمسكنة مثيرة للرّثاء بينما راح يصّعّد في السّماء، وتبعته متشبّثة إلى طبقات السّحاب العلى، حتّى خارت قواها فهوت على الثّرى. لم يرض الإله العاشق بتركها طريحة الأرض، فهبط على سروة قريبة، خاطبها من أعلاها بتأثّر: ^ "أي بسيشية الغريرة، أنا من أجلك عصيت تعليمات أمّي فينوس * الّتي أمرتني أن أعلّقك حبّ أخسّ وأتعس إنسان، وأوقعك في أحطّ قران؛ بدلا من ذلك طرت إليك صبّا بك ولهان. لكنّي فعلت ذلك طيشا، كما أدرك الآن، ونفسي رميتُ أنا أبرع الرّماة بسهمي، فاتّخذتك زوجة لتري فيّ وحشا وتطعني بخنجرك رأسي الّذي يحمل عينين تذوبان في عينيك حبّا. مرارا أنذرتك وحذّرتك وجميلَ النّصح محضتك؛ لكن ستتلقّى مستشاراتك الفذّتان منّي حالا جزاء تغريرهما بك، أمّا أنت فبهجري سأعاقبك"؛ ولم ينه قوله حتّى انطلق في أعالي الجوّ.

5-25 نصيحة إله الرّعاة

ظلّت بسيشية جاثية على الأرض تشاهد على امتداد البصر طيران إلفها وتُذهب نفسها حسرات؛ ولمّا غاب عنها، لطول

المدى، زوجها المحمول على مجاذيف من ريش، جرت لترتمي من حافّة نهر قريب. لكنّ النّهر سارع مترفّقا، مهابة ومخافة الإله الّذي طالما ألهب حتّى المياه، فوضعها برقّة من على موجته المتلطّفة على ضفّته المزهرّة عشبا وأبّا. بالصّدفة كان الإله الرّيفيّ بان* جالسا قريبا من هناك على ضفّة النّهر، معانقا حوريّة الجبال إيخو* عازفا على مزماره أعذب الأنغام ليعلّمها، وعلى كثب كانت عنزاته ترتع وتمرح في المرعى الرّحب، قاطفة هنا وهناك من كلإ الوادي النّضير. دعا الإله التّيس بسيشية العليلة الكسيرة إليه برفق، وما كان في الواقع يجهل قصّتها، ولاطفها بهذه الكلمات: × "يا صغيرتي الحلوة، لست إلاّ راعيا ريفيّا، لكنّي بلغت من العمر عتيّا وأكسبتني السّنون تجارب عديدة؛ وإن صدق ظنّي، وهذا بالذّات ما يدعوه الحكماء عرافةً، فإنّي أحدس من خطوتك المترنّحة، وشحوب جسمك، وتنهّدك المستمرّ، وعينيك الذّابلتين، أنّك تعانين من هوى جبّار. فأصغي إلى نصحي، ولا تهلكي نفسك بالارتماء في النّهر من جديد أو بأيّة ميتة أخرى؛ كفّي عن البكاء ودعي الأشجان واستعطفي بالأحرى كوبيدون* أعظم الآلهة بالتّوسّل والضّراعة، واسترضيه بالملاطفات والطّاعة، فهو غلام مفرط في الدّلال والخلاعة."

5-26 بسيشية عند أختها الأولى

هكذا تكلّم الإله الرّاعي؛ فلم تردّ بسيشية واكتفت بالسّجود حمدا لألطافه؛ ثمّ هامت، حتّى أعياها المسير، بين الدّروب، ووصلت عرضا بها الطّريق مع الغروب إلى المدينة الّتي عليها زوج إحدى أختيها. لمّا علمت بذلك طلبت إخبار أختها

بمقدمها؛ فأُدخلت، وبعد السّلام سئلت عن سبب مجيئها فأنشأت تقول: "تذكرين نصيحتكما لي بشأن الوحش الّذي ينام معي منتحلا صفة الزّوج، إذ أشرتما عليّ بقتله بمدية ذات شفرتين قبل أن يلتهمني، يا ويلتي، في بلعومه الشّره الرّهيب. لكن لمّا كشف لي قسماته ضوء المصباح، الّذي كنت أحمله كما أشرتما أيضا، رأيت منظرا عجبا بل مشهدا إلهيّا يسطع مهابة وجلالا، ابن الإلهة فينوس*، أجل كوبيدون* نفسه ينام في دعة وهناء. فبينما أنا مخطوفة أمام مشهد ذيّاك النّعيم، مضطربة النّفس من فرط اللّذّة، أتعذّب لقلّة(1) صبري على الاستمتاع بحسنه الفتّان، لسوء الحظّ وقعت من السّراج قطرة زيت حارقة على كتفه. فنهض فورا من نومه ولمّا رآني أحمل خنجرا ونارا صاح فيّ: "جزاء فعلتك السّوءى، اذهبي فورا من فراشي لحالك وخذي من هنا كلّ متاعك. فإنّي عازم على الزّواج على شرع يوبتر* من أختك"، وذكر اسمك، وأمر فورا زفيروس* أن ينقلني بنفخه خارج قصره."

5-27 الانتقام

قبل أن تنهي بسيشية كلامها، استولت على أختها حوافز الشّهوة المسعورة والحسد الحقود؛ فخدعت زوجها بكذبة لفّقتها للظّرف، متذرّعة بتلقّيها نعي أبويها، وأبحرت حالا، وفور وصولها توجّهت إلى الصّخرة، ومع أنّ ريحا أخرى كانت تهبّ إذّاك، أعماها الأمل الكاذب، ومن لهفتها ارتمت بقفزة هائلة في الفضاء قائلة:

(1) فرط/قلّة: copia/inopia جناس مع مقابلة تزيدها قوّة صيغتا المبالغة السّابقتان tanti,nimia.

"خذنـــي إليك يا كـوبيدون* زوجـــة تليق بك، وأنت يا زفيروس* تعال احمل سيّدتك." لكنّها لم تستطع الوصول إلى ذلك المكان حتّى ميّتة؛ فقد تقطّعـــت أوصالها وتبعثرت على كتل الصّخور حيث بقيت أشلاؤها جزر السّباع والطّيور؛ وهكذا هلكت كما تستحقّ شـــرّ الهلاك والثّبور. ولم يتأخّر عقاب الثّانية؛ إذ عادت بسيشـــية تضرب في الأرض حتّى وصلت مدينة أخرى تقيم فيها بنحو مماثل أختهـــا الكبرى. فأســـرعت إلى الصّخرة بدورهـــا، مدفوعة بنفس الكذبـــة مـــن أختها، وبرغبة مماثلـــة في زيجة نكـــراء، ومنها هوت كالأولى إلى ميتة شنعاء.

5-28 غضب فينوس على ابنها

ثـــمّ مضت بسيشـــية تـــذرع الأرض بحثا عن كـوبيـــدون*؛ أمّا هو فـــكان مضطجعا علـــى فراش أمّـــه يئنّ متوجّعـــا من حرقة المسرجة. فأســـرع الطّائر الأبيض السّـــابح بجناحيه فوق اللّجّة، النّـــورس الملامس للموجة، إلى أعماق مملكة أقيانوس*. هناك وجد فينوس* تغتسل وتسبح فمكث غير بعيد وأخبرها أنّ ابنها حُرق وهـــو طريح الفراش يئنّ من وجع الجرح المبـــرّح، ضعيف الأمل في الشّفاء. وأنّه سمع، عبر الشّائعات وشتّى الأقاويل الّتي يتناقلها النّاس في كلّ مكان أســـوأ القدح في أســـرة فينـــوس*: هو على جبله منغمس في الخلاعة، وأنتِ في البحرفي اللّهو والسّـــباحة. لـــذا اختفـــت الشّـــهوة والأناقـــة واللّطافـــة، وعمّـــت اللاّمبالاة والخشـــونة والجلافة؛ واختفت روابط الزّوجيّـــة وعلاقات الصّداقة وحـــبّ الذّرّيّـــة، وســـادت قـــذارة مفرطـــة وقـــرف مغـــث لعلاقات مستوحشة بين البشريّة(1). راح الطّير الفضوليّ المهذار ينقنق

فـــي أذنها ممزّقا عرض ابنهـــا؛ فهتفت غضبى لحينها: × "اتّخذ إذن ولـــدي الفاضل خليلة؟ هيّا أنبئني، أنـــت الّذي تخدمني بحبّ دون ســـواك، باســـم الّتي غوت ولدي الغـــرّ الأجرد الفـــؤاد، أهي واحدة من شـــعب عرائس المـــروج والأنهار* أم من حوريّـــات الفصول* أم من فرقة ربّات الفنـــون* أم من طاقم تابعاتي إلهات الرّواء*؟" لم يكتم الطّير الثّرثار السّـــرّ، وأجاب: "لا أدري يقينا يا ســـيّدتي، لكن أظنّ فتاة تدعى بسيشـــية إن صدقتنـــي ذاكرتي هي الّتي يهوى بـــكلّ كيانه حســـبما يروى." هتفـــت فينوس* وقد استشـــاطت غضبا: "أبسيشـــيةَ حقّا مختلســـةَ حســـني ومنتحلةَ اســـمي يهوى ابني؟ لا إخال هذا الولـــد إلاّ اعتبرني إحدى القوّادات تعرّف بدِلالتها على تلك الفتاة."

5-29 فينوس توبّخ ابنها

جمجمت بتلك الكلمات مغضبة وخرجت من البحر مسرعة؛ فقصـــدت لتوّها تختها الذّهبيّ، لتجد هناك ابنها ســـقيما كما قيـــل لهـــا؛ زعقت مـــن العتبـــة بأعلى صوتهـــا: × "أهـــذا تصرّف شـــريف يليق بنســـبنا وبطيب أرومتـــك؟ بدءا تتجاهـــل تعليمات أمّك وســـيّدتك، فلا تعذّب عدوّتي بهوى شـــائن وفق رغبتي. فوق ذلك تربط معها وأنت عيّل في مثل هذه السّـــنّ علاقة مبتســـرة ماجنـــة لتفرض عليّ كمـــا أرى عدوّتي كنّة. أتظنّ أيّها السّـــفيه

(1) نتائج غياب الحبّ: هذه الفقرة رغم طابعها الهزليّ ذات مضمون فلسفيّ: فهي تقدّم الحبّ كحافز قويّ للنّفس البشـــريّة وأســـاس للمدنيّة؛ ولا تبعد عن بعض تحاليل مدرســـة فرويـــد. كذلك قد تعيد إلى الأذهان فلســـفة إنباذقليس الّتـــي تجعل منه قوّة كونيّـــة أو بعض أفكار أفلاطون في "المأدبـــة" الّتي يذكرها أبوليـــوس فـــي "المرافعـــة"12؛ ونجد فـــي قصيدة "فكـــرة الفنّان" لأبي القاســـم الشّابّيّ ما يشبهها إلى حدّ ما، في قالب شعريّ رومنسيّ.

التّكد المفسد، أنّك خلف السّلالة الأوحد، وأنّي مقلات لم أعد بسبب السّنين قادرة على إنجاب البنين؟ × اعلم إذن أنّي أنوي إنجاب ولد آخر خير منك، بل سأتبنّى نكاية بك أحد خدمي عوضا عنك، وأمنحه هذين الجناحين وهذه الأقباس والقوس والسّهام وكلّ العدّة الّتي لم أعطك لهذه الغاية؛ فلا شيء منها قُدّم لك من ممتلكات والدك لتجهيزك.

5-30. وتقرّر معاقبته

الواقع أنّك كنت منذ نعومة أظفارك سيّء التّربية، لا تكفّ يداك عن الخمش والخدش، ولطالما آذيتَ بوقاحة من هم أكبر منك، حتّى أمّك، نعم حتّى أنا أيضا. تلاحقني يوميّا بمضايقاتك يا أعقّ البنين، ومرارا لم تتورّع عن ضربي، بل واضح أنّك تزدريني كأرملة ولا تخشى زوجي السّيّد البطل القرم. ويلك كم قدّمت له السّراري لإغاظتي! لكن لأجعلنّك تندم على عبثك وتتجرّع من زواجك العذاب غصصا(1). لكن ماذا أفعل الآن وقد بتّ أضحوكة الجميع؟ وإلى أين أتوجّه؟ وكيف أسيطر على هذا الأفعوان؟ أأطلب العون من عدوّتي الرّزانة (سوبريتاس) الّتي طالما أغظتُها بسبب فسقه هو نفسه؟ أيجب أن ألاقي تلك السّمجة؟ يا للقرف! لكن لا يجب الإعراض عن أسوة الثّأر أيّا كان مأتاها. لا بدّ لي أن ألجأ إليها هي دون سواها؛ فهي وحدها تستطيع إنزال أقسى العقاب بهذا السّفيه وإفراغ جعبته ونزع نصال سهامه وإرخاء قوسه وإطفاء مشعله وحتّى إرغام جسمه على

(1) زوجي: ليس المقصود إذن فلكانوس بل عشيقها مارس. في بقيّة حديثها تنتقل إلى مخاطبة نفسها.

أمرّ الأدوية. وسأعتبر أنّه كفّر عن إساءته لي لمّا تزيل شعره الّذي طالما لامسته بيديّ، ملقية عليه ذاك السّنا الذّهبيّ، وتجزّ ريشه الّذي صبغته من كوثر ثديي العسليّ(1)."

5-31 عتاب

قالت ذلك واندفعت خارج البيت ناقمة غضبى، في واحدة من السّورات الفينوسيّة(2) فلقيتْها كيريس* ويونون* وإذ رأتا احتقان وجهها سألتاها لماذا تشوّه بتقطيب حاجبيها بمثل ذاك الاحتداد فتنة وسحر عينيها. ردّت: "أتيتما في الوقت المناسب لتعيناني على شفاء غلّ صدري: فابذلا أرجوكما قصارى جهدكما في البحث عن بسيشية الفارّة بل الطّائرة منّي؛ لا إخالكما تجهلان فضيحة أسرتي الّتي غدت على كلّ الألسن، ولا فعال ابني الّذي لا يستحقّ هذا الاسم منّي." كانتا على علم بما حدث، فحاولتا تهدئة غضبها الأهوج قائلتين: "أيّ سوء فعل ابنك أيّتها الإلهة حتّى تتصدّي بصرامة لرغبته، بل وتسعي بإصرار إلى إهلاك محبوبته؟ أأجرم إن راقت لعينيه غادة حسناء؟ أتجهلين أنّه بات شابّا بالغا، أم نسيت عمره ترى؟ أم يبدو لك دوما طفلا لأنّ السّنين لم تفقده طراءة الصّبا؟ × أنت أمّ وامرأة عاقلة، فهل ستظلّين دوما تتجسّسين على لهو ابنك وتحاسبينه على نزق الشّباب، وتؤاخذينه على أفانين اللّهو واللّذّات الّتي ابتدعتها أنت بالذّات؟ × ومَن من الآلهة أو البشر يرضى أن تنشري في الكون غواياتك

(1) من كوثر ثديي العسليّ: gremio nectarei fontis مجاز مرسل. أو: من ثديي ذي الكوثر العسليّ.

(2) في سورة فينوسيّة: استخدام النّصب accusativus بدل جرّ الظّرفيّة ablativus كما في الشّعر.

بينما تضيّقين بنحو محض على حبّ(1) أهل بيتك، وتغلقين المعهد العامّ لتعليم خطايا حبّ الغواني؟" بهذا الدّفاع راحت الإلهتان تتملّقان كوبيدون* الفتّان في غيابه خشية سهامه؛ لكنّ فينوس* أدارت لهما قفاها، مستنكرة أخذ الإلهتين الأدنى منها مأخذ الهزل شكواها، وحاثّة إلى البحر خطاها.

(1) محض/حبّ: amores/amare جناس مختلف.

الكتاب السّادس

6-1 في المعبد

في الأثناء ظلّت بسيشية تهيم قلقة بين الدّروب، أيّاما وليالي في بحثها الدّؤوب، راغبة بكلّ قلبها في استرضاء بعلها بتضرّعات الأمة المستعطفة إن لم يخفّف غضبه تودّد الزّوجة المتلطّفة. حتّى رأت معبدا على قمّة جبل وعر فقالت: "ما يدريني لعلّ مولاي يقيم هناك"؛ وقصدته فورا بخطو حثيث غدت تحدوه بعد ضنى الجهود الطّويلة آمالها وأمانيها. فارتقت بعزم إلى قمّته الشّاهقة، واقتربت من الهيكل: رأت سنابل من القمح مكدّسة وأخرى غضّة ضُفرت إكليلا ورأت سنابل من الشّعير. كانت هناك أيضا مناجل، وأدوات حصاد شتّى مبعثرة، وكما ترميها عادة أيدي الحصّادين عند قيظ الهجير. فخلّصتها بسيشية بعناية ورتّبتها على أحسن نسق، مفكّرة أنّ عليها بالتّأكيد ألاّ تهمل معبد ولا طقوس أيّ من الآلهة بل أن تستجدي رحمتهم وودّهم كلّهم.

6-2 دعاء

فاجأتها وهي جادّة في التّرتيب بتفان كيريس* المغذّية، وهتفت فورا: "واها! بسيشية المسكينة. فينوس* تجوب الأرض

غضبي لتقصّي أثرك. لا يهنأ لها بال وترغب في إنزال أشدّ العقاب بك، مسخّرة طاقات قوّتها الإلهيّة للانتقام وأنت منشغلة بترتيب أثاث معبدي وتفكّرين في شيء غير نجاتك."

خرّت بسيشية ساجدة أمام رجليها مبلّلة بدمعها قدميها وكاسحة الأرض بشعرها وبأدعية عديدة أخذت تستعطفها:

× "أتوسّل إليك بيمينك السّخيّة، وبأعياد الحصاد البهيجة، بالأسرار المكتومة في سلّة طُرفك القدسيّة، وبمركبتك المجنّحة الّتي يجرّها تنّيناك الذّلولان؛ ^ بالأتلام في ثرى صقلّيّة، بالمركبة الّتي خطفت بروسربينة* والأرض الّتي أخفتها ونزولها إلى عالم الظّلمات لزفّها لخاطفها، وعودتها بعد اكتشافها إلى عالم الضّياء، وببقيّة الأسرار الّتي يلفّها صمت معبدك في إليوسية* الأتّيكيّة *، ساعدي بسيشية الّتي تتضرّع إليك نفسها البائسة. اسمحي لي بالاختفاء هنا بين ركام السّنابل ولو لبضعة أيّام، ريثما تهدأ سورة غضب تلك الإلهة الجبّارة، أو لأستعيد على الأقلّ بقسط من الرّاحة قواي المنهكة من عنائي الطّويل."

6-3 مساعدة إلهيّة حاسمة

ردّت كيريس: "لقد تأثّرت لتضرّعاتك ودموعك، وبودّي مساعدتك؛ لكنّي لا أستطيع تعريض نفسي لموجدة قريبة تربطني بها منذ القدم صداقة أجلّها وأصونها، فضلا عن طيبتها. فاذهبي فورا من هذا المعبد واشكري لي ألّم أمسكك عندي." لم يسع بسيشية بعد صدّها وتخييب رجائها سوى الرّجوع أدراجها وغمّتان في قلبها؛ فلمحت في غبش الوادي

الممتدّ تحتها معبدا على طراز بارع من البناء. وفي حرصها على ألاّ تهمل أدنى بصيص من الأمل ولو ضعيف الاحتمال وأن تلتمس عون أيّ إله، دنت من مدخل الحرم. فرأت عطايا نفيسة وأقمشة خُطّت عليها كتابات بالذّهب معلّقةً على أفنان الأشجار وكتف الباب، تشهد باسم الإلهة الّتي أُهديتُ لها لشكر فضلها؛ فجثت على ركبتيها وطوّقت المذبح الدّافئ بذراعيها؛ وبعدما كفكفت دموعها شرعت تدعوها:

6-4 عون يونون

"يا أخت وزوجة يوبتر* العظيم، سواء كنت تقطنين ذلك البيت العتيق بساموس* الّتي تفاخر بأنّك فيها وُلدت وكركرتِ وترعرعتِ، أو ترتادين منتجعات قرطاج الشّامخة الّتي تعظّمك في صورة غادة تجوب أقطار السّماء ممتطية أسدا. أو تحفظين أسوار أرغوس* قرب ضفاف الإيناخوس* الّذي يشيد بك كزوجة ربّ الرّعد(1) وملكة الآلهة. أنت الّتي يعظّمك الشّرق كلّه تحت اسم زوغية* ويدعوك الغرب كلّه لوقينة*! كوني إلى جانبي في محنتي العظمى يونون* المسعفة(2). ها أنا أمامك مكدودة من جهودي المنهكة، فخلّصيني من خوف الخطر الوشيك، فعادتك، فيما أعلم، المبادرة من تلقاء نفسك إلى غوث الحوامل المعرّضات للخطر." إزاء تضرّعاتها، تجلّت لها يونون* فورا في كلّ أبّهة ألوهتها، وقالت: "لكم أودّ بعزّتي إجابة دعائك. لكنّ تقديري

(1) ربّ الرّعد: يوبتر/زيوس. ثُور عند شعوب الشّمال. من هنا أتت تسمية يوم الخميس في لغات أوروبة.

(2) ابتهالات بسيشية ليونون: ترينا النّزعة التّأليفيّة في إطار الامبراطوريّة الرّومانيّة وفي أدب أبوليوس.

لكنّني فينوس* الّتي أحببتها دوما بمثابة ابنة لا يسمح لي بالوقوف في وجهها؛ كذلك تمنعني من استقبالك في معبدي القوانين الّتي تحظر إيواء العبيد الأغراب الآبقين بدون رضا عن أسيادهم."

6-5 قرار الاستسلام

من جزعها بعد كبوة حظّها مرّة أخرى، وعجزها عن إدراك زوجها المحلّق في السّماء، وفقدانها كلّ أمل في الخلاص، قالت بسيشية لنفسها: × "أيّة مساعدات أخرى يمكن أن تُطلب أو تُلتمس لمن لم يُجد تأييد إلهتين رغم رغبتهما في تقديم العون؟ × أين أرسل خطوي مرّة أخرى وقد تلجلجتُ في كلّ هذه الشّراك؟ وفي أيّ مخبئ بل في أيّة ظلمات أختفي هربا من أنظار فينوس* الجبّارة الّتي لا ملاذ منها ولا فكاك؟ هلاّ استجمعتِ شجاعتك إذن وتخلّيت عن بصيص الأمل الخلّب واستسلمت طوعا لمولاتك مهدّئة سورة غضبها بإذعانك وإن تأخّر. بل من يدري، لعلّك تجدين من تنشدين منذ أمد طويل هناك، في بيت أمّه!"؛ هكذا مضت تهيّئ نفسها لمغفرة غير مؤكّدة، بل إلى هلكة محقّقة، وهي تفكّر في استهلال لدعاء التّوبة المعتزمة.

6-6 فينوس ترقى إلى السّماء

أمّا فينوس* فتخلّت عن وسائل البحث على الأرض واتّجهت إلى السّماء؛ فأمرت بإعداد مركبتها الّتي أحكمت صنعها يدا فلكانوس* الصّائغ بفنّ فريد وقدّمها لها قبل البدء في حفل الزّفاف هديّة زواج هذّبها المبرد وبراها فزادها شأنا وقيمة بما

أفقدها من خالص النّضار. فبرزت من بين الحمام المقيم حول بيت الإلهة أربع حمائم بيض وتقدّمن بخطى جذلى، حانيات أطواقهنّ المرقّشة، فأولجنها في النّير المرصّع بالجواهر، وبعدما استقبلن مولاتهنّ، طرن فرحات. حفّت بمركبة الإلهة، في جلبة مرحة، شحارير وطيور أخَر طراب يشدين مؤذنات بألحانهنّ العذاب عن مقدم الإلهة. فانحسرت الغيوم وانشقّت السّماء لاستقبال ابنتها، وتلقّى الأثير في عليائه الإلهة بغبطة؛ ومضى الموكب الصّادح مرافقا فينوس* العظيمة لا يخشى اعتراض النّسور والكواسر.

6-7 وتطلب خدمة مركوريوس

على الفور اتّجهت نحو عرش يوبتر* وطلبت بشموخ أن يضع في خدمتها مركوريوس* الإله ذا الصّوت الجهوريّ لحاجة تقتضيه. فما أشار بالرّفض حاجبا كبير الآلهة اللّيلكيّان؛ ونزلت فينوس* لتوّها من السّماء برفقة مركوريوس* منتصرة وألقت إليه هذه الكلمات مترجّية: × "تعلم جيّدا يا أخا الأركاد* أنّ أختك فينوس* لم تفعل أبدا شيئا بدون عونك؛ ولا يخفى عليك أنّي لم أستطع منذ مدّة اكتشاف أمة لي مختفية، ولم يبق سوى أن تعلن في العموم عن مكافأة لمن يجدها. فافعل بسرعة ما أمرتك، وبيّن السّمات الّتي يمكن بها التّعرّف بوضوح على شخصها، وأنذر الجميع أنّ من يتستّر عليها موقعا بذلك في المحظور بنفسه لن يستطيع التّذرّع بجهله." ومدّت له وهي تقول ذلك بطاقة كُتب عليها اسم بسيشية وبيانات أخرى ثمّ غادرته إلى بيتها فورا.

6-8 استقبال حارّ

لم يتوان مركوريوس* عن الامتثال ومضى، من خلال أفواه كلّ الشّعوب، يجوب كلّ مكان منفّذا مهمّة النّداء الموكولة إليه: "من استطاع أن يعيد بنت الملك الهاربة، أمة فينوس المدعوّة بسيشية، أو أن يدلّ على مخبئها، فليُلق الحاشر مركوريوس* خلف صوى مُرتية*. وسينال من فينوس* شخصيّا، جزاء تبليغه، سبع قُبل عذاب، وواحدة أخرى عسليّة مزغزغة من لسانها حلو الرّضاب." ما كاد مركوريوس* ينهي نداءه حتّى هبّ كلّ الورى متنافسين طمعا في المكافأة المعتبرة، فأزال ذلك تماما كلّ تردّد في نفس بسيشية القانطة. ها قد أشفتُ على باب قصر مولاتها وإذا بخادمة لفينوس* تدعى كنسويتودة (العادة) تهرع هاتفة بأعلى صوتها: × "أخيرا يا أخسّ الإماء بدأتِ تدركين أنّ لك مولاة؟ أوتراك تتجاهلين ما تكبّدنا، بسبب سفاهتك وسوء سلوكك، من مشاقّ في البحث عنك؟ لكن سعديُكِ، ها أنتِ وقعتِ في قبضتي أنا شخصيّا؛ فاعتبري أنّك بتِّ بين كلاليب أركوس*، ومنه ستنالين، كما سترين حالا، عقاب تمرّدك."

6-9 الحماة والكنّة

واندفعت تجرّرها سفعاً بالنّاصية وهي لا تبدي أقلّ مقاومة؛ فما إن رأتها فينوس* تساق وتقدّم إليها حتّى انفجرت ضاحكة كما يفعل من أعماهم الغضب، وقالت مرجرجة رأسها فاركة أذنها: × "أخيرا تفضّلت بالسّلام على حماتك، أم أتيت بالأحرى لتعودي زوجك السّقيم من جرحك؟ اطمئنّي فسأعاملك

كما يحقّ بكنّة صالحة مثلك." وأردفت ملتفتة :"أين خادمتاي ملّوكيتودة وترستية (الهمّ والأسى)؟" × حضرتا، وسلّمتهماها لتعذّباها؛ وبعدما نفّذتا أمرها، جالدتين بسيشية المسكينة بالسّياط ومسلّطتين عليها شتّى الأنكال ردّتاها لمولاتهما لتراها. ضحكت فينوس* من جديد وقالت :"ها هي تستثير بإغراء بطنها المثقل رأفتنا؛ فمن ضنوه العظيم ستجعلني، على ما أرى، جدّة سعيدة. فيا بختي ويا سعدي! قريبا أدعى جدّة وأنا في شرخ الشّباب ويدعى ابن جارية حقيرة حفيد فينوس*. وإن كنت غبيّة حقّا إن أدعه ابنا بدون وجه حقّ؛ فهذا الزّواج غير المتكافئ والّذي تمّ في ضيعة بلا شهود وبدون موافقة الأب لا يمكن بحال أن يعدّ زواجا شرعيّا؛ ومن ثمّ سيولد لقيطا، هذا إن سمحتُ لها أصلا بإتمام حملها إلى غاية الوضع."

6-10 الاختبار الأوّل

قالت ذلك وانقضّت عليها فمزّقت ثوبها وقطّعت شعرها ورجرجت رأسها وبطحتها بعنف؛ ثمّ طلبت إحضار مكاييل من القمح والشّعير والزّوان والسّمسم والحمّص والعدس والفول، فخلطتها وكدّستها ثمّ جمعتها في حثرة وقالت لها: × "تبدين لي أمة دميمة حقّا، فما بغير الخدمة المتفانية تصيرين أهلا بعشّاقك؛ لذا سأختبر شطارتك بنفسي. آمرك بفرز هذا الخليط من الحبوب وجمع كلّ فئة على حدة قبل الغروب، ثمّ إحالة عملك عليّ لأنظر فيه." بعدما عهدت إليها بكومة تلك الحبوب الّتي لا تُعدّ ولا تحصى، ذهبت إلى حفلة زفاف؛ فلم تمدّ بسيشية يدها إلى ذلك الكدس الممتنع عن الفرز، وفي ذهولها من الطّلب

المشطّ لاذت بالصّمت. أشفقت النّملة، ساكنة الحقل الدّقيقة العجفاء لعلمها بمدى صعوبة المهمّة الكأداء، على زوجة الإله العظيم من ذلك العمل الشّاق، وأثارتها شراسة حماتها، فأسرعت تدعو جحافل النّمل، سكّان تلك الرّبوع، جميعا: × "رحمةً يا بنات الأرض- أمّ الجميع- الخفاف النّشطات؛ رحمة بزوجة إله الهوى هذه الفتاة الرّقيقة وهلمّنا فورا لمساعدتها فهي في خطر عظيم." فتدفّقت أمواج تتلو أمواجا من معشر سداسيّات الأرجل، وبعناية تفوق الوصف فرّقن كلّ الكومة حبّة حبّة ووزّعنها كلّ صنف على حدة، ثمّ توارين عن الأنظار في لمح البصر.

6-11 الاختبار الثّاني

أمّا فينوس* فعادت مع بداية اللّيل من حفل الزّواج ثملة تفوح بالعطور وتغطّي جسمها عقود من لألاء الورود؛ فلمّا رأت بأيّ إتقان أُنجز ذلك العمل العجاب، قالت: × "ما هذا عملَك ولا فعلَ يديك، يا لئيمة، إن هو إلاّ عمل من أغويتِ جارّة له ولك الشّقاء!" وألقت إليها بكسرة من الخبز الأحرش وأوت إلى فراشها. في الأثناء أُرغم كوبيدون* بصرامة على البقاء بالبيت حبيس الفراش بلا أنيس، شيئا مخافة أن ينغل الجرح من شغبه، وشيئا كيلا يجتمع بمحبوبته؛ هكذا قضى الحبيبان، مفصولين تحت سقف واحد، ليلة ليلاء. ثمّ أتت أورورة* على جيادها، فدعت فينوس* بسيشية وقالت لها: "أترين تلك الغابة أين يعدو ذلك النّهر دافقا فيرويها على طول ضفافه وتتحدّى جذول أشجارها لجّته القريبة؟ × هناك ترتع بلا رقيب غنم تزدهي بسنا صوفها

الذّهبيّ. آمرك أن تلتمسي بأيّة طريقة وتجلبي لي من هناك فورا ندفة من جزّة صوفها النّفيس."

6-12 القصبة الملهمة

هرعت بسيشية، لا لتنفيذ الأمر، بل لتستريح من متاعبها بالارتماء من شفا النّهر؛ فانبرت لها من النّهر قصبة مخضوضرة شادية الألحان أنطقها إلهام ربّانيّ مع هفيف النّسيم الرّقيق هذا الوحي: × "أي بسيشية المبتلاة بألوان الرّزايا، إيّاك أن تدنّسي بالموتة الشّنيعة الّتي تنوين مائي الطّهور، أو أن تقتربي في هذه السّاعة من تلك الأغنام البرّيّة الرّهيبة. فكلّ يوم يتملّكها، حين يشتدّ وهج الهجير، هياج أهوج، وبقرونها الحادّة وجباهها الصّلدة، وبعضّاتها الموبوءة أحيانا تثخن كلّ من اقترب منها بجراح مردية. لكن بعدما يلطّف الأصيل أوار الشّمس وتهدّئ نسمة النّهر العليلة تلك الأغنام، يمكنك الاختفاء تحت هذه الدّلبة السّحوق الّتي يسقي نفس الماء عروقها وعروقي. فلمّا تهدأ ثائرتها وتلين عريكتها، هزّي إليك بفروع الغابة تساقط عليك وبرا ذهبيّا، ممّا علق من مصالتها هنا وهناك على الأغصان الملتفّة بها.

6-13 الامتحان الثّالث

هكذا هدت البوصة البسيطة الرّحيمة بسيشية البائسة إلى سبيل النّجاة، فلم تُعرض عن النّصح المسدى إليها باستخفاف يورث الحسرات، بل امتثلت لتعليماتها. وما لبثت أن عادت جالبة لفينوس* فيلجة جمعتها خلسة من عهن منفوش كالذّهب شقرةً. فلم يلق لدى فينوس* حتّى هذا الإنجاز الثّاني

قبولا حســنا(1) ، بل قطّبت حاجبيها، وببســمة كالحة قالت: "لا يخفى علــيّ أنّ غيرك أنجز عنك غشّــا هذه المهمّــة أيضا؛ لكنّي هذه المرّة ســأختبر تحت مراقبة شــديدة إن كنتِ حقًّا ذات فطنة فائقة وشــجاعة فريدة. أترين الفوّار المنبجــس من تلك الصّخرة الشّامخة على ذلك الطّود الأشمّ، تنحدر منه سيول سحماء من الماء العكــر الأحمّ، فتتجمّع في جوف ذاك الوادي القريب، لتصبّ في إســتكس * نهر عالم الموتى الرّهيب، وتغذّي لجج كوكيتوس* المجعجعة في اعتسافها الصّخوب؟ × هات لي من هناك فورا، في هــذه الزّجاجة، غرفة من ذاك الماء المتدفّــق تغترفينها من أعماق نبعــه الثّجّاج؛" قالت ذلك ومدّت لها مــن عل، بوجه بادي الوعيد والاهتياج، قارورة صقيلة من الزّجاج.

6-14 مهمّة مستحيلة

فانطلقــت بحماس، حاثّة خطاها إلى قمّة الجبل الشّــامخة، رغبة في وضع حدّ لحياتها البائســة هناك بأقصى ســرعة؛ فلمّا دنــت من تخومهــا أدركت هــول مهمّتها الــكأداء. كانت صخرة ملساء، يتعذّر تسلّق جرفها المدبّب، تقذف من جوف الحجر سيولا رهيبــة، فتبتلعها لتوّها أخاديد جرُف شــديد الانحدار، فتزِب منه علــى منحدر ثمّ تندلــق في قناة ضيّقة حفرتها، تنســاب عبرها لتصــبّ في قيعة قريبة. وعلى اليمين والشّــمال حُفرت الصّخور وأطــلّ تنّينان مخيفــان، مادّين عنقيهما الطّويلين، استرســلت عيونهما في حراسة يقظة لا تكلّ، وجحظت حدقاتهما تتلقّيان

(1) الثّاني/حســنا (أو مواتيا): تلاعب لفظيّ آخــر لأنّ كلمة واحدة secundus تعني المعنيين.

النّــور الأبديّ. أخــذت تلك المياه القــادرة على النّطــق تهيب بها، لتقي نفســها شرّ ما أضمرت: "ابتعدي! ماذا تفعلين؟ انتبهي، بم تهمّين؟ احذري، فرّي، وإلاّ ســتهلكين." أمّا بسيشية فاستحالتْ من استحالة مهمّتها حجرا، ولبثت غائبة اللّبّ وإن كان جسمها حاضرا، منسحقة تحت وطأة خطر لا مخرج منه ولا مجير، لا تجد حتّى عزاء الدّموع، ملاذها الأخير.

6-15 جلالة نسر النّسور

لم يخفَ عــن عين العناية الإلهيّة الخفيّــة بؤس تلك النّفس الزّكيّة: فجأة أتاها باسـطا جناحيه رسـول يوبتـر* الكبير، ملكُ الطّيــور، جلالة نســر النّســور، تذكّر خدمة قديمــة، يوم اختطف بإرشاد كوبيدون* ســاقيَ مولاه الفريجيّ*، ولرغبته في ردّ جميل الإله بتفريج كربة زوجته، نزل من علياء مخدومه الشّــمّاء مرفرفا أمــام وجه الفتــاة، وقال لها هذه الكلمــات: ^ "أحقًّا ترجين أيّتها الصّبيّــة الغرّة الغشــيمة اختــلاس حتّى قطرة واحــدة من هذا الماء الطّهور النّاضخ تحت قدميك، بل حتّى لمســه بكفّيك؟ × أما علمــتِ أنّ الآلهة، حتّى يوبتر* نفســه، يرهبون مياه إســتكس*، ويقسمون عادة بجلال هذا النّهر كما تقسمون بعزّة الآلهة أنتم معشر البشر؟ × لكن هات لي تلك القارورة؛" وفي الحال أمسكها وكمشها وحلّق ناشرا جناحيه، مرفرفا ذات اليمين وذات الشّمال، بين صفّي أنياب التّنّينين الفتّاكة، والألســن الثّلاثة المتلظّية من فم كليهما. فامتاح من المياه، وهي تتمنّع وتنذر وتأمره بالانصراف دون أن يمسّها بسوء، متذرّعا بأنّه أتى يلتمس غرفة منها بأمر من فينوس* وليس إلاّ عبدا مأمورا، ممّا يسّــر الإذن له بالاقتراب شــيئا

يسيرا.

6-16 الامتحان الرّابع

تلقّت بسيشية القتّينة الملأى فرحة وعادت تسلّمها لفينوس* مسرعة؛ لكنّها لم تزد الإلهة الشّرسة إلاّ عنتا. خاطبتها متوعّدة، وقد ارتسمت على شفتيها بسمة تطفح شرّا وموجدة: "تبدين لي الآن حقًّا ساحرة شرّيرة ضليعة إذ أجبت مطالبي إجابة سريعة. لكنّي أطلب منك المزيد يا نور عيني! خذي هذه العلبة منّي،"– ومدّتها لها- "وامضي حالا إلى العالم السّفليّ*، رأسا إلى بيت أركوس* السّوداويّ. فقدّميها لبروسربينة* وقولي لها: "تودّ فينوس* أن ترسلي لها قليلا من حسنك ولو قدر يوم واحد. فقد استهلكتُ ما بحوزتها مذ عكفتُ على علاج ابنها المريض وأفنتُ كلّ ذخيرتها"؛ لكن إيّاك والعودة قبل إنجاز المهمّة، إذ لا بدّ أن أدّهن منه للظّهور في حفل للآلهة."

6-17 برج أوتي العرافة

أحسّت بسيشية أنّ تلك هي القاضية، وأدركت تماما أنّ المراد، بجلاء ودون قناع، دفعها فورا إلى موت محقّق؛ كيف لا ومولاتها تُرغمها على السّعي بظلفها إلى حتفها، إلى نهر التّرتار* ولقاء أشباح الموتى؟ × ودون تلكّؤ توجّهت نحو برج عال لتلقي بنفسها من فوقه، إذ خطر ببالها أنّ تلك هي الطّريقة المثلى للنّزول إلى عالم الموتى. لكنّ البرج انفجر ناطقا وناداها من تحتها: "لِم تريدين، يا شقيّة، أن تلقي حتفك بالارتماء من هنا؟

لم تستسلمين بلا مبرّر أمام هذا الخطر والعمل الأخير؟ × بمجرّد انفصال روحك عن بدنك، ستذهبين لا شكّ إلى نهر التّرتار* في غياهب العالم السّفليّ*، لكنّك لن تستطيعي إذّاك العودة منه أبدا؛ فأصغي إليّ جيّدا.

6-18 تعليمات البرج...

تقع قريبا لخدمونة* مدينة أخاية* الشّهيرة؛ ابحثي على تخومها المخفيّة في أماكن منعزلة عن التّينار*. هناك يوجد منفس ديس*، ومن خلال المدخل المنفرج يبدو لك سرداب عسِر؛ فإذا اجتزت العتبة التقفتك قناة تفضي بك مباشرة إلى قصر أركوس* بالتّحديد. فلا تتوغّلي في تلك السّدف فارغة اليدين؛ بل خذي في كلتيهما لقمة من عصيدة الشّعير منقوعة في البِتْع، واحملي في فيك أيضا دانقين. بعدما تقطعين شوطا من سراط الموت، سيعترضك حمار أظلع يحمل حزمة حطب، مع حمّاره الأعرج مثله والّذي سيطلب منك أن تمدّي له عيدانا وقعت من حمله على الأرض فمرّي ولا تنبسي بكلمة. ثمّ لن تلبثي أن تصلي إلى نهر الموتى حيث يطلب الرّبّان خارون* فورا أجر العبور ويأخذ المسافرين إلى الضّفّة الأخرى البعيدة على قاربه المجمّع من قسيّ الأسل. فحتّى بين الموتى يبقى الشّحّ حيّا؛ ولا يفعل خارون* ذاك الإله العظيم جابي ديس* شيئا مجّانا؛ ولا بدّ إذن للفقير إن حضرته الموت أن يتزوّد وإن اتّفق أن لم يكن بيده دانق فلا أحد يسمح له بالموت. أعطي ذلك العجوز المقرف أحد الدّانقين اللّذين تحملين بشرط أن يأخذه بنفسه من فيك بيده. ومهما ترجّاك عند عبور اللّجّة الكسلى عجوز ميّت نخر يعوم على السّطح،

مادّا إليك يده، أن تنتشليه إلى القارب. إيّاك أن تأخذك به رحمة، فهي محرّمة.

6-19 ...لزيارة العالم السّفليّ

بعدما تجتازين النّهر وتتقدّمين قليلا، ستترجّاك حوائك عجائز ينسجن كساء أن تمدّي يدك قليلا لمساعدتهنّ. ذاك أيضا ممنوع عليك؛ كلّ هذه الأشياء وكثير غيرها شراك نصبتها لك فينوس* لتضيّعي من يدك واحدة على الأقلّ من اللّقمتين. لا تظنّي فقدان إحدى اللّقمتين أمرا يسيرا فلو أضعت واحدة لحُرمت إلى الأبد العودة إلى النّور. فإنّ كلبا وحشيّا مخيفا بثلاث هامات ضخمة ينبح ملء حنجرته على الموتى الّذين لا يستطيع إيذاءهم وإنّما يرهبهم سدى يحرس بيت ديس* الخالي، مترصّدا باستمرار على العتبة أمام بهو بروسربينة* تماما. قدّمي له إحدى اللّقمتين تتألّفيه وتمرّي بسلام، فتدخلي رأسا إلى بروسربينة* الّتي ستستقبلك ببشاشة وتدعوك بلطف إلى الجلوس على أريكة وثيرة وتناول غداء فاخر. فلا تفعلي بل اجلسي علي الأرض وكلي جلفة من خبز جشيب ثمّ اعرضي غاية زيارتك وخذي ما تعطيك. وفي طريق العودة، تفادي باللّقمة المتبقّية شراسة الكلب، وأعطي النّوتيّ الشّحيح الدّانق المتبقّي، وبعد عبور النّهر اقتفي خطاك السّابقة وسترين من جديد كواكب السّماء في محفلها البديع. لكن، من بين كلّ التّعليمات، أطلب منك التّقيّد بهذا خاصّة: ألاّ تحاولي فتح العلبة الّتي تحملين أو إلقاء نظرة داخلها، ولو لمجرّد الاطّلاع على كنز الحسن الإلهيّ المخبوء بها."

6-20 إنجاز باهر...

هكذا أبان ذلك البرج المنيف البصير موهبة العرافة المكنونة فيه؛ وفي الحال توجّهت بسيشية إلى التّينار* فأخذت وفق الطّقوس الدّانقين واللّقمتين، ثمّ أسرعت بالنّزول إلى نفق العالم السّفليّ*. فمرّت بصمت بالحمّار الأعرج وأعطت دانقا لربّان النّهر، وتغاضت عن ترجّي الميّت الطّافي، وتجاهلت توسّلات الحوائك المخادعة، وهدّأت هيجان الكلب العقور، ثمّ دخلت بيت بروسربينة*. فلم تعر الأريكة الوثيرة ولا الأطعمة الفاخرة الّتي قدّمتها لها مضيّفتها اهتماما، بل جلست على الأرض أمام قدميها وقنعت بكسرة خبز وأبلغتها رسالة فينوس*. ثمّ بلا تراخ أخذت العلبة الّتي ملئت وأُغلقت في الخفاء. واحتالت لتخرس باللّقمة التّالية نباح الكلب، وسلّمت النّوتيّ الدّانق المتبقّي ثمّ بارحت العالم السّفليّ * وقد زاد نشاطها(1). وعادت إلى نور هذا العالم فخرّت له ساجدة؛ ورغم تعجّلها لإنهاء المهمّة، استولى على ذهنها فضول آثم جسور؛ قالت لنفسها: "ما أحمق أن أحمل الحسن الإلهيّ ولا آخذ منه شيئا لنفسي فقد أعجب إذّاك حبيبي البهيّ."

6-21 ...لولا الفضول

فتحت العلبة وهي تقول ذلك، فما كان بها حسن ولا شيء

(1) زيارة عالم الأموات: موضوع تناوله الأدب اللاّتينيّ واليونانيّ القديم (الأوديسة، الإنياذة، أسطورتا هرقل وأرفيوس) وميثولوجيات شتّى الشّعوب، وتناوله كذلك الأدب العربيّ طبق العقائد الإسلاميّة ("رسالة الزّوابع والتّوابع" لابن شهيد، "رسالة الغفران" للمعرّي وقد تكون "المقامة الإبليسيّة" للهمذانيّ أصل العملين). واشتهرت في العصور الحديثة "الكوميديا الإلهيّة" لدانتي الّتي قد تحمل تأثيرات عربيّة.

سوى كرى العالم السّفليّ*، نوم إستكس* الأبديّ الّذي انفلت في الحين من الفتحة واستحوذ عليها، وتملّكتها غيمة متلبّدة من السّبات سرت في كلّ أعضائها. فقُبضت مكانها متداعية وسط الطّريق قبل إنهاء خطوتها. وثوت هناك جثّة هامدة بلا حراك؛ أمّا كوبيدون* ففي الأثناء التأم جرحه وتماثل للشّفاء؛ فلم يطق على غياب بسيشيته الطّويل صبرا، فأفلت عبر نافذة سامقة من حبس غرفته. وطار مسرعا وقد أعاد الاستجمام الطّويل لجناحيه قواهما، إلى بسيشية الحبيبة فنفض عنها الكرى برفق وأعاده إلى موضعه الأصليّ بالعلبة؛ ثمّ لامس بطرف سهمه بسيشية بلطف، قائلا: × "أي بسيشية المسكينة، ها أنت تهلكين ثانية، بسبب فضول كالأوّل(1) . أتمّي المهمّة الّتي كلّفتك بها أمّي، وسأتولّى ما تبقّى." طار العاشق خفيف الجناح وأسرعت بسيشية تحمل هبة بروسربينة* لفينوس*.

6-22 شكوى كوبيدون

أمّا كوبيدون* المدنف بتباريح وجده الجارف والخائف لمرأى وجه أمّه الباسر من فتور(2) مفاجئ ففي الأثناء عاد إلى عاداته السّابقة(3) ونفذ خفيف الجناح إلى مناط السّماء؛ فشكا

(1) تأثيم الفضول: مرّة أخرى (5: 6 ثمّ 5: 23) وهو أصل بلايا لوقيوس وسقراط قبله وأرسطومانس وتليفرون، قد نستغربه من فيلسوف كأبوليوس، فالفلسفة تبدأ تحديدا بالدّهشة. قد نجد الحلّ في الكتاب 11

(2) الخائف من فتور: sobrietas يستخدم أبوليوس نفس الكلمة الّتي ترجمناها في 5: 3. بالرّزانة.

(3) عاد إلى عاداته السّابقة: ad armillum redit حرفيّا عاد إلى قارورته، أو قدحه.

ليوبتر* العظيم وقدّم ملفّ الادّعاء. إذّاك أمسك يوبتر* وجنة كوبيدون* وقرّبها بيده إلى فمه فلثمها وقال: × "مع أنّك يا بنيّ لم تراع أبدا حرمة الشّرف المسلّم لي به من الآلهة بل أثخنت برشقاتك المتلاحقة قلبي مقرّ قوانين العناصر وقوى العالم العلويّ وأخزيتني بمغامرات غراميّة متكرّرة مع إنسيّات؛ × وآذيت سمعتي ومقامي بفضائح زنا شائنة مخالفة للقوانين بما فيها قانون يوليوس* وللنّظام العامّ، ماسخا طلعتي المهيبة إلى كائنات رذلة، من ثعابين ولُهب وسباع وطيور وبهائم مبتذلة(1) ؛ × سأذكر حِلمي وأنّك بين ذراعيّ هاتين نشأتَ، فأنجز كلّ ما طلبتَ، شرط أن تعرف كيف تتّقي شرّ خصومك، وإن تكن على الأرض غادة ذات جمال باهر أن تكافئني بها على جميلي الحاضر."

6-23 يحيا العدل!

وأمر مركوريوس* باستدعاء كلّ الآلهة حالا إلى مؤتمر، منذرا من يتخلّف عن الاجتماع بغرامة قدرها عشرة آلاف درهم؛ فامتلأ، للخوف من الغرامة، مسرح السّماء، وأعلن يوبتر* من فوق عرشه الرّفيع: (2) "أيّها الآلهة المسجّلون(3) في لوح ربّات

(1) مسخ يوبتر نفسه إلى كائنات خسيسة: ثور مع يوروبة ومع ديميتير؛ ثعبان مع ابنته منها برسيفونة؛ حصان مع دية، بجع مع ليدة، نسر مع إيجينة، وقواق مع هيرة، شذرات ذهبيّة مع دناية...ومن الإنسيّات اللّائي غوى: ألكمينة ودناية وإلكترة ويوروبة وليدة ونيوبة وإيجينة وسيميلة وكاليستو ويو وماية...

(2) أيّها الآلهة المسجّلون: محاكاة ساخرة لصيغة الخطب في مجلس الشّيوخ: في الأصل "والمسجّلون": الآباء من الأشراف والمسجّلون أعضاء من الشّعب أضيفوا بإصلاحات دستوريّة منذ آخر القرن 6 ق م. ونجد عبارات هزليّة شبيهة في حوار "مجلس الآلهة" للكاتب السّوريّ السّاخر لقيانوس السّاموساطيّ.

الفنون*. كلّكم بلا شكّ تعرفون هذا الغلام الّذي غذّيته بيديّ؛ لقد رأيت من اللاّزم كبح نزوات المراهقة المضطرمة في دمائه؛ كفى ما يتردّد عنه يوميّا من المخزيات، من زنا وشتّى المذمّات. لا بدّ من سدّ ذرائع الفحشاء وتكبيل فجوره النّزق بقيود الزّواج؛ لقد اختار فتاة وافترعها: فليستحللها ويحتفظ بها إلى الأبد وينعم بهواه في حضن بسيشية." والتفت إلى فينوس* قائلا: "أمّا أنت يا ابنتي، فلا تبتئسي ولا تخشي على مقامك وشرف أسلافك من هذا القران بإنسيّة فسأجعله زواجا متكافئا وشرعيّا ويطابق القانون المدنيّ." وأمر فورا مركوريوس* بأخذ بسيشية وإحضارها إلى السّماء؛ فمدّ إليها بكوب من رحيق الآلهة وقال: "خذي يا بسيشية، والحقي بالخالدين، ولن يهجر كوبيدون* بعد اليوم مضجعك أو يفلت من رباطك، بل سيبقى زواجكما إلى الأبد."

6-24 حفل زفاف في السّماء

في الحال التأم حفل الزّفاف وعجّ بالآلهة: فبدا العريس مستلقيا على تخت عال محتضنا بسيشية، وكذلك يوبتر* مع زوجته يونون* ثمّ كلّ الآلهة حسب التّرتيب. سكب ليوبتر* ساقيه الفتى الرّاعي كوبا من الرّحيق المختوم خمر الآلهة بينما راح باخوس* يدير على الآخرين كأس المدام وانكبّ فلكانوس* على طهي الطّعام. وراحت آلهات الفصول* يخضّبن كلّ شيء بدثار أرجوانيّ من الورد وشتّى الزّهور وآلهات الرّواء* يرششن الطّيب وآلهات الفنون* يغنّين بأعذب الألحان؛ وعزف أبولّون* على قيثارته، ورقصت على أنغام الموسيقى فينوس* في ارتخاء وتخويد، بخطو

موقّع كالنّشيد؛ وقد رتّبت العرض بنفسها فكانت ربّات الفنون* يغنّين في فرقة، وعفريت الغابة* ينفخ في مزماره، وجنّيّ الرّعاة* ينفث في شبّابته أعذب الأنغام. هكذا صارت بسيشية وفق السّنن في عصمة(1) كوبيدون*؛ وحملت ووضعت بنتا ندعوها فولبتاس*(اللّذّة)(2).

6-25 أسلاب جديدة

ذلك ما روت للأسيرة الحسناء تلك العجوز الخرفة الثّملة؛ أمّا أنا، فمكثت غير بعيد، متحسّرا ألاّ أجد لوحا وإزميلا فأكتب تلك القصّة الرّائعة. في تلك الآونة وصل اللّصوص محمّلين بالغنائم بعدما خاضوا على ما بدا لي معركة ضروسا، وبدا بعضهم يرغبون في الانطلاق فورا تاركين الجرحى في الكهف لتضميد

(1) العصمة: manus سلطة الزّوج المطلقة كسلطة الأب potestas patria اختفت في عصر أبوليوس.

(2) اجتماعات الآلهة: موضوع تناوله أدب وميثولوجيا اليونان والرّومان وتأثّر بأبوليوس في القرن 5 الكاتب الإفريقيّ مرتيانوس كابلاّ الّذي كتب "زواج مركوريوس وفيلولوجية". وقد يصعد بعض البشر إلى السّماء ويلتحقون بمصافّ الآلهة بعد موتهم: كرومولوس أو الأباطرة، أمّا في الحياة فقلّما يصعدون- كما في "حلم شبيون الإفريقيّ" من جمهوريّة شيشرون- وإنّما يوحي إليهم الآلهة أو يظهرون لهم. ونجد في الدّيانات السّماويّة الثّلاث فكرة صعود بشر إلى السّماء: مثلا إدريس/ أخنوخ: تكوين 5. إلياس/إيليّا: الملوك2 2. موسى وهارون وشيوخ بني إسرائيل: خروج 24. ميخا: ملوك1 22. أشعيا: 6. حزقيال: 1؛ يسوع: لوقا 24 وأعمال الرّسل 1 (الأناجيل الأخرى لا تذكر ذلك). يوحنّا: رؤيا 4. بولس: كورنتوس2 12؛ وذكر القرآن صعود محمّد صلّى الله عليه وسلّم: الإسراء 1 وعيسى 4: 158 وإدريس 19: 57-

قصّة بسيشية وكوبيدون: تحتوي لا شكّ على كثير من عناصر الميثولوجيا والحكايات الشّعبيّة: البنت المقدّمة لوحش، غيرة الإخوة، انتصار عاشقين بعد امتحانات، الزّوج الملغز، الفضول المهلك... وقد يكون لها مضمون فلسفيّ أفلاطونيّ: صعود بسيشية رمز لعودة النّفس إلى محلّها الأرفع عبر رياضات. وتشبهها قصّة بارتنويبوس دي بلوا الفرنسيّة (أواخر القرن 12).

جراحهم لجلب الرّزم الباقية المخفاة في مغارة حسب كلامهم. التهموا غداءهم بعجل وساقوني مع حصاني إلى الطّريق لحمل تلك الأمتعة موجفين بالعصيّ. قادونا عبر عدّة مرتفعات ومنعرجات ومع المساء وصلنا إلى كهف سرعان ما أعادونا منه محمّلين بأثقال لا تحصى دون إعطائنا أدنى مهلة لنستريح؛ كانوا في عجلة واضطراب شديد حتّى أنّهم من ضربهم المتواصل ودفعهم أوقعوني على حجارة تنتصب على قارعة الطّريق. فأرغموني بوابل من الضّربات الموجعة أن أنهض متثاقلا وقد أصابني بالسّاق اليمنى والحافر الأيسر أذى شديد.

6-26 لوقيوس يفكّر في الفرار

انبرى أحدهم: "حتّام نعلف سدى هذا البرذون الكليل الّذي صار يظلع فوق ذلك؟" وقال آخر: "إنّا وحقّ السّماء مذ وطئت قوائمه النّحسة بيتنا لم نكسب مغنما ذا بال ولم ننل غير الجراح وموت أبطالنا الأقحاح." فعلّق ثالث: "ثقوا أنّي، حالما يوصل مرغما هذه الأحمال، سألقي به من علٍ طعاما مريئا للعقبان." ومضى أسيادي الرّحماء يتناقشون حول مهلكي؛ وما هي إلاّ ساعة حتّى وصلنا إلى الكهف، فقد جعل الخوف حوافري أجنحة خفافا. وضعوا عنّا أوزارنا بعجل، ودون اهتمام بسلامتنا ولا حتّى بمهلكي، طلبوا رفاقهم الجرحى الّذين بقوا هناك السّاعة، ثمّ عادوا لحمل بقيّة الأسلاب بأنفسهم، متأفّفين على حدّ قولهم من بطئنا. لكنّ هاجسا غير يسير بات يعذّبني لتفكيري بالموت الّذي يهدّدني؛ فقلت لنفسي: "لِم تقف بلا حراك يا لوقيوس، أيّ جديد تنتظر؟ لقد أعدّ لك هؤلاء اللّصوص شرّ ميتة. ولا

يتطلّب الأمر منك كبير مشقّة: أترى هذه الصّخور قريبا، وهذه النّتوءات المدبّبة الّتي ستشكّك فتذروك إربا قبل أن تقع على الأرض؟ لقد أعطاك سحرك الرّائع شكل الحمار ومتاعبه لكن مع بشرة برهافة غشاء العلقة؛ فلِم لا تشدّ عزمك وترتئي لك في نجاتك حيلة، ما دام الأمر ممكنا؟ لديك الآن فرصة رائعة للفرار، ما دام اللّصوص بمنأى؛ أتخشى حراسة تلك العجوز الفانية، وأنت تستطيع بلبطة واحدة من ساقك العرجاء الإجهاز عليها؟ لكن أين المفرّ، ومن سيقدّم لك المأوى؟ أيّ سخف هذا وتفكير حميرا! إذ أيّ مسافر لا يأخذ معه مطيّة سائبة؟"

6-27 محاولة فرار

في الحال وبجهد جبّار قطعت الزّمام الّذي كان يربطني وهممت بإطلاق الأربع للرّيح؛ لكنّي لم أستطع الإفلات من عيني تلك العجوز الدّاهية الأمضى من عيون البزاة؛ لمّا رأتني طليقا، استجمعت شجاعتها بعزم لا يوجد في جنسها وسنّها، فأمسكت اللّجام تحاول أن تُركسني إلى مربطي. لكنّي ذكرت الهلاك الّذي يعدّ لي اللّصوص، فلم تأخذني بها رأفة، وبوابل من الرّمحات من قائمتيّ الخلفيّتين طرحتها أرضا. غير أنّها رغم جثوّها على الأرض تشبّثت بالزّمام بعناد، فتبعتني في اندفاعي جرّا مسافة ما؛ وشرعت فورا تولول بأعلى صوتها طالبة عون يد أقوى. لكن عبثا مضت بعويلها تثير تلك الضّجّة، إذ لم يكن يوجد أحد قادر على مساعدتها سوى الفتاة الأسيرة، ^ الّتي أيقظها الصّياح فهرعت تستطلع جليّة الأمر، لترى مشهدا لعمري جديرا بالذّكر على مدى الدّهر: درخية* جحمرشا يجرجرها حمار

بدل الثّور؛ وبعزم الرّجال صنعت في المقام خير الفعال: × انتزعت من يديها الزّمام، وبهينمات رقيقة ثنتني وامتطتني بسرعة واستحثّتني لأعود إلى الرّكض.

6-28 فرار الأسيرة

أمّا أنا فبرغبة تلقائيّة في الفرار وتحرير الفتاة، وكذلك بتأثير زخّات بين فينة وأخرى من النّخسات، انطلقت أربع بالأربع خيرا من الخيل، محمحما محاولا أن أردّ على الفتاة بكلمات رقيقات. لكنّي كنت أحيانا أدير عنقي متظاهرا بالرّغبة في حكّ ظهري فألثم قدميها الصّمعاوين؛ ثمّ إنّها تنهّدت من الأعماق وولّت شطر السّماء وجها مهموما، ودعت: × "يا آلهة السّماء أعينوني على نكباتي. وأنت أيّها الحظّ كفاك وحشيّة، وحسبك ما أعاني من العذابات؛ وأنت يا منقذ حرّيّتي وحياتي، إن توصلني سالمة إلى بيتي وتعدني إلى أبويّ وخطيبي وقرّة عيني، فكم سألهج بحمدك، وكم سأعزّك، وكم سأجزل لك المآكل(1). سأبادر إلى مشط لبدتك بفنّ وتزيينها بما لديّ من حليّ العذارى، وسأفرق ناصيتك الشّعثاء بذوق وتأنّق، وسأصقل بكلّ عناية هُلْب ذنَبك الجعد المتلبّد من قلّة الغسل. وسأزوّقك بخرز من الذّهب لتشعّ كما تشعّ نجوم السّماء وتختال وسط بهجة الجماهير وهتافهم، وسأحمل لك يوميّا يا منقذي في مخلاة من الحرير المفتّقةَ وأصناف المكسّرات هنيئا مريئا!

6-29 لكلّ شيء إذا ما تمّ نقصان

لكنّك وسط المآكل اللّذيذة والرّاحة الهنيئة والنّعيم المقيم،

(1) فكم سألهج...المآكل: perhibebo/habebo/exhibebo سجع.

لن تُحرم كذلك من التّقدير والتّكريم. فسأخلّد ذكرى سرّائي الحاضرة وعون عناية الآلهة، وأخصّص لفرارنا هذا صورة مرسومة على لوحة أنصبها في بهو بيتي. فتُرى وتُسمع من رواة الأخبار وتخلّد بأزاميل الأدباء الكبار قصّة "الأميرة الفارّة من الأسر على ظهر الحمار." وستتبوّأ من جهتك مكانا بين عجائب وخوارق الأقدمين. وسنصدّق، قياسا على مأثرتك، رحلة فركسوس* على ظهر الكبش، وأريون* على متن الدّلفين وأوروبّة* النّائمة على صهوة الثّور. وإن اتّخذ يوبتر* حقّا شكل عجل ذي خوار، فلا يستبعد أن يختبئ وجه إنسان أو صورة إله في حماري." وبينما الفتاة مستغرقة في هذه الخواطر مخلّلة مناها بالزّفرات، وصلنا إلى مفترق طرق؛ فأمسكت بالخطام محاولة بإصرار توجيهي يمينا، ربّما لأنّ تلك هي الطّريق إلى بيت أبويها. وأنا لعلمي أنّ اللّصوص سلكوها من قبل لجلب ما تبقّى من غنائمهم، أمانع بعناد وأحتجّ في نفسي بصمت: "ماذا تفعلين أيّتها الفتاة الشّقيّة؟ وماذا تريدين؟ لِم تتعجّلين الشّخوص أمام أركوس*؟ ماذا تنوين أن تفعلي أيّتها الشّقيّة بأرجلي؟ إنّك لا تسعين فقط إلى حتفك، بل إلى هلاكي مثلك." هكذا لبثنا ننزع كلٌّ في اتّجاه، ونتنازع(1) كما في قضيّة ترسيم حدود لملكيّة أرض، أو بالأحرى مشى عند تقاسم تركة، وإذا بأصحابنا اللّصوص المحمّلين بغنائمهم يبغتوننا، ومن بعيد على ضوء القمر يتعرّفوننا، وبضحكة خبيثة يحيّوننا.

(1) ننزع/نتنازع: tendentes/contendentes جناس مطلق.

6-30. عدنا والعود أحمد

ابتدرنا واحد من الفريق: "أين تقصدان بالسّرى بكلّ هذا العجل على هذه الطّريق؟ ألا تخافان الأشباح والأرواح الهائمة في وحشة هذا اللّيل العميق؟ وأنت أيّتها الآنسة الفضلى، لعلّك تتعجّلين لزيارة أبويك؟ لكن لا عليك، سنقدّم لك أنيسا لوحدتك، وسندلّك على المسلك المختصر إلى أسرتك." وأردف القول بالفعل ممسكا زمامي، فولّيت الدّبر، ولم يبخل عليّ بالضّربات المألوفة من عصا عجراء كان يحملها. عندها ذكرت وأنا أعود رغم أنفي إلى هلاك وشيك ألم حافري فأخذت أظلع مدلدلا رأسي. فانفجر صاحبي الّذي أنكصني على عقبي: "تبّا لك! ها قد عدتَ تترنّح وتتعثّر، وأرجلك النّخرة القادرة على الفرار لا تعرف المسير؛ قبل لحظات كنت لعمري تبزّ سرعةً بيغاسوس* المجنّح(1)." واستمرّ صاحبي اللّطيف يمازحني، ممسّدا بالعصا بدني، حتّى وصلنا إلى أطراف سياج بيتهم؛ فلاحت لنا تلك العجوز تتدلّى بحبل من على فرع سروة. أنزلوها فورا وألقوا بها على حرف الجُرُف مشنوقة بحبلها، ثمّ أسرعوا إلى الفتاة فشدّوا وثاقها، مفرّقين أطرافها، وانقضّوا كالوحوش على الطّعام المعدّ لهم من العجوز الشّقيّة بتفان تجاوز حدود المنيّة.

6-31 بغير وكس ولا اشتطاط

شرعوا وهم يلتهمون الطّعام بشراهة يتشاورون حول عقابنا وثأرهم منّا؛ وكما يحدث في اجتماع مائج تنوّعت الأحكام، فمن

(1) تبزّ سرعةً بيغاسوس المجنّح: pinnatam Pegasi vincebas celeritatem مجاز مرسل.

قاض بإحراق الفتاة، إلى مشير برميها إلى وحوش الفلاة، وثالث دعا إلى صلبها، ورابع حكم بتقطيع أوصالها بدولاب التّعذيب. لكنّهم، على أيّة حال، أجمعوا كلّهم على إعدامها؛ إذّاك انبرى أحدهم، فهدّأ ضوضاءهم ثمّ أنشأ يقول بلهجة رزينة: × "لا يوافق نظامَنا الأساسيّ جماعيّا، ولا نزعةَ الرّحمة فينا فرديّا، ولا كذلك اعتدالي أنا شخصيّا أن تتعدّوا الحدّ المناسب للجريمة، فتقضوا على هذه الفتاة بالإعدام رميا للسّباع أو صلبا أو حرقا أو تمزيقا أو أيّة طريقة تعجّل بظلمة المنيّة. الرّأي عندي، إن شئتم اتّباع نصحي، أن توفّروا للفتاة حياتها، شرط أن تكون الحياة الّتي هي أهل لها؛ ولا يغيب قطعا عن ذاكرتكم ما قرّرتم قبل قليل بشأن ذاك الحمار الكسول دوما والأكول أكلا لمّاً، المتظاهر الآن بالزّور بالعجز والخوَر، وكان لفرار الفتاة قبل حين خير شريك وأفضل معين. لذا يحسن ذبحه غدا وتفريغ أحشائه، ودمق الفتاة الّتي آثرها علينا عارية باطنه والخياطة عليها. بحيث لايبرز منها سوى رأسها، ويُحشر في جوف الدّابّة باقي جسمها. ثمّ عرض الحمار محشوّا ومخيطا فوق صخرة مسنّنة وتركه للظى الشّمس المحرقة.

6-32 إنّ غداً لناظره قريب

بهذا النّحو يلقيان معا كلّ العقوبات الّتي قضيتم بها: الحمارُ الموتَ الّذي يستحقّ منذ زمان؛ وهي نهش الوحوش حين تنخر الدّيدان أعضاءها، وحرق النّار حين توقد الشّمس بأوارها جوفها، وعذاب الصّلب حين تنوش الكلاب والعقبان أحشاءها. والآن عدّوا معي بقيّة الويلات والمُثلات: ستسكن حيّةً بطن

جيفة، ويزكم منخريها فرثها النّتن، وتتحلّل من طول الطّوى. ولن تستطيع حتّى قتل نفسها بيديها الطّليقتين." لدى الاستماع إلى هذه الأقوال وافق اللّصوص بالإجماع، لا بأقدامهم^ بل بكلّ أجسامهم، على هذا الحكم الّذي التقطته بأذنيّ الكبيرتين، فأخذت أبكي- وهل كان لي سوى الدّمع؟- جثّتي الّتي إليها أؤول من الغد.

الكتاب السّابع

7-1 تقرير صحفيّ مثير

ما إن طلع النّهار مبدّدا ظلمة اللّيل وأضاءت مركبة الشّمس السّاطعة كلّ شيء حتّى أتى بغتة واحد من عصابة اللّصوص: ذاك فعلا ما يدلّ عليه تبادل مجاملات السّلام بينهم. جلس القادم في مدخل الكهف لاهثا، وبعدما التقط أنفاسه، أبلغ المجموعة هذا التّقرير. "بخصوص بيت ميلون الهيباتيّ* الّذي نهبناه مؤخّرا يمكننا الآن الاطمئنان، ولا داعي للخوف بعد. فإثر عودتكم إلى معسكرنا بعد أخذ كلّ ما فيه بفضل بأسكم الشّجاع، اختلطتُ بمجموعات السّكّان المتجمهرين. ورحت أستخبر متظاهرا بالرّثاء والاستنكار عن القرار الّذي اتّخذ بشأن التّحقيق حول الحادث، وإن كان هناك اتّجاه، وإلى أيّ مدى، نحو تتبّع اللّصوص، وهأنذا جئت أخبركم بكلّ التّفاصيل كما طلبتم. باتّفاق الجميع، لا بناء على قرائن ظنّيّة بل على مبرّرات راجحة، يُشتبه في شخص يدعى لوقيوس، كمرتكب الجريمة البيّن. فقد تمكّن قبل أيّام برسالة توصية مزيّفة إلى ميلون وبالظّهور عنده بمظهر الرّجل الفاضل من استمالته وتوثيق صلته به × إلى حدّ

استضافته، واعتباره من الخلصاء والمقرّبين؛ فلبث هناك عدّة أيّام وبحبّ متصنّع خلب لبّ خادمة ميلون، وتفحّص بدقّة أقفال الباب، وتجسّس بعناية على الأماكن الّتي اعتاد مضيّفه إخفاء أمواله فيها.

7-2 قرائن مورّطة

ويظهرون دليلا قويّا يدينه أنّه فرّ في نفس ليلة وساعة الجريمة تحديدا ولم يظهر مذّاك في أيّ مكان، وكان قد يسّر لنفسه وسيلة للفرار والابتعاد سريعا عن مطارديه باطّراد، إذ جلب معه حصانه الأبيض لامتطائه. وقد وجدوا خادمه الّذي كان معه في بيت مضيّفه، وأمر القضاة بحبسه ليعطي معلومات على جرائم وخطط سيّده؛ ومن الغد استُجوب تحت التّعذيب وشتّى الأشكال حتّى كاد يموت مقطّع الأوصال. لكنّه لم يبح بشيء؛ مع ذلك بعثوا رسلا إلى بلاد لوقيوس ذاك للبحث عن المتّهم قصد معاقبة الجرم." كنت وهو يروي ذلك أتألّم في داخلي مقارنا النّعيم السّابق ولوقيوس الأمس السّعيد بالشّقاء الرّاهن وحمار اليوم التّعيس، ويجول بخاطري أنّ حكماء الماضي ما اعتبطوا لمّا تمثّلوا وتصوّروا ربّة الحظّ عمياء بل بلا عينين تماما. هي الّتي توزّع دوما خيراتها على الأشرار ومن لا يستحقّونها ولا تصطفي بأدنى تبصّر أيّا من النّاس بل تصاحب تحديدا من لو أوتيت بصرا لكان عليها أن تفرّ منهم بعيدا. والأدهى من كلّ ذلك أنّها خصّتنا بسمعات غير مطابقة بل مضادّة تماما للحقيقة، إلى درجة أنّ الشّرّير يفخر بسمعة الخيّرين بينما يعاقَب البريء على فعال المجرمين.

7-3 مرافعة رائعة

وأنا الّذي جعل منّي خبطها الوحشيّ بهيمة ومن أدنى فئات ذوات الأربع، وتبدو حالي بحقّ، حتّى لأقسى النّاس جديرة بالرّأفة والرّثاء، يُشتبه فيّ بجريمة سرقة ضحيّتها مضيّفي العزيز عليّ. وهي جريمة يدعوها أيّ من البشر لا سرقة فقط بل بتعبير أصحّ إحدى الكبر، ثمّ لم يكن بوسعي الدّفاع عن نفسي ولا حتّى إنكار التّهمة بكلمة واحدة. وكيلا يبدو سكوتي، وأنا أتّهم حضوريّا بتلك الجريمة النّكراء، علامة على الرّضا واعترافا ضمنيّا بالذّنب، عزمت بعدما ضقت ذرعا بتلك التّخرّصات على أن أقول: "ما فعلتُ". وبالفعل جلجلت باللّفظة الأولى أكثر من مرّة وبنحو ناب لكن تلجلجت بالتّالية ولم أستطع إلى نطقها سبيلا بل بقيت في المقطع الأوّل وشحجت عدّة ماءات جهار رغم مدّ مشفريّ المتهدّلين وترعيشهما وتدويرهما. لكن لِم إطالة شكواي من رعونة الحظّ وهو لم يتورّع عن جعلي لخادمي ومطيّتي، حصاني ذاك، قرينا ورفيقا في العبوديّة؟

7-4 تحوّل تكتيكيّ

كان يراودني، وأنا نهب هذه الخواطر، هاجس آخر أقوى. إذ لم أنس عزم اللّصوص على نحري وجعلي لروح الفتاة مثوى. فأراني وأنا مرّة تلو أخرى، أرنو إلى بطني بنظراتي الحزينة، بتّ حاملا بالفتاة المسكينة. لكنّ اللّصّ الّذي كان ينقل السّاعة عليّ تلك الإشاعات الكاذبة ما لبث أن أخرج ألف مثقال* من طيّ ردائه، ذكر أنّه استولى عليها من شتّى المسافرين وهو لأمانته يحيلها

إلى خزينتهم المشتركة. ثمّ أخذ يسأل ببالغ الاهتمام عن سلامة رفاقه، بعدما أخبروه بأنّ بعضهم بل خيارهم لقوا حتفهم بطرق شتّى لكن ببسالة الأبطال في كلّ الأحوال. أشار عليهم بأن يدَعوا الأمن يستتبّ على الطّرق لمدّة معيّنة، ويتوقّفوا عن كلّ المعارك ملتزمين بهدنة، يستغلّونها للبحث عن أقران ويعيدوا تنظيم صفوف كتيبتهم لتستردّ سالف عددها بمجنّدين جدد شبّان. يمكنهم في سبيل ذلك إجبار الكارهين بالتّرهيب وحفز المشتهين بالتّرغيب بمكافأة مغرية، وما بقلّة من سيؤثرون التّخلّي عن حياتهم الوضيعة الذّليلة والانضمام إلى فريقهم، مثال السّؤدد والبطولة. وهو من جهته لقي مؤخّرا فتى في ريعان الشّباب فارع القوام عريض البنية فاره اليد ظلّ ينصحه حتّى أقنعه في النّهاية باستخدام قواه الّتي بلّدها طول الجمام في عمل مثمر أفضل والاستفادة من نعمة صحّته الجيّدة ما دام يسعه أن يفعل، × والامتناع عن مدّ يده الصّحيحة لاستجداء الدّوانيق، واستعمالها بالأحرى في لمّ الذّهب بالصّناديق.

7-5 لصّ محنّك

صادق الجميع على أقواله وقرّروا قبول المرشّح الّذي بدا مرضيا من وصف صاحبهم، والبحث عن آخرين لاستكمال عددهم. فانطلق وعاد بعد برهة يصطحب شابّا قويّ البنية كما وعد. لا أدري بمن من الحضور يمكن مقارنته، إذ يفوقهم كلّهم قامة بمقدار رأس، وقد بدأ زغب غضّ يطرّ سارحا على عذاريه. كان نصف مكسوّ ببساطة بخِلق متباينة لُفّقت بنحو سيّء يلتمع من خلالها صدره وبطنه بارزين من البدانة. دخل في هذه الهيئة

وقال: "حيّيتم، موالي الإله الباسل مارس*، ورفاقي المخلصين منذ هذه اللّحظة: فاقبلوا بينكم راضين من أتاكم راضيا يزخر همّة وحيويّة، يفضّل تقبّل الجراح بجسمه على تلقّي(1) الذّهب بيده، ويجعله الموت الّذي يرهبه الآخرون أكثر حماسا. لا تحسبوني معوزا أو خسيسا ولا تحكموا على شيمي من هذه الأطمار؛ فلقد قدت فيما مضى كتيبة شديدة البأس ونشرت الدّمار في مقدونية بأسرها. أنا اللّصّ الشّهير هيموس التّراكيّ* الّذي ترجف لاسمه الأقاليم من الذّعر، ابن اللّصّ المشهور مثله ثيرون* الّذي غذّاني بالدّم البشريّ في الصّغر، وربّاني بين فصائل سريّته. نعم أنا نجله وريثُ وقِرْنُ شجاعته.

7-6 امرأة كألف

لكنّي فقدت كلّ ذلك العدد العديد من الرّفاق الصّناديد، وكلّ ذلك المال الممدود، في زمن جدّ محدود؛ فقد هاجمتُ وكيلا أميريّا كان يتقاضى مائتي ألف درهم قبل إقالته وفقدان حظوته عندما مرّ، مثيرا على نفسي سخط يوبتر*؛ لكن سأروي الوقائع بالتّرتيب لتعلموها. كان ببلاط قيصر رجل معروف بعديد الخدمات يحظى باعتبار خاصّ لدى الامبراطور بالذّات. فأخرجه حسد حاقد من نعمته إلى المنفى بوشاية بعض العدا؛ لكنّ زوجته، وهي امرأة تدعى أفلوطينة* نادرة المثال في العفّة والوفاء شادت لزوجها أسرة قوامها عشرة من الأبناء، صاحبته إلى المنفى لتشاركه في الضّرّاء، معرِضة عن حياة المدينة

(1) تقبّل/تلقّي: suscipientem/excipientem جناس مطلق والفعل الأوّل يتضمّن فكرة المشقّة.

المرفّهة وملاذّها ومستخفّة بها. قصّت شعرها وتنكّرت في زيّ الرّجال ودسّت في زنّارها ثرواتها من المسكوكات الذّهبيّة وأنفس مجوهراتها، ودخلت في صفوف الكتيبة المرافقة ذاتها، مشاركة بإقدام في كلّ الأخطار، ساهرة على سلامته باستمرار، مجابهة الويلات المتواصلة بعزم الرّجال. بعد مكابدة العديد من مشاقّ البرّ وأهوال البحر، بدأت تتوجّه نحو جزيرة زاكنتوس* الّتي قضى القدر المحتوم بأن تكون مقام زوجها المؤقّتَ.

7-7 نهاية عصابة هيموس

رست سفينتهم على ساحل أكتيوم* حيث كنّا نعمل إذّاك بعدما بارحنا مقدونية، فنزلوا وقد جنّ اللّيل بحانة تقع قريبا من الشّاطئ والسّفينة للنّوم وتجنّب اللّجّة؛ فهجمنا عليهم وسلبنا كلّ ما لديهم؛ وانصرفنا لكن مواجهين خطرا غير مهين، إذ لم تكد تلك المرأة تسمع قرقعة الباب حتّى هرعت إلى وسط الغرفة قالبة بصراخها الدّار على ساكنيها، مستغيثة بالجنود وتابعيها كلّ باسمه بل وبالسّكّان الجاورين؛ ولولا ذعر الجميع الّذين لبدوا خائفين، كلّ على نفسه، لما تمّ لنا أن ننسحب سالمين. إلاّ أنّ تلك المرأة الفضلى، والحقّ لا بدّ أن يقال، نادرة المثال في وفائها والمحمودة بكريم فعالها وجّهت التماسا إلى قداسة قيصر المبجّل، وحصلت منه على أن يعود زوجها في القريب العاجل، ويُثأر لها من اعتدائنا بالكامل. هكذا شاء قيصر أن تزول عصابة اللّصّ هيموس، فزالت في الحال؛ أجلْ، على مثل ذلك تقدر إشارة من أمير بذلك الجلال؛ فعلاً سحق فيلق من خيرة المحاربين فرقتنا وتعقّب فلولها وأبادها وانسللت وحدي بأجهد الجهد ناجيا بهذا النّحو

من بلعوم أركوس* المردي.

7-8 نجاة بأعجوبة

التفعت برداء نسائيّ ذي ألوان زاهية وجيوب كثيرة واسعة، وغطّيت رأسي بخمار من القماش، وانتعلت حذاء نسائيّا أبيض رقيقا، وركبت متخفّيا بهذا النّحو في زيّ الجنس الأدنى على حمار يحمل حزمة من سنابل الشّعير؛ وعبرت وسط صفوف الجند المتنمّرين الّذين أفسحوا لي، ظنّا أنّي امرأة حمّار، كلّ المعابر، فقد كان خدّاي الأمردان يومئذ يتألّقان بسنا الصّبى النّاضر. بيد أنّي لم أحد عن مجد والدي ولا صيتي الشّخصيّ: سرت متوجّسا في خفارة زيّي التّنكّريّ، محاذيا سيوف الجند المصْلَتة ومع ذلك غشيت بمفردي عددا من الضّياع والقرى فتزوّدت منها بما تيسّر"؛ وفتح أسماله في الحال، ناثرا ألفي مثقال. وقال: "بطيب خاطر أقدّم للفرقة هذه الهديّة أو المهر بالأحرى عربون حبّي، ونفسي، إن لم يكن لديكم اعتراض، قائدا جديرا بثقتكم، وإنّي لجاعل بيتكم الحجريّ هذا، في أقصر الآجال، من الذّهب.

7-9 عقاب أنسب لمحاولة الفرار

أسرع اللصوص بدون تردّد يولّونه أمرهم بالإجماع؛ وقدّموا له لباسا أليق ارتداه بأبّهة بعد خلع أطماره؛ بعد هذا التّحوّل عانق رفاقه فردا فردا، ونُصّب على أعلى متّكئ وأقيمت احتفالا بتأميره مأدبة صحبتها أقداح دهاق. علم من أحاديثهم بخبر فرار الفتاة على ظهري والميتة الفظيعة الّتي أعتدوها لنا: فسأل عن مكانها واقتيد إليه؛ رآها مكبّلة بالقيود فانصرف مقبّضا

عرنونه بامتعاض وقال: "ما أنا بأهوج أو سفيه لأنقضَ ما قرّرتم، لكنّي سأعاني من توبيخ ضميري إن أخفيت ما يبدو لي الصّواب عنكم. لكن امنحوني أوّلا ثقتكم بحرصي على مصلحتكم. ثمّ إنّ باستطاعتكم، إن لم ترق لكم أفكاري، أن تعودوا إلى الحمار. أرى شخصيّا ألاّ يقدّم لصوص عقلاء مثلكم على منفعتهم أيّ اعتبار، حتّى الثّأر الّذي طالما عاد على صاحبه بالضّرّ: إن أهلكتم فتاتكم داخل الحمار لن تزيدوا عن التّنفيس عن نقمتكم دون فائدة لكم. والرّأي عندي أن تأخذوها إلى المدينة وتبيعوها، فبسعر مغر تباع فتاة مثلها في ريّق العمر. وأنا شخصيّا أعرف منذ فترة بعض تجّار الجواري يمكن لأحدهم في اعتقادي أن يقني تلك الفتاة بثمن عال لا شكّ وكما تستحقّ فيسوقها بغيّا لبني بلده(1)؛ فلن تفرّ ركضا في البراري مرّة أخرى. ثمّ إنّها ستُمتهن في المبغى فتدفع لكم ثأركم كاملا؛ ها أنا أسديت النّصح لكم، وأنتم أولياء أمركم والقرار عائد إلى نظركم."

7-10 حكم الحمار على جنس النّساء

هكذا رافع عنّا وكيل الخزينة العامّة لجمعيّة اللّصوص، منقذ الفتاة والحمار الشّهم. لكنّ الآخرين أطالوا التّداول، فكان قلبي في انتظار قرارهم يتقلّى على الجمر، بل بلغت الرّوح التّراقي؛ أخيرا تبنّوا رأي اللّصّ الجديد، وخلّصوا الفتاة حالا من القيود.

(1) يقنيها بثمن عال لا شكّ وكما تستحقّ فيسوقها بغيّا لبني بلده: magnis equidem talentis praestinare condigne suis natalibus fornicem processuram التّالان عملة أتّيكيّة =6000 درهم ثمّة تلاعب لفظيّ إذ يمكن أن نفهم أيضا: "ذات المواهب الكبرى" باعتبار الجرّ ablativus نعتيّا لا أداتيّا و"يسوقها كما تستحقّ". وثمّة إيحاء بمعنى: "بما يناسب نسبها الرّفيع" لكنّ ضمير الملكيّة suis يخصّ الفاعل.

فلمّا رأت ذلك الفتى وسمعت ما ذكر عن تاجر الجواري والمبغى اهتزّت فرحا وانفجر ضحكها فداخلتني نقمة مشروعة على كلّ بنات جنسها. وأنا أرى تلك الفتاة الّتي كانت السّاعة تتظاهر بحبّ خطيبها الفتى والرّغبة في عفّة الزّواج الطّهور تبتهج لذكر الماخور والنّجاسة والفجور. كانت إذّاك ملّة النّساء بأسرها وأخلاقهنّ معلّقة بحكم حمار؛ بيد أنّ ذلك الفتى استأنف حديثه: "مادمنا عازمين على بيع الفتاة والبحث في نفس الوقت عن رفاق جدد فلِم لا نبادر بتوجيه ابتهالات إلى الإله مارس* وليّنا؟ لكن ليس عندنا، كما أرى، للتّضحية نَعَم ولا للشّرب خمر وافرة أو حتّى وافية. فابعثوا معي بعشرة منكم، يكفوني لأغير على أقرب حصن، فأجلب لكم منه ما يفي بإقامة وليمة ساليّة*!" وانطلق في نفر منهم، بينما أوقد الباقون النّار وأقاموا للإله مارس* مذبحا من عشب أخضر.

7-11 ومن خبر الغواني فالغواني ضياء في غياهبه ظلام

سرعان ما عاد الأوائل يحملون زقاق الخمر ويلفّون النّعم قطعانا؛ فاختاروا منها تيسا بالغا ودكا كثّ العثنون ليقدّموه لمارس* الصّديق والرّفيق قربانا، وأعدّوا فورا غداء مفتخرا. انبرى إذّاك مولم الوليمة: "أرجو أن تجدوا فيّ قائدا مقتدرا لا فقط لغاراتكم وغزواتكم، بل كذلك لأنسكم ولذّاتكم"؛ وراح يعدّ المأدبة بخفّة ويد فرهة. فكنس، ورتّب الخوان، وطها وحضّر أطباق اللّحم وصفّفها بفنّ، لكن طفق بالأخصّ يسقيهم فردا فردا أقداحا كبرى من الخمر تترى؛ بيد أنّه كان أثناء ذلك يتردّد، متظاهرا

بالذّهاب لإحضار ما تقتضيه الحاجة، على الفتاة فيقدّم لها ببشاشة حصصا من الطّعام سحبها خلسة من المأدبة وأكوابا من الشّراب مزّ منها قبلها. فكانت تأخذها بنهم وتَقبل قُبله العجلى كلّما شاء بين فينة وأخرى؛ وكان عبثهما يزعجني حقّا. "ويحك أيّتها الفتاة البكر، أنسيت زواجك ومن يحبّك وتحبّين، وعلى عريسك الّذي لا أعرفه والّذي اختاره أبواك شريك عمرك بالأمس القريب تؤثرين هذا السّفّاح الملطّخ بالدّم والغريب؟ أما تحسّين وخز ضميرك؟ أدست على عاطفتك واستطبتِ الدّعارة بين القنا والسّيوف؟ ماذا لو تفطّن بقيّة اللّصوص بنحو ما إلى ما بينكما؟ لعلّك ستلجئين إلى الحمار آنذاك، ومن جديد توردينني الهلاك؟ أنت يقينا بجلد غيرك تلعبين!"

7-12 خطّة ذكيّة

بينما أنا أردّد في داخلي مثل هذا التّنديد باستنكار شديد، التقطت بعض التّلميحات المريبة والّتي لا تخفى على حمار أريب. أدركت منها أنّه ليس اللّصّ الشّهير هيموس، وما هو سوى خطيبها تليبوليموس*. فقد قال مواصلا كلامه وبصوت أجهر، لامباليا بوجودي كما لو كنت ميّتا: "تشجّعي، حبيبتي خريطة* الحلوة، قريبا يكون كلّ أعاديك أسارى بين يديك." ثمّ عاد إليهم وقد لعبت المدام برؤوسهم، واستنفد الخُمار طاقاتهم، يترعهم خمرا صرفا غير مذيقة فترها قليلا لهم، ممتنعا هو نفسه عن الشّرب معهم. ولقد أثار حقًّا لديّ الشّكّ بأنّه خلط بأقداحهم مخدّرا، إذ كانوا كلّهم بلا استثناء يثوون مكفّنين بالخمر، كلٌّ أمواتا سواسية. عند ذلك وبمنتهى السّهولة شدّ

وثاقهم بإحكام، وقيّدهم وفق رغبته، ثمّ أركب فتاته على ظهري وساقني نحو بلدته.

7-13 موكب النّصر

لمّا وصلنا، خرجت المدينة كلّها لرؤية المشهد المرتجى؛ هرع للقائنا الأقارب والأصهار والموالي والصّبيان والخدم، والبِشْر يعلو وجوههم، والبهجة تفعم قلوبهم. فكنتَ ترى موكبا من كلّ جنس وعمر، ومشهدا جديدا لعمري وجديرا بالذّكر مدى الدّهر: فتاة في موكب نصر على عيْر. كنت في غاية الغبطة من جانبي(1) وحرصت على ألاّ أنشز عن الجوّ كغريب غير معنيّ، فمددت أذنيّ ونفخت خيشوميّ وأطلقت نهيقا عاليا بل كهزيم الرّعد مدوّيا. وبينما اقتيدت الفتاة إلى غرفتها حيث أقبل عليها أبواها بمحبّة يهدهدانها، أعادني تليبوليموس في جمع غفير من النّاس والدّوابّ في الحال، وأنا غير كاره، على أعقابي. إذ كنت إذّاك فضلا عن فضولي أودّ مشاهدة أسر أولئك اللّصوص؛ وبالفعل، داهمناهم وقد شدّت وثاقهم الخمر أكثر حتّى من قيودهم. استُخرجت كلّ الأخباء، فحُمّلنا الذّهبَ والفضّةَ وأثقالا أخرى؛ أمّا اللّصوص فقد دُحرج بعضهم مقيّدين كما كانوا إلى الصّخور القريبة وألقوا على شفا الأجراف، وتُرك الآخرون بعد قطع رؤوسهم بسيوفهم. ثمّ عدنا إلى المدينة فرحين مسرورين بهذا الانتقام؛ فأحيلت الأموال إلى الخزينة العامّة وردّت لتليبوليموس بالقانون الغادة المستعادة.

(1) من جانبي: pro virilem partem عبارة ذات إيحاء فاحش: "بجزئي الذّكريّ".

7-14 قرار تكريم حميدٌ...

مذّاك دأبت العروس على الاعتناء بي بمنتهى المودّة داعية إيّاي منقذها؛ حتّى يوم زفافها لم تنسني، وأمرت بملء معلفي شعيرا وإعطائي من الكلإ المجفّف ما يكفي بعيرا من بكتريانة*. مع ذلك كم كنت ألعن محقّا رقى فوتيس المشؤومة الّتي مسختني حمارا لا كلبا وأنا أرى كلّ الكلاب تحشو بطونها ببقايا وجبة وفيرة أو بما تلتقف اختلاسا. بعد ليلة واحدة تلقّت فيها نُتفا تمهيديّة من فنّ فينوس*، لم تكفّ العروس عن ذكر جمائلي لدى أبويها وبعلها حتّى وعدوا بإكرامي على الوجه الأكمل. دُعي أخيرا ذوو المشورة من الأصحاب فأعطوا رأيهم في الوجه الأمثل لمكافأتي بما يناسب فضلي؛ رأى أحدهم أن أُرجن بالبيت وأُعفى من كلّ عمل وأُسمّن بشعير منتقى وفول وبرسيم. لكنّ آخر أشار مراعاة لحرّيّتي وأقنعهم بأن يدعوني بالأحرى أمرح وأعبث في الحقول والمروج مع قطعان الخيل، لأنزو على الأفراس فأعطي مالكيّ من البغال شعبا طيّب الأغراس.

7-15 وتنفيذ أحمد

لذا دعوا فورا سائس الخيل وسلّموني إليه بعدما استوصوه بي خيرا؛ فرُحتُ أهملج أمامه فرحا وبشْرا، ورأيتُني أُعفيت من نقل الأكياس والأحمال المختلفة، وحصلتُ على الحرّيّة وواجدا مع بداية الرّبيع حتما بعض الورود بين المروج المعشبة. وكان يدور ببالي أنّهم ما داموا يخصّونني حمارا بكلّ هذا الحمد وهذه الأشراف العليّة، فسأكرَّم بأنعُم أجزل وأعظم عند تلقّي هيئتي

البشريّة. لكن بعدما اقتادني مربّي المواشي بعيدا عن المدينة، لم تتبع أيّة ملاذّ بل ولا أيّة حرّيّة؛ إذ بادرت زوجته، وهي امرأة حريصة وبذرة سوء، بارتهاني في النّاف لإدارة رحى طاحونة؛ فكانت لا تنفكّ تلطّني بعصا غير مشذوبة، معدّة على حساب جلدي الخبز لها ولأهلها. بل ما كان يكفيها إنهاكي لإعداد طعام أسرتها، فتطحن حنطة الجيران بتأجير دوراني المستمرّ لهم؛ ولقاء كلّ عملي لا تقدّم لي، يا للغبن، حتّى الأعلاف المقرّرة لي. فشعيري بعد قلْيه وطحنه بدوراتي تحت نفس الرّحى، كانت تبيعه للأجوار سكّان القرى، وبعد شدّي كامل النّهار إلى تلك الآلة المنهكة تحمل لي مع المساء، نخالة خشنة غير مغربلة مليئة بالحصى.

7-16 في ضيافة أبناء العمومة

سلّمتني ربّة الحظّ القاسية وأنا منسحق تحت تلك الرّزايا إلى أنكال جديدة لأفخر لا شكّ بمآثري وانتصاري الكامل بالدّاخل والخارج(1) كما يقال؛ فقد نفّذ صاحبي يوما وإن بتأخير أمر أسياده، وسمح بدمجي مع قطعان الخيل. هأنذا أخيرا حمارا طليقا سعيدا أنطّ مرحا، ثمّ أقترب متباطئا، نابضا بالشّهوة، لأتخيّر أنجب الأفراس حلائل لي؛ لكنّ تفاؤلي أوردني المهالك مرّة أخرى، وكاد يرديني. فالفحول المسرّحون في المرعى منذ أمد للسّفاد يرتعون حتّى الشّبع ويؤدكون من زمان، شداد البأس بطبعهم والأقوى لا شكّ من أيّ حمار. خشوا مزاحمتي وتهجين سلالتهم من زناي بنجائبهم فأخذوا، دون مراعاة قوانين

(1) مآثري بالدّاخل والخارج: domi forisque fortibus factis تجانس صوتيّ بحرف الفاء.

يوبتر* المضياف. يتابعون غريمهم بحقدهم المسعور. رفع أحدهم حيزومه العريض موتّرا فهدته، وانتصب عاليا، مشمخرّا بهامته، فوكزني بسنبكيه الأماميّين؛ واستدار لي آخر بردفه المتين المفتول العضلات فرمحني؛ وصهل ثالث متوعّدا، ممدّدا أذنيه إلى الخلف، مكشّرا عن صفّين من النّواجذ القاطعة اللاّمعة، وانهال عليّ عضّا. تماما كالّذي قرأتُ في قصّة عن ملك تراقيّ*(1) كان يقدّم ضيوفه التّعساء لخيله المتوحّشة فتمزّقهم وتفترسهم، ويقال إنّ ذلك الحاكم القويّ كان يُكدي في الشّعير، مقدّما لسدّ جوع خيله الشّرهة أجسادا بشريّة من باب التّوفير.

7-17 رفيق جديد

بنفس النّحو مُزّقتُ أنا الآخر بهجمات تلك الجياد المتنوّعة فبتُّ أطلب الرّحى والمدار؛ لكن لم يكف الحظّ ما لقيت من محن كبرى فأعدّ لي من جديد داهية أخرى. فقد أُرسلتُ لنقل حطب من الجبل، وكُلّف بي غلام هو شرّ الغلمان بلا جدل. فكما لو لم يكن يكفيني الإرهاق من صعوبة الصّعود إلى قمّة ذلك الجبل واهتراء حوافري من الاصطدام بالنّتوءات الصّخريّة، كنتُ فوق ذلك أطرّق بوابل من ضربات العصا المتتالية فتتغلغل أوجاعي من الكدمات فيّ حتّى النّخاع. وكان يوقع ضرباته دوما بفخذي اليمين، حتّى تقرّح جلدي من تتالي الضّرب على نفس المكان، وغار القرح فصار ثقبا، بل حفرة أو كوّة، وهو لا ينفكّ عن لطع الجرح

(1) الملك التّراقيّ: ديوميدس عوّد خيله افتراس الأجانب. قتله هرقل بطلب من يورست وحمل له الخيل.

النّازّ دما؛ وكان مع كلّ ذلك يُثقل ظهري بزنة من الحطب تخالها لضخامتها أُعدّت حمولة لفيل لا لعيْر. والأمرّ من ذلك أنّه كلّما أبهظ الحمل من جانب وأخذ في الميلان، عوض إنزال شيء من الحطب من الجانب الرّاجح المنذر بالتّداعي كما يفترض فيريحني إذ يخفّف قليلا حملي، أو نقل جزء منه إلى الجانب الآخر لتحقيق التّوازن على الأقلّ، يزيد أحجارا إلى الجانب المقابل معالجا بهذا النّحو اختلال الثّقل.

7-18 ملاذّ حياة الرّيف

ثمّ ما كان يكفيه، بعد كلّ أضراري، ثقل حمولتي المفرط، فكلّما عبرنا نهرا يتدفّق عرَضا عرْض طريقنا، يثب لحفظ مداسه من البلل على عجُزي ويركب ضغثا على إبّالة، وثقلا فوق ثقالة، وإن كان طفيفا لا محالة. وإن حدث أن زللت وأنا أرزح تحت وطأة حملي على حافّة الضّفّة المزلقة من الطّمي، وكبوت متهافتا إلى الأمام، فكان على سائسي الشّاطر مدّ يده وجذبي من رسني، أو شيْلي من ذيلي، أو على الأقلّ سحب جزء من حملي المفرط لأنهض، × يمتنع عن تقديم أيّ عون لي في عجزي. وبدءا بالرّأس بل بالأذنين، ينهال على كلّ مكان في جسمي بعصا غليظة فيُنهضني الضّرب كإكسير منعش. كذلك ابتكر لي هذه الحيلة المهلكة: لفّ أشواكا لاذعة الوخز سامّة الرّؤوس، برم عليها على شكل دبّوس، وربطها بذنَبي منخاسا متدلّيا شديد المضرّة، لتتحرّك إذا مشيت مسبّبة لي غزغزة مؤلمة بحُماها المردية.

7-19 حيلة طريفة وظريفة

فكنت أقاسـي منهـا أذى مزدوجا: إذا اندفعـت أعدو هربا من ضرباته الموجعة، أصابني من تسـارع الأشواك أشـدّ المضرّة، وإذا تباطأت قليـلا لاجتناب تلك الأذيّـة، أعادني الضّـرب مكرها إلى الهرولة. هكذا لم يكن لذاك الغلام المتوقّد شـرّا من شغُل، كما يبدو، سوى السّعي في هلاكي بكلّ السّبل، بل أكثر من مرّة آلى ليوردنّني الرّدى. وبالفعل تسنّى له مرّة أن يدفع مكرَه إلى محاولة أدهـى، إذ عيل صبري يوما من فرط اضطهاده، وأزجيت له رمحات شدادا؛ فابتدع للإيقاع بي هذه المكيدة. حمّلني رزمة من المشاقة ربطها عليّ جيّدا بحبل، ثمّ سـاقني علـى الطّريق، فاختلس من ضيعة قريبة جذوة متّقدة وضعها وسـط الحمل. فما تلبث النّار أن تحمـى مغذّاة بـذاك الوقـود الدّقيق، وتثجّ ألسـنة مارجة من اللّهب ويشـبّ في جسـمي حريق، دون أن يلوح لي ملاذ من هذه المأسـاة، ولا بارقة أمـل في النّجاة؛ والحريـق لا يحتمل الانتظار أو التّروّي لاتّخاذ أنسب قرار.

7-20 الخلاص

أخيـرا التفت الحظّ لي، وأنا في هـذه الورطة المهلكة، وضّاحا باسـما، ربّمـا لاسـتبقائي لمهالك آتيـة، لكنّه في تلـك اللّحظة علـى الأقلّ أنقذنـي من موت مبرم محقّق. لمحت صدفة بالقرب منّـي بركة ماء عكر تركها مطر الأمس، فغطسـت فيها بقفزة مرتجلة، وبعد إطفاء النّار تماما، خرجتُ أخيرا وقد أُرحت من حملي ونجـوت من الهلاك. لكنّ ذلك اللّعين زاد على ذلك فرماني بفعلته

السّـوءى، مؤكّدا لكلّ الرّعـاة أنّي من تلقاء نفسـي عند مروري بخطـى متعثّرة حـذو مواقد للجيـران وقعت فأوقـدت النّار في نفسي بمحض إرادتي؛ وأردف ضاحكا: "حتّام نعلف سدى أبا لهب هذا؟" بعد ذلك بأيّام قليلـة دبّر لي مكيدة أنكى: فقد عمد يوما إلـى بيع حمل الحطب في كوخ قريب وأعادني فارغا، مدّعيا عجزه عن السّيطرة على شراسـتي، ورفضه الاستمرار في تلك المهنة النّكدة؛ ومضى يلفّق تهما من هذا القبيل:

7-21 من أفواه الأطفال تخرج الحقيقة

"أتـرون هذا المتّاقل الكسـلان، والحمار أكثر ممّـا في الإمكان؟ بعد فعاله الشّـائنة الأخرى العديدة، ها هو يوقعني في مخاطر جديدة. كلّما رأى أحدَ المارّة، من امرأة مليحة أو بنت يافعة أو غلام نضر، ألقى حمله حالا بل والوكاف أحيانا وانقضّ عليه في سعُر؛ فعاشـقنا مشـته للبشـر، يطرحهم أرضا ويدهمهم فاغرا فاه، محاولا إرضاء شـهواته الشّاذّة المحرّمة وغرائزه الوحشيّة النّهمة ويدعوهم إلى قران تمقته فينوس*. بل وبفيه البشع، في محاولة لمحاكاة قبلة الإنسان يمسكهم قسرا ويشبعهم عضّا: صدّقوني، سيسـبّب لنا هذا الأمر بالتّأكيد خصومات ومشاكل غير هيّنة، بل، من يدري، وقضايا ربّما. قبل حين مثلا رأى شابّة محترمة فأوقع حمل الحطـب وبعثـره واندفع في هيـاج مسـعور باتّجاهها؛ وما لبث عاشـقنا المرهف أن طرح تلك المرأة على الأرض بأوسـاخها، راغبـا هنـاك أمام النّاس فـي اعتلائها. ولو لم يهـبّ بعض المارّة اسـتجابة لصراخهـا، فيخلّصوهـا من بـين حوافـره بعدما كاد يدقّ عظامها، لتعرّضت المسـكينة إلى كارثة شنيعة، تاركة لنا

قضيّة جنائيّة!"

7-22 حكم يناسب الجرم

بهذه الأكاذيب ممزوجة بأقاويل أخرى كانت تمضّ صمتي المخزي بشدّة، أثار ضدّي مشاعر الرّعاة بحدّة. قال أحدهم: "ألا يجدر بنا أيّها الرّفاق أن نقدّم هذا الزّوج العموميّ، بل هذا الزّاني بكلّ من يجد كفّارة للآلهة عن فواحشه المنكرة كما يستحقّ؟" وأضاف: "هيّا يا ولد، انحره فورا، وارم الحوايا لكلابنا، واحتفظ ببقيّة اللّحم طعاما للعمّال؛ ولنُعد جلده مدبوغا بالرّماد إلى أسيادنا فنقول أكله الذّئب، يصدّقونا بسهولة." وبدون تردّد أسرع متّهمي الماكر ومنفّذ حكم الرّعاة فيّ معا، فرحا شامتا لمصائبي متذكّرا تلك الرّفسة- الّتي يؤلمني أنّها وحقّ السّماء لم تُجْدِ نفعاً- يشحذ سكّينا على حجر المسنّ.

7-23 نجاة معجزة (بالمعنييْن)

لكنّ واحدا من مجموعة الرّعيان انبرى قائلا: "حرام وحقّ السّماء أن نتلف بهذا النّحو حمارا جيّدا مثله، ونحرم أنفسنا خدمته ونحن إليها بأمسّ الحاجة، مجرّمين مزاجه الشّهوانيّ الماجن. والحال أنّنا لو اكتفينا بخصيه لما أمكنه التّحرّش بعد أبدا ولخلّصكم حينئذ من هذه المخاوف وزيد فوق ذلك ودكا وبسطة في الجسم. أعرف العديد من الجياد الشّرسة، ناهيكم عن الحمير المسالمة، احتدّت من فرط الغلمة طباعها ثمّ عادت بعد خصيها سلسة ليّنة لا تتأبّى عن حمل الأثقال وتتحمّل غير ذلك من الأعمال. بعد بضعة أيّام سأذهب خلالها إلى السّوق القريبة

لبعض حاجتي، يمكنني، إن قبلتم فكرتي، أن آخذ من البيت عدّتي وأعود إليكم فورا فأستلّ من بين فخذي عاشقنا الفظّ المنفّر ذكورته وأجعله أودع من الحمل."

7-24 أهلا وسهلا

انتشلني هذا الحكم من بين يدي أركوس *، لكن ليستبقيني لعقاب أنكى؛ فلبثت أتألّم باكيا على هلاكي الكلّيّ الوشيك في أقصى جزء منّي(1). أخذت أفكّر في طريقة للانتحار بالإضراب المتواصل عن الطّعام أو بإلقاء نفسي من شفا هاوية؛ في تلك الحالة أيضا سأموت لا محالة لكن سأموت كاملا على الأقلّ. ما زلت أتردّد في اختيار ميتتي حتّى عاد في الصّباح جلاّدي، ذلك الغلام اللّعين، ليسوقني على طريق الجبل المعتادة. ربطني إلى غصن يتدلّى من شجرة بلّوط فارعة، ثمّ تنحّى قليلا عن الطّريق ليقطع بالبلطة حمولة من الحطب؛ فجأة طلع علينا من مغارة قريبة، مطلاّ بهامته الضّخمة، دبّ رهيب. حالما رأيته نكصت فزعا مذعورا من هذه الإطلالة المفاجئة، راكزا كلّ ثقل جسمي في عرقوبيّ الخلفيّين(2)، رافعا هامتي في جموح، فقطعت زمامي وفررت فورا من هذا الخطر المهول، دافعا بأقصى سرعة عبر الشّعاب لا قوائمي فقط، بل كامل جسمي. وانطلقت أركض بسرعة جنونيّة إلى سفح الجبل حيث تمتدّ بطاح رحيبة، هاربا

(1) أقصى جزء منّي: كلمة novissimus متعدّدة المعاني، فقد تعني الأسفل أو الأعزّ أو الأبعد.

(2) ثقل جسمي في عرقوبيّ الخلفيّين: corporis pondus in postremos poplites مجانسة صوتيّة بالباء.

بأقصى طاقتي من الدّبّ المتوحّش والغلام الأسوإ منه(1).

7-25 الخلاص أخيرا

بعد قليل رآني مسافر سائبا فاستولى عليّ وامتطاني بسرعة، وساقني على طريق منحرفة لا أعرفها. غير ضانّ عليّ بجلدات من عصا كان يحملها. فامتثلت دون ممانعة لمشواره، نائيا بنفسي عن مجزرة ذكورتي المريعة، وما كنت، والحقّ يقال، أتضايق كثيرا من ضرباته. فقد ألفت الضّرب وشُكّلت في قالبه. لكن أبى الحظّ المتمادي في اضطهادي إلاّ أن ينغّص عليّ سريعا كعادته انسحابي الّذي أتاحته فرصة فريدة. فنصب لي شراكا جديدة. بينما أولئك الرّعاء يجوبون أنحاء البلاد بحثا عن عِجلة أضاعوها، لاقونا فجأة فعرفوني حالا وأمسكوا بزمامي محاولين جرّي. غير أنّ صاحبي تصدّى لهم بجرأة وحزم، مستشهدا النّاس والآلهة: "لماذا تغتصبون حقّي عنوة؟ ولماذا تعتدون عليّ؟" فردّوا: "ماذا تقول؟ أنغلظ معاملتك وأنت سرقت حمارنا؟ لِم لا تقول لنا بالأحرى أين أخفيت الولد سائسه الّذي قتلته بلا شكّ." وفي الحين تلّوه أرضا وأشبعوه لكما ورفسا، والمنكود يصيح من ألم الضّرب والرّجّ، مقسما أنّه لم ير سائسا بل وجدني سائبا فأخذني طمعا في البشارة الّتي سينالها حتما عند ردّه إلى صاحبه. ويقول: "لولا ينطق هذا الحمار الّذي ليتني ما رأيته أبدًا فيشهد على براءتي، لتندمُنّ إذّاك وحقّ هرقل على إساءتكم." لكنّ تأكيداته لم تأت بنتيجة، إذ أخذه أولئك الرّعاة الجفاة من خناقه فعادوا به إلى أحراج الجبل الكثيفة حيث اعتاد الغلام الاحتطاب.

(1) الغلام الأسوإ: pejorem puerum جناس مختلف.

7-26 ويصدق وعده والصّدق شرّ إذا ألقاك في الكرب العظام

أمّا هو فلم يُعثر عليه في البرّيّة في أيّ مكان لكن شوهدت جثّته كأشلاء ممزّقة مبعثرة في أماكن متفرّقة. أدركتُ أنّ ذاك بلا ريب فعل أنياب الدّبّ، وكنت لعمري سأدلي بما أدري لو أسعفني النّطق؛ لكنّ كلّ ما كنت أستطيع فعله هو أن أتلذّذ بصمت هذا الثّار وإن تأخّر. وبعد جمع الأشلاء المتناثرة عثروا في النّهاية على كامل الجثّة ورفؤوها بشديد المشقّة وواروها الثّرى على عين المكان؛ أمّا صاحبي بلّيروفون*، السّارق الثّابت والقاتل الدّمويّ في اعتبارهم، فقد اقتادوه مقيّدا إلى ديارهم في انتظار أخذه غدا عند مطلع النّهار إلى القضاة لينال عقابه حسب أقوالهم. بعد ذلك ظلّ الأبوان ينتحبان ويلتدمان أسى على الغلام إلى أن قدم عليهما ذلك الرّاعي غير مخلف وعده طالبا إجراء العمليّة المقرّرة. فقال أحدهما: "ما من ذلك مصابنا الحاضر(1). لكن غدا يمكنك بالتّحقيق أن تفصل لهذا الحمار اللّعين لا خصيتيه فحسب بل وحتّى رأسه ولن تعدم عون جماعتنا."

7-27 جريمة ضدّ الإنسانيّة

هكذا تمّ تأجيل عذابي إلى الغد؛ فرحتُ أحمد معروفه للولد الودود فميّتا على الأقلّ منحني مهلة يوم على تعذيبي. لكنّهم لم يعطوا نفس المهلة لعرفاني ولا راحة بالي؛ فقد هرعت أمّه إلى

(1) ما من ذلك مصابنا: non est indidem praesens jactura nostra جملة فيها غموض فقد تعني: ليس هو السّبب، أو ليست خصيتاه السّبب أو ليس ذاك ما يشغلنا الآن كما توحي به بقيّة الجملة.

الإسـطبل شاكية باكية ميتة ابنها الشّـنيعة، متّشحة بثياب
الحداد، ممزّقة بكلتا يديها شـيبها المعفّر بالرّمـاد، مولولة ورافعة
بالعويـل صوتها، وبعدمـا لطمت وأدمت صدرها أنشـأت تقول:
× "هـذا الدّنيء الآن مكـبّ على المذود يطلق لشـراهته العنان
حاشيا جوفه البربخ السّحيق مستزيدا، لا يبالي بأساي ولا يذكر
فاجعة سيّده المغتال، بل واضح أنّه بالعكس يستهين ويستخفّ
بشـيخوختي وعجزي، ويظنّ بوسـعه الإفلات مـن العقاب على
جرمـه المخزي؛ لكنّه بنحو ما يتصوّر نفسـه بريئا، فمن المناسـب
ارتجاء راحة البال بمحاولات سـوءى لكبت الشّـعور بالذّنب. إذ مَن
يا أسـوأ الدّوابّ كافّة، تسـتطيع حتّى لو أتيح لك الكلام لحظة،
أن تقنـع، مهما بلغ غفلة، ببراءتك من هـذه الجريمة المنكرة، بحقّ
كلّ الآلهـة، بينما كان بإمكانـك أن تدافع عن صغيري بقوائمك
وتحميه بأسنانك؟ × لطالما اعتديت عليه برمحاتك النّحاس، أفما
اسـتطعت الذّود عنه وهـو يجابه الموت بنفـس الحماس؟ × كان
بوسـعك على الأقلّ حمله على ظهرك في الحين، وانتشـاله من
بـين يدي ذلك اللّصّ الدّمـويّ الزّنيم، بدل أن تهـرب وحدك، تاركا
وسـائبا قرينك ورفيقك وراعيك وسـيّدك. أتجهل أنّ من يرفضون
إغاثة أشـخاص يواجهـون خطر الموت يعاقَبـون لأنّهم إذّاك ضدّ
القيم الإنسـانيّة يتصرّفون؟ ^ لكن لن تلذّ بنكبتي طويلا يا شرّ
سفّاح، فسأريك أيّة قوى تهب الطّبيعة ألما فاجعا وأيّ سلاح."

7-28 الدّفاع عن النّفس بالوسيلة الآخرة (والأخيرة!)

دسّـت يديها وهـي تقول ذلك، فحلّـت زنّارهـا وربطت كلتا
قائمتيّ وشـدّتهما معا بإحكام، بلا شـكّ كيلا تبقى لي وسيلة

انتقام. ثمّ تناولت قضيبا يمسّكون عادة باب الإسطبل بواسطته،
فما انفكّت تضربني به حتّى خارت قواها وخانتها ذراعاها، وأفلت
بفعل وزنه من يديها؛ × فجرت إلى الموقد شاكية وهن ساعديها،
وحملت منه سـطاما متّقدا أولجته بين فخـذيّ. فلجأت إلى آخر
وسـيلة للدّفـاع عن نفسـي بقيت لـديّ: حزقـت بطني بجهد
فأطلقت رشاشـا من المُشـاء لطّـخ عينيها ووجههـا، × ففرّت
أخيرا معماة منخنقة وكفتني شـرّها، وإلاّ لهلك الحمار ملياغرا*
بقبس ألثاية* مسعورة.

الكتاب الثّامن

8-1 أخبار سيّئة

لمّـا أعلن صياح الدّيكة عن رحيل اللّيل، قدم من المدينة المجاورة شابّ بدا لي أنّه أحد خدم خريطة، الفتاة الّتي قاست معي عند اللّصوص مثل محنتي. فأخذ يروي، جالسا قرب النّار بين مجموعة رفاقه أخبـارا غريبـة وفظيعة عن هلكتهـا ودمار كلّ أسـرتها. "أيّهـا السّـوّاس والرّعاة والبقّـارة، لقد قضت مولاتنـا خريطة، قضت المسـكينة في حادث مروّع نحبهـا؛ لكنّها لم تذهب إلى عالم الأشـباح وحدها. لكن لتعلموا كلّ شـيء سأروي لكم كلّ الأحـداث من البداية، ولعمري إنّها تسـتحقّ أن يدوّنها في واحد مـن كتب السّـير فطاحـل الأدباء الّذيـن منحهم الحـظّ ملكة الكتابة. كان يوجد في المدينة المجاورة شـابّ آتاه كرم محتده جاها ومالا، لكنّه منغمس في مفاسـد القصـف والمجون وفي معاقرة الخمر نهارا، ومرتبط برفاق سيّئين من عصابات المجرمين، بل وملوّث اليدين بالدّم البشـريّ كذلك، يدعى ثراسلّوس*؛ كذا كان وشاع عنه ذلك.

8-2 حبّ من جانب واحد

لمّا بلغت خريطة سـنّ الزّواج، كان بـين أبرز خطّابها والتمس ودّها بأشـدّ الحـرص على طلبه؛ ورغم تفوّقه علـى بقيّة الخطّاب ومحاولته اسـتمالة أبويها بالهدايا السّـنيّة، تعرّض بسبب سوء سـمعته لإهانة ردّه. ولمّا آلت بنت أسيادنا إلى تليبوليموس الكريم، ظلّ يغذّي بإصرار هواه المندحر وغيظه الممضّ من رفض تزويجها به، فأخذ يسـعى للوصول إليها بعمل إجراميّ. أخيرا وجد فرصة أتاحـت له الدّنـوّ منها فبدأ يعدّ لجريمته الّتـي خطّط لها طويلا. فـي اليوم الّذي حرّرت فيه الفتاة من سـيوف اللّصوص الفتّاكة بفضـل حيلة زوجها وشـجاعته، اختلط بجمـع المهنّئين مبالغا فـي إظهـار بهجتـه. فهنّأ العروسـين علـى السّـلامة الحاضرة والذّرّيّة الآتية، واسـتُقبل في بيتنا بـين الضّيوف المبجّلين إكراما لأسـرته اللاّمعة؛ وراح يمثّـل دور الصّديق المخلص مبيّتا في سـرّه الغدر، وبكثرة تردّده عليهما ومشاركته إيّاهما أحاديثهما، وأحيانا طعامهما وشـرابهما، توطّدت المودّة، وشـيئا فشـيئا أخذ ينزلق لاشـعوريّا في هاوية الهوى السّـحيقة. ولا غرو، فنار العشق في بدايتهـا خافتة تلذّ بدفئها العـذب اللّطيف، حتّى إذا اضطرمت مغذّاة بوقود الألفة تحرق البشر بحرّها المستعر فلا تبقي ولا تذر.

8-3 وضع مسدود

فكّر ثراسيلوس طويلا، إذ لم يجد فرصة مواتية للاختلاء بها، ورأى الأبواب مغلّقة أكثـر وأكثر دون علاقة زنا معها، وأدرك أنّه لا يسـتطيع فكّ قيد عاطفته الجديدة والمتزايدة بعد استحكامها

منــه؛ وأنّ عدم خبرة الفتاة بالخيانــة الزّوجيّة، حتّى لو وافقت، وإن استحال في الحقيقة أن توافق، يعوقه. مع ذلك كان قضاء غاشم عنيد يدفعه إلى المستحيل كما لو كان يستطيعه. فما يبدو أوّل وهلة متعذّرا يبدو مع توثّق الهوى بمرّ الأيّام متيسّــرا؛ لكن انظروا أرجوكم وانتبهوا جيّدا لتروا إلى أين دفعت بالشّــقيّ حوافز هواه الجنونيّ.

8-4 مشهد صيد

ذات يــوم أخذ تليبوليموس ثراســلّوس معه إلــى الصّيد، وهو ينــوي مطــاردة الوحــوش، إذ لا تخلــو الأراوى من توحّــش، وكانت خريطة لا تســمح لزوجها بصيــد ذوات الأنيــاب أو القرون. وعند ربوة مورقة ومعتمة بظلال أغصانها المتشــابكة، حُجبت الأراوى عن مــرأى المطارديــن، فأُطلقت كلاب الصّيــد الأصيلة لمهاجمة الطّرائــد الكامنة فــي مخابئها؛ وفي الحال توزّعــت وطوّقت كلّ المنافذ ذاكرة أسلوب تدريبها الذّكيّ، محافظة على الصّمت في البداية؛ ثمّ أُطلقت فجأة إشارة فلغط كلّ شيء بجلبة نباحاتها المصطخبة الوحشــيّة. لكــنّ ما طلع علينا لم يكــن وعلا أو أيّلا مذعــورا، ولا ربمــا أودع من كلّ وحوش الفلا، بــل خنزيرا ضخما لم يُر مثله في البلاد، شــثن الجلد، قد اكتنز لحما وقد طُبّق شــحما، يقــفّ على جلده الخشــن وبر وضــر وتزبئرّ على ظهــره المحقوقف سبائب كثّاء، وهو يزبد هائجا مكشّرا صارّا بأسنانه، يقدح الشّرر مــن عينيــه المتوعّدتــين، ويرعد مزمزمــا دافعا خطمــه المرتعش من الغيظ بوحشــيّة. فبادر إلى أجرئ الــكلاب المتألّبة عليه وراح بفنطيســته يمزّقها ذات اليمين وذات الشّمال؛ ثمّ دحص شباكنا

الّتي عاقت اندفاعته الأولى فمرق منها.

8-5 جريمة كاملة

أمّــا نحن المصعوقون كلّنا من الذّعر والمعتادون على أنماط من الصّيــد خالية من الخطر والعزّل إذّاك بدون ما يقينا، فلذنا بالأيك المتشــابك والأشــجار للاختباء فيها. هنا وجد ثراســلّوس فرصة مواتيــة لغدره فأهاب بمكــر بتليبوليموس: × "أيشــدهنا الذّهول أو الذّعــر الأخــرق كاســتخذاء هــؤلاء الأرقّاء أو ننخــذل في هلع النّســاء مفوّتين طريدة بهذا الحجم من بــين أيدينا؟ × هيّا نمتط جوادينا ونسـرع باللّحاق بها؛ خذ معك بهذه الحربة وسآخذ رمحا من جهتــي." وبدون تردّد ولا انتظار، وثبا علــى جواديهما وانطلقا يلاحقان الوحش بحماس وإصرار. فنكص ليواجههما ملبّيا لديه شراســة فطريّة، ورفــع نابيه وهو يتّقد غيظا ووحشــيّة، ويبحث متــردّدا عمّــن يهاجم أوّلا. فبــادر تليبوليموس برمــي حربته على ظهره، لكنّ ثراســلّوس أعفى الخنزير ووكز برمحه وقطع عرقوبي جــواد تليبوليموس. فهوى على قفاه مجنــدلا في بركة من دمه، وألقــى مكرها على الأرض بصاحبه. في الحــال انقضّ الخنزير في هيجان مســعور على المسكين الجاثي بالأرض فمزّق ثيابه، ثمّ إيّاه فور نهوضه شــرّ ممزّق بأنيابه؛ لم يندم الصّديق الودود عن ســيّء خطّته، بل لم يشــف غليله حتّى أن يرى في خطر كذلك ضحيّة وحشــيّته. بل وجّه إليه، وهو يتحامــل مهيضا قضيضا للملمة جراحــه ويســتغيثه بنحو يثير الشّــفقة، طعنة برمحه شــكّت فخذه اليمنى واثقا أنّ جراحات السّــنان ستبدو كجراح الأسنان. ثمّ بيد القدير أجهز على الخنزير.

8-6 لوعة الأرملة الشّابّة

بعد مصرع الفتى بهذا النّحو، خرجنا نحن الخدم متفجّعين من مخابئنا وهببنا إليه مسرعين. غير أنّ الغادر رغم فرحه بتحقيق منيته وتخلّصه من خصمه، أخفى بهجته وراء عبوس وجهه، وقطّب جبينه مظهرا ألما متصنّعا وانكبّ على جثمان صاحبه الّذي صنعت يده يعانقه متلوّعا، وافتعل ببراعة كلّ مظاهر الألم، عدا الدّموع فقد أبت أن تسيل. هكذا اتّخذ لبوسا موافقا لحزننا نحن المنفطرين حزنا صادقا، وما وزرت يده راح للوحش يسنده. ما كاد الجرم يتمّ حتّى ذاع الخبر وبلغ أوّل ما بلغ بيت القتيل ووقع في أذني زوجته المنكودة. فلمّا أن جاءها النّبأ الّذي لن تسمع مثله أبدا جُنّت وطار صوابها وانطلقت تجري مسعورة ككاهنات باخوس* بين ساحات المدينة وحقول الرّيف نادبة في هذيان فجيعة زوجها. فتجمّع إليها المواطنون زرافات وتبعها من لقيت على طريقها محزونين مشاطرينها شجونها؛ ما بقي أحد في المدينة لم يأت لمشاهدتها؛ وها هي تجري نحو جثمان زوجها فتنهار فوقه مغشيّا عليها، حتّى سلّمته أو كادت الرّوح الّتي نذرت له. وبمشقّة انتزعها ذوو قربتها، فأبقت كرها على حياتها؛ بينما سارت الجنازة لدفن المغتال يشيّعها كلّ الأهالي.

8-7 آلام الأرملة

كان ثراسيلوس يبالغ في البكاء ويذرف الآن، من الفرح لا شكّ، الدّموع الّتي امتنعت عليه في تمثيليّة الأسى الأولى، بل

كان من غلواء مظاهر المحبّة يخدع الحقيقة حتّى، × داعيا باسمه القتيل راثيا فيه صديقه ولِدته وعشيره بل أخاه، غير مهمل في نفس الوقت أن يمسك يدي خريطة عن لطم صدرها ويخفّف حزنها ويهدّئ نحيبها ويكبح بكلمات رقيقة جماح لوعتها ويواسيها بذكر شتّى الأمثلة من ضربات القدر العشوائيّة. وهو إنّما يبدي ذلك الحرص على أداء واجبات برّ متصنّع ليلامس الأرملة ويغذّي بمتعة آثمة عاطفته البغيضة المنكرة. لكن ما إن انتهت مراسيم المأتم حتّى أخذت العروس تتعجّل اللّحاق بزوجها، وتجرّب شتّى الطّرق، حتّى تلك الرّفيقة اليسيرة الغنيّة عن السّلاح والشّبيهة بهجعة النّوم. انقطعت عن الغذاء وتعهّد جسمها بضروريّات الحياة وأعرضت عن النّور معتزلة في ظلمة بيتها. لكنّ ثراسلّوس بشديد الإلحاح، بالتّدخّل شخصيّا أو من خلال بقيّة صحبها وذويها وبواسطة أبويها، انتزع منها أخيرا قسر إرادتها أن تتعهّد جسمها الموهن بل المنهار تقريبا من الإهمال بالغذاء والاغتسال. فأقبلت احتراما لمشيئة أبويها وامتثالا لواجب البرّ المقدّس وإن على مضض وبوجه خلا من البهجة لكنّ فيه شيئا من الصّفاء على شؤون الحياة كما أُمرت؛ أمّا في صميمها بين الحنايا والضّلوع فظلّت تُزهق روحها حسرة وكمدا، وتقضي أيّاما وليالي بأكملها في أسف فاجع محيطة بالتّقديس صورا للفقيد أمرت بإنجازها تمثّله في هيئة الإله ليبر* معذّبة نفسها بهذا العزاء ذاته.

8-8 رؤيا

لكنّ ثراسلّوس، المندفع بطبعه والمستمدّ من اسمه بالذّات

مزيدا من الجسارة. لم يخش، قبل أن تروي الدّموع ألمها وتسكن لوعة روحها المهيضة ويخفت جزعها المفرط بمرّ الزّمن، × وهي لا تزال تبكي زوجها وتمزّق ثيابها وتقطّع شعرها، أن يطلب يدها × كاشفا بتهوّره وإن لم تصرّح شفتاه خبايا قلبه وغدره المخفى. فاهتزّت خريطة نفورا واشمئزازا من عرضه الدّنيء، وكما لو نزلت بها صاعقة من السّماء بل من مجنّ يوبتر* السّاحق انهار جسمها وتغشّى الضّباب نفسها. لكنّها لم تلبث أن استعادت قليلا وعيها فأطلقت زمجرات وحشيّة وهي تتبيّن أخيرا تمثيليّة ثراسلّوس البغيض لكنّها أجّلت الرّدّ على طلب خاطبها حتّى تنظر فيه. أثناء المهلة تراءى طيف تليبوليموس لوجه زوجته الصّافي في المنام مضرّجا بدمه مشوّها شاحبا وخاطبها: × "أي زوجتي الحبيبة، بات من حقّك أن يدعوك بهذا النّعت غيري. إن امّحت في صدرك ذكراي أو فصم حادث موتي المروّع أواصر المودّة بيننا، فلك أن تتزوّجي من تشائين. وهنيئا لك من تختارين. حذار فقط أن تسلّمي نفسك ليد ثراسلّوس الأثيمة أو تخوضي في حديث معه أو تجلسي إلى مائدته أو تنامي في مضجعه. انأيْ عن يد قاتلي الملطّخة بدمي، وإيّاك والزّواج بقاتل من آخاه واستأمنه؛ فالجراح الّتي غسلت دماءها دموعك ليست كلّها من عمل أنياب الخنزير: رمح ثراسيلوس الماكر هي الّتي فرّقتني عنك"؛ وأضاف تفاصيل أخرى، موضّحا صورة الجريمة.

9-8 واحدة بواحدة

فظلّت، منذ أن اضطجعت محزونة كابّة وجهها إلى الفراش، وحتّى في نومها، تبلّل خدّيها بفيض دموعها. وهبّت من نومها

المضطرب(1) كما لو أقضّ هاجس مضجعها، فعادت إلى النّحيب شاقّة جيبها لاطمة بيدين قاسيتين زنديها الجميلين. لكنّها لم تُطلع أحدا على رؤيا تلك اللّيلة وكتمت تماما ما أُبين لها عن الجريمة، وقرّرت في سرّها الانتقام من القاتل الزّنيم والانسحاب من حياة كلّها شقاء. وما لبث طالب اللّذّة المتهوّر البغيض أن عاد يزعج بحديث الزّواج أذنيها المسدودتين عن هذا الموضوع. فردّت بلطف طلبه، وأجابت على نقيقه اللّحوح، ممثّلة دورها ببراعة عجيبة: × "ما زالت طلعة أخيك وزوجي الحبيب ماثلة أمام عينيّ في حسنها الرّبّانيّ. وما زال شذا الكافور يفوح في أنفي متضوّعا من جسمه الإلهيّ. وما انفكّ يعيش في فؤادي شخص تليبوليموس البهيّ. لذا حسنا تفعل بترك الوقت اللاّزم لقلب امرأة مفجوع لإتمام حدادها المشروع. وإنهاء ما تبقّى من الحول في بضعة شهور. ذلك يصون عرضي وكذلك يراعي مصلحتك؛ فربّما أثرْنا بزواج قبل انقضاء العدّة روح زوجي واستنكارها المشروع فسعت في هلكتك."

10-8 استدراج المجرم

لم تعقّل هذه الأقوال ثراسلّوس، ولم يكف حتّى هذا الوعد الجاري لهواه لإنعاشه، بل واصل لسانه بإلحاح حتّى التّخمة نجواه الأثيمة. إلى أن أجابته يوما، متظاهرة بالاستسلام: "لا بدّ إذن يا ثراسلّوس أن تحقّق لي هذه الرّغبة المهمّة بالنّسبة لي: أن نعقد لقاءاتنا لبعض الوقت في السّرّ مع التّكتّم التّامّ. كيلا يلحظ أحد من ذويّ شيئا إلى أن يستوفي الحول ما بقي من

(1) نومها المضطرب: inquieta quiete جناس مطلق مع مقابلة.

الأيّام." فاستسلم ثراسلّوس مغلوبا لوعد المرأة الكذوب، وسارع بالموافقة على المعاشرة السّرّيّة، وها هو يتحرّق منتظرا هبوط اللّيل وفي ركابه ستر الظّلام، مقدّما شهوته على كلّ شيء سواها. أضافت خريطة: "لكن رويدا! تعال أوّل اللّيل إلى الباب بصمت، مستخفيا بثوبك بنحو جيّد، وبدون رفقة أحد، وصفّر مرّة واحدة، وانتظر مربّيتي الّتي ستقف خلف الباب الموصد مترقّبة قدومك. ستفتح لك الباب حينئذ وتُدخلك، ثمّ تقودك إلى غرفتي بدون ضوء قد يشي بنا."

8-11 في المصيدة

راقت لثراسلّوس تمثيليّة هذا الزّواج الجنائزيّ، ولم يرْتبْ بأيّ شيء، بل بقي ينتظر مضنى معنّى من تمطّي النّهار الطّويل وتأخّر العشيّ. وما إن أفسحت الشّمس للّيل، حتّى حضر متنكّرا حسب تعليماتها وأضلّته حراسة المربّية الزّائفة فدلف إلى الغرفة يحدوه الأمل. سارعت العجوز إذّاك بأمر سيّدتها إلى خدمته بتودّد؛ وأخرجت خلسة أكوابا وقارورة تحوي مخدّرا ممزوجا بالخمر؛ فظلّ يحتسي الأكواب تباعا، بنهم وطمأنينة، وهي تكذبه الخبر عن تأخّر سيّدتها، زاعمة أنّها ذهبت لزيارة والدها المريض؛ وبسهولة لحدته في غيهب النّوم. إذّاك تركته ثاويا على ظهره معروضا لينفّذ فيه العقاب، ودعت خريطة، فدخلت باندفاع وحشيّ مرتجفة تجيش بعزم ذكريّ؛ إذّاك وقفت على جسم القاتل وهتفت:

8-12 اللّبؤة الجريحة

"هوذا إذن صديق زوجي الصّدوق، هوذا الصّيّاد الأريب والزّوج الحبيب؛ هي ذي اليد الّتي سفحت دمي، وهوذا الصّدر الّذي حبك مكائد للإيقاع بي؛ تان هما العينان اللّتان رقتُ لشقائي لهما، ها قد بدأتا تغرقان في ظلمات كالّتي تنتظرهما وتستبقان عقابهما الّذي أتى. نم قرير العين وانعم بهنيء الأحلام؛ فما أبتغي لك السّيف والقنا الصُّمّ؛ بعيدا عنّي أن أعدلك بزوجي بإعطائك مثله ميتة مماثلة له؛ بل لتموتنّ عيناك وأنت حيّ، ولن ترى بعدُ شيئا إلاّ في الأحلام مدى عمرك؛ لأجعلنّك ترى موت خصمك أسعد من عيشك. كلاّ، لن ترى النّور، وستحتاج إلى يد مرافق يقودك؛ لن تأخذ خريطة بين ذراعيك ولن تنعم بالزّواج بها؛ لن تهنأ براحة الموت ولا بلذّة الحياة؛ لتهيمنّ شبحا منبوذا بين مملكة الموتى وعالم الضّياء ولتبحثنّ طويلا عن اليد الّتي فقأت عينيك؛ والأمرّ في شقائك أنّك لن تعرف حتّى ممّن تشكو. لأسقينّ قبر حبيبي من دم ناظريك، ولأقدّمنّ لروحه الطّاهرة تينك العينين كفّارة عن جريمتك. لكن لِم أؤخّر عقابك العادل وأدعك تربح أيّة لحظة، وتحلم ربّما بضمّات عناقي المردية؟ فلتدعْ ظلمة المنام إلى ظلمة أخرى ستلفّ ما حييتَ يقظتك عقابا لك. هيّا ارفع وجهك المطفأ ضياؤه وتعرّف عقابك وأدرك نكبتك وعدّد أرزاءك؛ كذا راقت لزوجتك الخِفرة عيناك، وكذا أضاءت مخدعَك مشاعل الزّفاف؛ ستكون ربّات النّقمة* وصيفات عرسك وعاهتُك ووخزُ ضميرك أبد الدّهر إشبينك."

8-13 الانتقام

وقبل إنهاء وعيدها، استلّت من رأسها مشبك شعر فغرزته في حدقتيه، وتركته وقد انطفأ نور عينيه، إلى أن صحا من النّوم والسّكر معا وبه ألم يجهل مأتاه. ثمّ انتضت السّيف الّذي اعتاد تليبوليموس أن يتقلّده واندفعت تجري في جنون إلى وسط المدينة؛ قصدت مباشرة ضريح زوجها مضمرة، بلا ريب، أمرا إمرا. فخرجنا، ومعنا كلّ الشّعب، وتبعناها. كلّ يهيب بصاحبه أن ينتزع السّيف من يديها المجنونتين. لكنّ خريطة اقتربت من إران زوجها، وأبعدت بالسّيف الملتمع في يدها الجميع. ولمّا رأت دموعهم الهتن قالت: "كفاكم هذه الدّموع النّابية وهذا الأسى البعيد عن شيمي. لقد ثأرت لزوجي من قاتله وانتقمت من هادم عشّي المشؤوم وآن الأوان لأجد بحدّ هذا السّيف درب إلفي تليبوليموس."

8-14 نهاية فظيعة

ثمّ روت لهم الوقائع بالتّرتيب، ذاكرة كلّ ما أخبرها به زوجها في منامها، وكيف استدرجت القاتل إلى شرك انتقامها؛ ثمّ شكّت بالسّيف جنبها أسفل ثديها الأيمن، وهوت مضرّجة بدمها، مغمغمة بكلمات مبهمة. وما لبثت أن سلّمت روحها المتوقّدة بعزيمة رجوليّة حازمة. فغسّل ذووها جثمانها في الحين ودفنوها في قبر واحد مع زوجها رادّين إليه قرينته الأبديّة. أمّا ثراسلّوس فلمّا درى بما جرى، أيقن أنّه لن يلقى عقابا أنسب لجريمته من الّذي هو فيه، وأنّ السّيف لا يكفي جزاء فعلته

النّكراء، فطلب أن يُنقل إلى ضريحهما. هناك هتف: "ها هي الضّحيّة تأتيكنّ طوعا، أيّتها الأرواح الغضابى!" ثمّ أقفل على نفسه باب الضّريح بإحكام وقرّر، بمحض إرادته، أن يُفني بالطّوى نفسه الموسومة للعذاب بحكمها هي ذاتها."

8-15 العبيد الآبقون

روى الفتى القصّة على الرّعاة، وهو يطلق في عدّة مواضع زفرات طويلة ويغالب العبرات، فتأثّروا لها كثيرا. وفي أسفهم للكارثة الّتي دمّرت بيت سيّدهم، وخوفهم من الانتقال إلى مالك جديد، قرّروا الفرار. لكنّ سائس الدّوابّ ذاك الّذي تسلّمني مع أوكد التّوصيات حمّل ظهري وظهور بقيّة الدّوابّ كلّ ما يحتفظ به من النّفائس المخبوءة في البيت، وارتحل من المحلّ القديم. كنّا نقلّ النّسوان والولدان ونقلّ الفراريج والفراخ والجراء والجديان؛ بحيث كان كلّ ما يعطّل ببطء سيره فرارهم يمشي على أرجلنا. ولم يكن وزن حمولتي، على ثقله، ليكدّني، وأنا أخلّف وراء ظهري، بفضل هذا الفرار الميمون، جزّار ذكورتي الملعون. اجتزنا قمّة جبل وعر مكسوّ بشجر، ثمّ طوينا من جديد سهولا رُحبا؛ ولمّا بدأ العِشاء يعتّم دربنا وصلنا بلدة آهلة غنيّة، منعنا سكّانها من مغادرتها ليلا وحتّى في الإبكار. فقد زعموا أنّ ذئابا عديدة فارعة القوام ضخمة الأجسام وشرسة مفرطة الوحشيّة اعتادت الخطف في كلّ البلاد وأكثرت فيها الفساد، بل غزت حتّى الطّرق وغدت تهاجم المسافرين كاللّصوص. وتدفعها شدّة الجوع أحيانا إلى مهاجمة الضّياع الواقعة على أرباض البلدة في هياج مسعور، فصارت تهدّد بويلاتها النّاس فضلا عن البهائم العجّز.

وأنّ جثثا بشريّة، نُهشت أجزاء منها وجُرّدت هياكلها من اللّحم والأحشاء تنتثر ناصعة على الدّرب الّذي ينوون أن نسلكه؛ فلا بدّ والحال تلك أن نتّخذ أوكد الاحتياطات للسّير على الطّريق. ونتقيّد خاصّة بالانتظار حتّى سراة النّهار وسطوع الشّمس عاليا في كبد السّماء: إذّاك فقط يخبو، بانتشار الضّياء، هيجان تلك السّباع الضّارية، فنجتاز تلك الأهوال، لا متفرّقين شرازم، بل ملتفّين صفّا مرصوصا(1).

8-16 معركة مع الذّئاب؟

لكنّ سوّاقنا الأوباش الآبقين في عجلتهم المتهوّرة غير المتبصّرة، وخوفهم من ملاحقة غير محقّقة، استهانوا بالتّحذير الأضمن لسلامتنا، فلم ينتظروا بزوغ الشّمس، بل ساقونا على الطّريق مثقَلين بأحمالنا في الهزيع الثّالث من اللّيل. فكنت، لخوفي من الأخطار المذكورة، أنحشر قدر المستطاع وسط السّرب وأتخفّى بين الدّوابّ المتصاقبة، لأقي دبري هجمات الوحوش، والجميع في أشدّ العجب منّي وهم يرونني أهملج مجلوذًا سابقا بقيّة الخيول. لكنّ سرعتي كانت أمارة خوف لا حيويّة، حتّى صرت أفكّر فيما بيني وبين نفسي أنّ الخوف هو الّذي أكسب لا شكّ بيغاسس* الشّهير قدرته العجيبة على الطّيران، وحباه بجناحين كما ينبغي لذاك الشّان، فصار يقفز في الجوّ حتّى السّماء ويرتدّ خوفا بلا شكّ من عضّ خيمارة* قاذفة النّيران. وقد تسلّح سوّاقنا

(1) الذّئاب في الطّريق: في "المرافعة" 72 كذلك حديث عن السّباع في صحراء سرت وخطرها على المسافرين. صورة الذّئب في الأدب القديم قاتمة عموما تقترن بالبطش والمخاتلة، وقد ينفرد الشّنفرى الأزديّ برسم صورة إيجابيّة للذّئب فيها كثير من التّعاطف، نجد شيئا منه في قصيدة للبحتريّ ومثله عند فينيي.

الرّعاة استعدادا للمعركة، هذا برمح وذاك بحربة والآخر بسهام وبحجارة يعجّ دربنا الحصِب بها. وكان بعضهم يمتشقون قسيّا مذبّبة الطّرف، وأكثرهم يحملون مشاعل لتخويف السّباع. فلا شيء ينقصنا سوى النّفير عن كتيبة إلى الهيجا تسير؛ ومجّانا(1) تعرّضنا إلى ذلك الخوف الأخرق إذ وقعنا في مصيبة أدهى. فالذّئاب، ربّما لخوفها من ضجيج شبابنا المتآزر، أو من ضوء المشاعل الباهر، أو لأنّها كانت تعيث فسادا في مكان آخر، لم تحاول قطّ مهاجمتنا، ولا لاح لائح منها حتّى من بعيد لقافلتنا.

8-17 هجمة وقائيّة

لكنّ فلاّحي ضيعة مررنا بها عرَضا حسبوا جمْعَنا لصوصا، فأخذوا، خيفة على أملاكهم وتوجّسا منّا، يحرّضون ضدّنا بصيحات التّحريش المعتادة وشتّى الهتافات كلابا ضخمة ثغِمة أضرى من الذّئاب والدّببة، ربّوها بعناية لأشغال الحراسة. فانقضّت علينا مهتاجة، من صراخهم فضلا عن شراستها الفطريّة، وطوّقتنا متوثّبة من كلّ جانب، تهلب الدّوابّ والنّاس معا دون تفريق، وتوقع بكرّاتها العديدين على الطّريق. فكنتَ ترى مشهدا حريّا بالذّكر وبالرّثاء أحرى: كلابا أبابيل هي في ضراوتها أسُد الشّرى، تنوش الفارّين وتُغير على الواقفين وتعلو الصّرعى، وتصول وتجول منشبة أنيابها على امتداد قافلتنا. وكما لو لم يكف هذا الخطر الجسيم، ها قد جاءت الطّامّة الكبرى: فمن أعلى السّقوف ومن على ربوة قريبة انهال علينا الفلاّحون رشقا بالحجارة حتّى بتنا لا ندري أيّ الشّرّين نتّقي أكثر: خطر الكلاب

(1) لا شيء/مجّانا: nec quiquam/nequiquam جناس مركّب.

القريب أم خطر الحجارة البعيد(1). فجأة نقرت إحداها رأس المرأة الممتطية ظهري فأخذت تبكي وتصرخ من الألم وتنادي زوجها ذلك الرّاعي مستنجدة.

8-18 ومرّت البليّة بسلام

فأخذ يصيح بأعلى صوته مستشهدا كلّ الآلهة وماسحا دم زوجته: "بأيّ حقّ تعنُفون بوحشيّة وتفتكون بأناس مساكين ومسافرين منهوكين؟ × أيّ غنم تبغون؟ من أيّة إساءة تثأرون؟ لكنّكم لا تسكنون عُرُن السّباع ولا كهوف الهمج لعمري لتتلذّذوا بسفك دم البشر." ما كاد يقول ذلك حتّى كفّت شآبيب الحجارة المنهمرة، وهدأت زمرة الكلاب المستعرة بعد إيابها إلى أصحابها. أخيرا من رأس سروة خاطبنا أحد السّكّان: "لسنا نقطع طريقكم نريد سلبكم بل نصدّ من جانبكم نفس العدوان. أما وقد عرفنا قصدكم فلكم أن تواصلوا سيركم بمنتهى الأمان." فاستأنفنا طريقنا جرضى، هؤلاء يشكون جراح الحجار وأولئك هلب الكلاب والكلّ كلمى ومرضى. بعدما قطعنا شوطا من الطّريق وصلنا إلى غابة باسقة الأشجار تزدهي بتفاريجها الخَضِرة النّضِرة: فاستطاب سوّاقنا التّوقّف هناك قليلا للاستراحة والاعتناء بتضميد أجسامهم الجريحة. استلقوا على الأرض ليستعيدوا أرواحهم وأسرعوا يعالجون بشتّى الأدوية جراحهم، هذا يكفكف بماء نبع يجري قريبا دمه، وذاك يضمّد بكمائد مبلّلة بالخلّ كدماته، وآخر يشدّ بأشرطة على جراحه

(1) لا نستطيع/نتّقي. القريب/البعيد: nequimus/cavemus,comminus/eminus جناسان ومقابلة.

الفاغرة ومضى كلّ يطبّب نفسه على تلك الشّاكلة.

8-19 الشّيخ الرّاعي

أثناء ذلك كان شيخ يرقب من فوق ربوة قريبة، وحواليه يرتع قطيع من الغنم والماعز ينبئ بأنّه الرّاعي؛ سأله أحدنا إن كان عنده حليب أو جبن طازج للبيع. فهزّ رأسه طويلا وقال: "ويحكم! أفي مثل هذا الوقت تفكّرون في طعام أو شراب أو استجمام؟ ألا تدرون في أيّ مكان أنتم توجدون؟" قال ذلك وهشّ على شويهاته وساقها بعيدا؛ فراع جماعتنا كلامه وفراره روعا شديدا. وبينما هم في فزعهم يتساءلون ولا مجيب عن ذاك المكان ماذا يكون، أقبل على الطّريق شيخ آخر كبير أثقلته السّنون. منحنيا على عكّازه مجرجرا قدميه وهناً وذارفا دموعا هتناً؛ فلمّا رآنا اقترب وأخذ يتوسّل باكيا بغاية التّأثّر، متمسّحا بركُب الفتية واحدا إثر الآخر:

8-20 الشّيخ الثّاني

"أناشدكم يا بَنيّ بأقداركم والجنّ الموكّلين بكم* داعيا أن تبلغوا سنّي أصحّاء سعداء، أن تعينوا شيخا خانته الأيّام وتردّوا لشيبتي صغيري من قبضة الحِمام. فإنّ حفيدي، رفيق دربي ومؤنس شيبي، خشّ العوسج قبل قليل ليمسك حسّونا سمعه يزقزق صدفة؛ فوقع في خندق قريب يمتدّ أسفل الجنبات المتشابكة، وحياته الآن في خطر. فإنّي أعلم من بكائه ونداءاته المتكرّرة إلى جدّه أنّه ما زال حيّا؛ لكنّي لوهن صحّتي، كما ترون، عاجز عن إسعافه. بينما يسهل عليكم، بفضل سنّكم وقوّتكم،

أن تساعدوا شيخا ضعيفا بائسا، وتنقذوا فلذة كبدي وخلفي الأوحد، آخر حلقات سلالتي."

8-21 ما الّذي حدث؟

مضى يتوسّل باكتا شيبه، فرقّ الجميع له، ونهض من بينهم فتى أشجع من البقيّة وأصغر سنّا وأصحّ جسما هو وحده السّاعة خرج سالما من المعمعة؛ فسأله عن المكان الّذي وقع فيه ولده، وصحب لتوّه الشّيخ الّذي دلّه بإصبعه على عوسج متشابك غير بعيد. ولمّا استردّ كلٌّ قواه نحن بالمرعى وهم بالدّواء، أخذوا أمتعتهم وشُدّت لطيّات مطايا وأرحُل؛ فنادوا الفتى باسمه مرارا في البداية، ولقلقهم من طول تأخيره بعثوا أحدهم لإخباره بتأهّبهم للرّحيل والعودة به. ما لبث الرّسول أن عاد شاحبا مرتجفا يروي معجب الأخبار عن صاحبه: أنّه رآه ملقى على قفاه، وقد افتُرس معظمه، وتنّين ضخم واقف عليه يلتهمه؛ أمّا ذلك الشّيخ بادي المسكنة، فلم يبد بعد في كلّ الأمكنة. لمّا سمعوا ذلك وقارنوه بكلام الرّاعي الّذي كان يحذّرهم بلا شكّ من نفس الوحش ساكن هاتيك البراري، لا أحد سواه لاذوا سريعا بالفرار، نائين عن تلك الأشراء المشؤومة، مستحثّيننا بضربات عصيّهم المحمومة.

8-22 عقاب العبد خائن زوجته

طوينا بسرعة كبرى مسافة طويلة، ووصلنا إلى قرية استرحنا فيها كامل اللّيل؛ هنا أودّ أن أروي حادثة وقعت هناك، جديرة حقًّا بالذّكر(1). كان يدير الحوزة الواسعة الّتي نزلنا فيها

عبد وكّله مولاه على كلّ أملاك الأسرة؛ وقد اتّخذ له زوجة من بين العبيد رفاقه، لكنّه شغف بحبّ امرأة حرّة من خارج بيت سيّده. استبدّ الألم بالزّوجة من خيانته فأشعلت النّار في سجلاّته وكلّ ما كان يحتفظ به في المخزن. ولم تكتف بذلك الدّمار انتقاما من تدميره عشّ زوجيّتهما، بل تعدّته إلى إهلاك ذرّيّتهما: شدّت حبلا حول جسمها وربطت به ولدا صغيرا له منها، ورمت في غيابة بئر عميقة بنفسها، جارّة معها صغيرها. فتأثّر سيّدهما كثيرا بميتتها، وأمسك العبد المتسبّب بفسقه في الكارثة، فشدّ وثاقه عاريا ومطليّا بالعسل، إلى شجرة تين × يزخر جذعها النّخر بنخاريب نمل لا تنفكّ طوابيره عن الدّبيب بالدّاخل والخارج. فما إن شممن رائحة العسل اللّذيذة المنبعثة من جسمه حتّى تجمّعن عليه، وما فتئن ينشنه بقرصاتهنّ الدّقيقة لا محالة لكن العديدة في نفس الوقت والمستمرّة، حتّى أتين بعد هذا العذاب الممضّ على الرّجل، مستنفدات لحمه وأحشاءه، ومعرّيات عظامه الّتي بقيت وحدها مجرّدة من اللّباب تتألّق ببياضها النّاصع مشدودة إلى الشّجرة المشؤومة.

8-23 لوقيوس في السّوق مرّة أخرى

تخلّينا أيضا عن هذا المقام الملعون، تاركين الفلاّحين نهب الشّجون، وتابعنا السّير طاوين الدّروب طوال يوم بالكمال، حتّى وصلنا منهكين إلى مدينة آهلة ذات بال. هناك طاب حطّ الرّحال والإقامة لأولئك الرّعاة، إذ بدت لهم مخبأ آمنا بمنجى من التّتبّعات، وتدعو إلى العيش بها لما اشتهرت به من وفرة

(1) قصّة العبد خائن زوجته: هنا يبدو الرّبط ضعيفا.

الخيرات. بعدما أراحوا أجسام الدّوابّ ثلاثة أيّام لنبدو أصلح للبيع، قادونا إلى السّوق وأعلن الدّلّال بصوته الجهوريّ عن سعر كلّ منّا. فبيعت الخيل وبقيّة الحمير لشراة أثرياء، وأُفردت مذؤوما يمرّ كثيرون عليّ معرضين في ازدراء. وقد ضقت بتلمّسهم المقيت لتقدير سنّي من أسناني. وسئت بيد أحدهم المرّتة بالرّوث بعدما ظلّت تقشط نواجذي وتعيد بأصابعه النّتان، فعضضتها ملء فمي وكدت أسحقها. رغّب الحادث المحيطين بي عن ابتياعي، باعتباري دابّة شرسة الطّباع؛ فأخذ الدّلّال بعدما أصيبت حنجرته بالبحاح، يتندّر بصوت أجشّ على حسابي بفكه المزاح: × "إلام نعرض سدى للبيع هذا البرذون الخصيّ، منحتّ الحوافر العاجز الدُّهريّ، المشّوه من الأسقام والوحشيّ مع كسل وبلادة، فما يساوي لعمري أكثر من منفضة حجارة؟(1) ألا وإنّي لمعطيه لأيّ يرغب فيه، إن لم يحزّ طبعا على شغافه إتلاف أعلافه!"

8-24 شارٍ لا يجود الدّهر بمثله

مضى الدّلّال بهذا الشّكل يثير ضحك الحضور من حولي؛ لكنّ حظّي القاسي الّذي لم أستطع فراره بعد الفرار منه(2) في كلّ المنطقة، ولا إرضاءه بكلّ نكباتي السّابقة، أدار لي عينيه المطفأتين من جديد، فدهاني بشارٍ عثر عليه بنحو عجيب، هو أنسب شخص لوضعي العصيب. اعلموا من هو: مخنّث، ومخنّث عجوز، وفوق ذلك أقرع، لكن مع بضع خصل متدلّية

(1) منفضة حجارة: ruderarium cribrum تلاعب لفظيّ خفيّ، لأنّ فعل rudere يعني "نهق".

(2) فراره/الفرار منه: fugiens/effugere جناس مطلق.

وخطها الشّيب(1). واحدا من ثفالة النّاس. أولئك الشّحّاذين الّذين يطوّفون عبر المدن والميادين الإلهة السّوريّة* قارعين على الصّنوج والشّقشاقات لحملها على التّسوّل(2). سأل الدّلّال عن أصلي مبديا حرصا على شرائي؛ فأجاب أنّي من كبادوقية* ومتين البناء؛ إذّاك سأله عن عمري. فردّ الدّلّال متظارفا بكثير من المكر: "قدّر له المنجّم الّذي حدّد برجه خمس سنين لعمري. لكنّ المعنيّ نفسه أدرى بالأمر، لعلمه بالتّقييد في سجلّات المواليد. ومع علمي بأنّي أقع تحت طائلة قانون كرنليوس* لو بعتك مواطنا رومانيّا على أنّه من العبيد. أقول: اقتن هذا العبد الصّالح استثمارا طيّب المردود. سيخدمك في البيت وخارجه بالتّأكيد." لكنّ الشّاري المقيت استمرّ في السّؤال بعد إيضاحه عن كلّ أحوالي. أخيرا سأل متوجّسا عن طبعي إن كنت سلسا.

8-25 بين الشّاري والدّلّال

فأجاب البائع: "حَملاً ترى أمامك لا حمارا. وديعا في كلّ الأعمال. لا يعرف العضّ ولا الرّمح. حتّى لتحسبنّ لعمري إنسانا عاقلا تقمّص جلد العيْر. وما أيسر أن تتأكّد بنفسك من الأمر: أولجْ رأسك بين فخذيه تختبرْ بسهولة مدى صبره وسعة صدره." واصل الدّلّال بهذا النّحو ممازحته مدركا لهفته. لكنّ صاحبنا فهم سخريته فقال متظاهرا بالسّخط: "تبّا لك يا دلّال الشّؤم واللّؤم، أيّها الأحمق الأصمّ الأبكم. أعمتك الإلهة

(1) مخنّثا...الشّيب: cinaedum calvum quidem cincinnis semicanis capillatum جناس صوتيّ.

(2) التّسوّل بعشتار (أترغاتيس): كان كهّان قُبيلة الخصيان يتسوّلون فعلا بأمّ الآلهة.

السّوريّة* الجبّارة أصل كلّ الكون، وسبازيوس* القدّوس، وبِلّونة * وأمّ الآلهة(1)الإيديّة* مع قرينها أتّيس*، وفينوس* مع حبيبها أدونيس*! منذ ساعة وأنت تستنوكني بتهريجك السّمج وفكاهاتك السّخيفة على حسابي. أتظنّ يا غبيّ أنّي أستودع ربّتي دابّة شموسا، لتقلقل وتلقي بغتة تمثالها القدّوس، فأضطرّ أنا منكودة الحظّ للجري محلولة الشّعر بحثا عمّن يصلح إلهتي الثّاوية بالأرض؟" عنّ لي إذ سمعت ذلك(2) أن أنطلق راكضا كالمهووس ليعزف عن شرائي إذ يراني في قمّة الشّموس. لكنّ الشّاري لما به من اللّهفة حال دون تنفيذ فكرتي، إذ دفع الثّمن لصاحبي حالا، سبعة عشر دينارا، قبضها مسرورا بيسر قرفا منّي بالتّأكيد، وشدّني فورا بنِسْع وسلّمني لفيلبوس* مالكي الجديد.

8-26 اشتراكيّة الهنك والرّنك

استلم هذا عبده الجديد وانطلق يجرّه إلى البيت؛ وهناك هتف من أوّل العتبة: "ها قد جلبنا يا بنات خادما لكنّ اشتريناه، انظرن ما أحيلاه!" كانت البنات المعنيّات في الحقيقة فرقة من المخنّثين، رفعوا فورا أصواتا خنثة متغنّجة، في لغط وهم يستطيرون بهجة، وقد دار لا شكّ بخاطرهم أنّ فتى لطيفا أُحضر حقّا لخدمتهم. فلمّا رأوا أنّ الأمر لا يتعلّق بمهاة أتت نيابة عن فتاة(3)،

(1) أمّ الآلهة الإيديّة: قُبيلة.

(2) إذ سمعت ذلك: لأنّ الكاهن يتحدّث عن نفسه بصيغة التّأنيث.

(3) كما في قصّة إيفجينية الّتي افتدتها أرتميس/ديانة بريم لمّا استعدّ أغاممنون لتقديمها لها قربان تكفير.

بل بحمار أتى بدل الإنسان، عبسوا وألقوا بسيل من النّكات على القهرمان، إذ جلب على حدّ قولهم بعلا له بالتّحقيق لا خادما لهم. وأضافوا: "مهلا، إيّاك أن تستأثري بهذا الغندور المشيق وتستنفديه بل دعي أحيانا لصويحباتك نصيبا فيه." ومضوا في تبادل مثل هذه التّرّهات، ثمّ أدنوني فربطوني إلى معلف؛ وكان يوجد معهم شابّ قويّ البنية ماهر في العزف اقتنوه من المال المشترك المحصّل من مائدة التّبرّعات، كان يحمل الإلهة يجوب بها السّاحات، نافخا في بوقه، وفي البيت يشاركهم أعمالهم ويشتغل خدنا بالشّراكة لهم. فلمّا رآني في البيت، قدّم لي العلف بسخاء وسرور وقال بحبور: "ها أنت أخيرا أتيتَ لتنوب عنّي في عملي التّعيس المضني؛ فدمتَ لأصحابك ورقتَ، وأرحتَ حقويّ المنهكين!" فأخذت أفكّر، وأنا أسمع كلامه في المحن الجديدة الّتي ينتظرني.

8-27 الدّراويش المخنّثون

من الغد خرجوا وقد ارتدوا قمصانا مبرقشة ولطّخوا وجوههم بطلاءات طينيّة، وزوّقوا عيونهم بالأصباغ، ووضعوا عُجُرا ومروطا وتنانير من الحرير. ولبس بعضهم جلابيب بيضاء زُيّنت على مستوى الخاصرتين بهُدب حمراء متدلدلة على الجانبين، وانتطقوا عليها بزنانير، وانتعلوا أحذية صفراء جاديّة. ثمّ أركبوا على ظهري الإلهة ملحّفة بوشاح من حرير لأحملها. وشمّروا عن زنودهم إلى الأكتاف، وامتشقوا سيوفا كبيرة وبلطات ووثبوا في شطح جنونيّ على إيقاع المزمار. بعدما مرّوا بعدّة دُويرات، وصلوا ضيعة أحد الأثرياء. فحالما وطئوا المدخل رفعوا عقيرتهم صاخبين

في هوس مسعور. ظلّوا ردحا يقعّسون رؤوسهم ويلوون رقابهم بحركات سريعة متواترة ويديرون شعورهم المتهدّلة، ويهوون أحيانا على العضلات عضّا. ويشرطون أخيرا زنودهم بسيوفهم ذات الشّفرتين. وسط تلك الغوغاء، بلغ أحدهم ذروة الجذب، فأخذ يصعّد من أعماق صدره أنفاسا متلاحقة، متظاهرا بالدّخول في حالة من الهوس الإلهيّ، والتّشرّب ملء ذاته بالحضرة الرّبّانيّة، كما لو كانت ميزة الحضرة الإلهيّة جلب السّقم والخبل للورى لا جعلهم أفضل وأرقى(1).

8-28 نوبة من الجذب الصّوفيّ

فانظر أيّ جزاء نال من عناية السّماء: في نوبة الوحي الصّاخبة، افترى كذبا وأخذ يقرّع ويتّهم نفسه بارتكاب الرّجس ضدّ الدّين القدس، ويطلب كذلك العقاب العادل لذاته بيديه جزاء فعلاته. ثمّ أمسك أداة خاصّة بأولئك الشّواذّ، سوطا قُدّ من عدّة أشرطة من جلد لم يجزّ صوفه سُحلت ولُفّت على عدد من عظام الغنم، فأخذ يلطع جلده مرارا بعفقاته العنقوديّة. وقد اكتسب من اللّذّة المرجّاة حصانة عجيبة ضدّ ألم الضّربات. حتّى صرتَ ترى الأرض، من فصد السّيوف وجلد السّياط، مضمّخة بدمهم الخنث الخبيث. فوقع في روعي وأنا أرى الدّم ينزف بغزارة من جراحهم هاجس ناغز: ماذا لو اشتهى بطن الإلهة الأجنبيّة دم حمار مثلما يشتهي بعض النّاس حليب أتان؟ × أخيرا توقّف الجماعة عن الجزرة، تعبين وكذلك بلا شكّ شباعا من تمزيق

(1) كما لو كانت ميزة...: هذه اللّمعة تبيّن أنّ كتاب أبوليوس هزل في باطنه جدّ.

أنفسهم. وجمعوا في كيس مفتوح نثار الدّوانيق وحتّى الدّراهم الّتي تبارى عديد من المتفرّجين في التّبرّع بها، وأُعطوا كذلك دنّا من الخمر وحليبا وأجبانا وشيئا من الدّقيق والحنطة، وقدّم البعض شعيرا لمطيّة الرّبّة. سحبوا بلهفة كلّ العطايا وحشوها في أكياس أعدّوها لعائداتهم وفق أصول المهنة، وحمّلوها على ظهري. فسرت مثقلا بحملي المزدوج، كمخزن أطعمة ومعبد في آن واحد.

8-29 فضح الدّجّالين المنحرفين

هكذا مضوا ينهبون المنطقة بأسرها؛ وفي إحدى القرى قرّروا، فرحين بالعائد الأوفى ممّا قدّروا، أن يقيموا مأدبة، تبريكا وتهنئة. فاختلقوا نبوءة كاذبة، وطلبوا من أحد الفلاّحين كبشا سمينا يقدَّم للإلهة السّوريّة* الجوعى قربانا تبات به شبعى؛ وبعد إعداد الوليمة بالتّمام، توجّهوا إلى الحمّام. وما لبثوا أن عادوا منه مصطحبين قرويّا متينا خدلّجا على أتمّ الاستعداد لشغل الحقوين وأسفل البطن، ليشاركهم طعامهم. وبعدما تناولوا شيئا من الخضر ذواقا، استولت عليهم أمام السّفرة رغبتهم الدّاعرة في أحطّ ممارسات الشّبق الحرام. فتحلّقوا وأخذوا يستثيرون بأفواههم الرّجسة الشّابّ العاري المستلقي وسطهم على ظهره. لم تطق عيناي رؤية تلك الفعال المنكرة طويلا. فانبريت مستصرخا: "وامواطنيّ!" فخرج واو مجرّد من بقيّة المقاطع والحروف، واضح حقّا وجهير، ومن الطّراز الذي يختصّ به الحمير، إلاّ أنّه أتى في وقت غير مناسب لا محالة. إذ هبّ من الكفر المجاور جمع من الشّبّان كانوا بالتّحديد يفتّشون عن حمار لهم

سُرق في اللّيل. قالبين الأرض بحثا عنه في كلّ وجر. فحسبوا لدى سماع نهيقي أنّي ضالّتهم مخفاة بمخبئ في تلك الدّار. فاقتحموها متزاحمين بغتة لاسترداد متاعهم على رؤوس الأشهاد؛ وفاجؤوهم متلبّسين بممارسة فواحشهم المقيتة؛ فدعوا على الفور الجيران من كلّ مكان وكشفوا لهم مشهد ذلك الفجور، مثنين بسخرية على تبتّل الكهنة الحصور.

8-30 حِلم اضطراريّ

هالت الجماعةَ الفضيحة الّتي سرعان ما انتشرت بألسنة الجمهور، فجعلتهم كما يستحقّون لدى الجميع مثار البغض والنّفور؛ لذا لمّوا أمتعتهم وغادروا القرية حوالي منتصف اللّيل بغتة. قبل مطلع الشّمس كانوا قد قطعوا مسافة جيّدة؛ ومع الضّحى بلغوا مفازة منعزلة، وبعدما تشاوروا طويلا حولي، استقرّ رأيهم على قتلي. فأنزلوا الإلهة عن ظهري وطرحوها أرضا. ثمّ من كلّ عدّتي جرّدوني، وإلى سنديانة ربطوني، وانهالوا عليّ بسوطهم المزرود بالعظام حتّى أوشكوا أن يقتلوني. توعّد أحدهم بعقري ببلطته لنجاحي لا شكّ في تشويه صفحة عِرضه النّاصعة وسمعته؛ لكنّ الآخرين آثروا الاحتفاظ بي حيّا، لا حرصا على حياتي، بل اعتبارا للتّمثال الثّاوي على الأرض. ثمّ عادوا يحبّقون عليّ الأحمال وساقوني متوعّدين بسيوفهم، حتّى وصلوا مدينة ذات شأن. هناك هبّ، عند سماع قرع الصّنوج ونقر الدّفوف وأنغام الموسيقى الفريجيّة* العذبة، رجل ديّن من سَراة القوم دأب على تكريم الآلهة، وخفّ للقائنا راغبا في استقبال الرّبّة عنده؛ فاستضافنا كلّنا داخل بيته الواسع متزلّفا للإلهة

بالصّلوات والذّبائح.

8-31 الظّبي والكلب والحمار

أذكر أنّي تعرّضت هناك إلى خطر مُرد جسيم: فقد أرسل لمضيّفنا فلاّح من تابعيه هديّةً حصّة من صيده، فخذ ظبي ودك، علّقه الطّبّاخ بدون احتراس قرب باب المطبخ، على ارتفاع بسيط؛ فوثب عليه واحد من كلاب الصّيد وانتشله وفي لمح البصر أفلت فرحا بغنيمته بعيدا عن أعين الحرّاس. لمّا علم الطّبّاخ بضياعه، أنحى على نفسه باللاّئمة بسبب إهماله، واستغرق في التّحسّر والبكاء بلا جدوى؛ ولمّا بدأ سيّده يطلب طعامه، جزع وخشي غضبه، فقبّل ولده الصّغير مودّعا، وأخذ حبلا ليشنق نفسه. لكنّ الخطب لم يخُف على زوجته الوفيّة؛ فهجمت بكلتا يديهاعلى الخرتة المردية، وقالت: "ويحك! أيُطيش صوابَك الجزعُ من مصابك فلا تنتبهَ إلى الحلّ الّذي وضعته عناية الآلهة أمامك؟ × إن تثبُ من يأسك بسبب كبوة حظّك، فاصحُ لنفسك وأصغ إليّ: خذ هذا الحمار الغريب إلى مكان ناء فاذبحه واقتطع منه فخذا كالّتي أضعتها، واطهها جيّدا في المروق المتبّلة الشّهيّة، وقدّمها لسيّدنا بدل فخذ الظّبي."(1) راقت للّئيم فكرة افتداء حياته بموتي وأثنى كثيرا على حكمة رفيقته وأخذ يشحذ سكاكينه للمجزرة.

(1) استبدال فخذ الظّبي بفخذ حمار: في القصّة المنسوبة للقيانوس، الفخذ المهدى لحمار وحشيّ.

الكتاب التّاسع

9-1 أين المفرّ؟

هكذا راح ذلك السّــفّاح الزّنيم يدجّج لنحري يديه الأثيمتين؛ أمام الخطــر الدّاهم المريــع، والدّاعي إلى قرار ســريع، عزمتُ، دون طول التّفكيــر والانتظار، على تفادي المذبحة الوشــيكة بالفرار. فــي الحال قطعــت القيد الّــذي كان يشــدّني واندفعت مطلقا للرّيــح قوائمــي، حاميا ســلامتي بزخّــات من الرّمحــات؛ في لمح البصــر قطعت الــرّواق ركضا إلــى غرفة الطّعام حيــث كان ربّ البيت يتناول مع الكهنة لحم ذبيحة مقدّمة للإلهة؛ فاقتحمتها بــلا تردّد. قالبا في اندفاعي المواعين بل وكذلك المائدة والمشــاعل. فامتعــض ربّ البيــت مــن بعثــرة الأثــاث والتّشــويش الحاصــل وســلّمني برفق لأحد الخدم آمرا بحبســي لنزقي في مكان موثوق، كيلا أكــدّر عليهم من جديد بفورة مماثلة صفــو وليمتهم. بهذه الحيلة المرتجلة حميت بكياسة سلامتي، وأفلتّ من بين يدي الجزّار، فاستولى عليّ الفرح إذ بتّ في حمى سجن يضمن أمني. لكنّ لا شــيء بالتّأكيد يمكن أن يحدث للإنسان وفق خططه إن عاكســه الحــظّ، وما من تدبّر ولا تعقّل ولا عقّار لــردّ أو تعديل قضاء عناية الآلهة المبــرم. فالحيلة الّتــي منحتني، كما بدا لــي، ملاذا مؤقّتا

دهتني بخطر لافع، بل بهلاك واقع، ما له من دافع.

9-2 الحمار الكلِب

فبينمــا ربّ البيــت وضيوفــه يتحادثون فــي المقصف رافعين الكلفــة بينهــم، دخل فجأة غــلام، والاضطراب بــادٍ على وجهه، ليخبر سيّده بأنّ كلبا كلِبا أتى السّاعة من زقاق قريب، ودخل من البــاب الخلفيّ باندفاع غريب، وفي ســورة هياجه، هجم فورا على كلاب الصّيــد، ثمّ اتّجه نحو الإســطبل القريب فوثب بشراســة مماثلة على عدّة دوابّ، ولم ينج منه حتّى سكّان البيت. إذ راح يوزّع عضّاته يمينا وشمالا فخدش مرتيلوس* الهجّان، وهيفايستوس* الطّبّــاخ، وهبنوفيلوس* الفــرّاش، وأبولونّيــوس* الطّبيب، وعدّة خــدم حاولــوا إخراجه؛ ولا شــكّ أنّ العــدوى انتقلــت إلى بعض الــدّوابّ. فهال الأمر كلّ الحاضرين، وخطر ببالهم أنّ ما أبديت من هياج قبل حين يعود إلى إصابتي بنفس العلّة؛ فتســلّحوا، كلّ بما تيسّــر، وتنادوا متحاضّين على الخطر المشترك، وهرعوا وبهم مسّ ممّا نســبوا لي. كانوا ســيقضقضونني دون أدنى شكّ، برماحهم وحرابهــم والفــؤوس ذات الشّــفرتين الّتــي وزّعهــا عليهم الخدم بســهولة، لو لم أر الإعصار يقترب فجأة منــذرا بالويل. فأقتحم في الحال غرفة مالكــيّ. إذّاك أوصدوا عليّ الباب وحاصروا المكان منتظرين، بــدون أيّ خطر عليهم من الالتقاء بــي، أن أفنى رويدا رويــدا من الــدّاء الفتّاك المســتحكم من جســدي. بذلك وجدتُ الحرّيّــة أخيرا، فتلقّيــت بالأحضان نعمة الوحــدة وتهالكت على فراش وُضعت عليه الأغطية، مخلدا إلى راحة نوم بشــريّ لم أذق له طعما منذ لأي.

9-3 الحمار في الاختبار

كان النّهـار قد طلع ونعومة الفـراش قد أزالت عنّي كلّ كلل لمّـا أفقت خفّا نشـيطا؛ فأصغيت إلى الجمع الّذيـن باتوا ضاربين حراســة مشدّدة على بابي، يتناقشـون حول مصيري: "ترى أما زال ذلك الحمار التّعيس فــي هيجانه؟" " بل الأرجح أنّ الدّاء انفثأ من تلقاء نفســه بعــد أن بلغ أوجه." للفصل بين شــتّى الآراء، رأوا أن يحتكمـوا إلى العيان؛ ونظروا من شــقّ بالبــاب فرأوني واقفا في دعة ســليما معافى؛ ثمّ جازفوا بفتح البــاب أكثر ليتحقّقوا أنّي صـرت سلســا. لكنّ أحدهــم، ما إخاله إلاّ مرسـلا من السّــماء لإنقــاذي، أشــار علــى الباقين بهــذا المعيــار للتّأكّد من ســلامة طباعــي: أن يقدّمــوا لــي ســطلا ملئ مــاء قراحا، فــإن أقدمت وشــربت منه كعادتي بانت لهم ســلامتي. وبالعكس إن صددت وصدفت مذعورا عن مرأى الماء ولمســه علمــوا أنّ الدّاء الخبيث ما زال يلازمني: ذلك معيار شائع وارد أيضا في كُتب الأقدمين(1).

9-4 عودة إلى التّرحال

استحســنوا هــذا الرّأي، وقدّموا لــي فورا، في تـردّد وبقيا من توجّس، وعــاء كبيــرا من مــاء عذب فـرات جُلب من نبــع قريب: فتقدّمــت فورا، واثق الخطوة تائقا إلى الماء، مولجا رأســي بشــوق واشــتهاء، وأكببت أعــبّ من ذلك الماء الشّــافي حقّــا. ثمّ لبثت أتحمّــل بمنتهــى الوداعة تربيــت أيديهم على يافوخــي، ولــيّ أذنيّ

(1) معيــار داء الكلــب: لأنّ الكلَب يقترن برهاب الماء؛ وأبوليــوس يهتمّ بالتّاريخ الطّبيعــيّ والطّبّ؛ في "المرافعة"49-52 مثلا يســتفيض في تشــخيص مرض الصّرع وعلاجه. وينسب له كتاب في الطّبّ.

برفق، وجذب زمامي، وغير ذلك من الاختبارات، حتّى أفنّد ظنّتهم، وأبيّن للجميع سلاســتي بما لا يدع مجالا للشّكّ. هكذا نجوت من خطر مزدوج، ومن الغد ساقوني على الطّريق محمّلا بالكشاكيل الإلهيّة لجولة جديدة من التّسوّل المتنقّل على إيقاع الشّنشانات والصّنــوج. بعدما مررنا ببيــوت وقرى عديدة، نزلنا ببلدة شــيدت على أنقاض مدينة كانت غنيّة في الماضي حسبما ذكر السّكّان لم تندثر تماما؛ فنزلنا في أقرب خان، وهناك سمعنا قصّة طريفة حقًّا عن زوج فقير مخدوع أودّ أن تعرفوها بدوركم(1).

9-5 عودة الزّوج المخدوع

كان الرّجل يشــتغل فــي معمل حدادة ويعيــش حياة كفاف بأجــره الزّهيــد لقاء عمله، لكــنّ له زوجة اشــتهرت، رغم أصلها الفقيــر مثلــه، بخلاعة لا تضاهــى. ذات يوم، مــا كاد الزّوج يغدو في الصّباح الباكر إلى عمله حتّى دخل بيتَه خلســة عشــيقها الجســور؛ وبينما العاشــقان منهمكان بطمأنينة في التحامات الغــرام، على حين غرّة عاد إلى البيت الــزّوج المغفّل الّذي لم يكن يدري بشــيء من ذلك ولا حتّى يرتاب بمثله. سُرّ الرّجل إذ رأى الباب مغلَقا من الدّاخل بعفّة زوجته، فطرق على الباب وصفّر ليخبرها بعودتــه. إذّاك خلّصت المرأة الذّكيّة الضّليعــة في هذا النّوع من أفانين الفجور عشــيقها من ضمّتها الحــارّة وأخفته داخل خابية ملقــاة في ركن من الغرفة نصف مخفاة. لكنّها فارغة وما بهم إليها من حاجة؛ ثــمّ فتحت لزوجها وابتدرته وهو يدخل بفجاجة:

(1) قصّــة الــزّوج المخدوع: ربط ضعيف هنــا أيضا وكان بإمــكان أبوليوس دمج القصّة في نسيج روايته.

"هكذا إذن ستبقى تتسكّع ببطالة، وعن شغلك اليوميّ في عطالة، خلو اليدين دون تدبّر معاشنا ولا إحضار شيء لطعامنا؟ بينما أنا المنكودة أكدّ ليلي ونهاري، وأقطّع في عمل الصّوف أوتاري، لأستصبح على الأقلّ القنديل في الدّار. كم تعيش أسعد منّي منعّمة جارتي دفنية* الّتي تتمرّغ منذ الصّباح بشمة مع عشّاقها بالأكل والشّرب متخمة."

9-6 إنّ مكرهنّ عظيم

ردّ الزّوج المزجور بذاك النّحو: "وماذا تقولين في هذا: فإنّ عَرفنا، لانشغاله بقضيّة له، صرفنا، ومع ذلك تدبّرت رزق يومنا. انظري لطفاً إلى تلك الخابية الفارغة دوماً، وتحتلّ بلا جدوى تلك المساحة الكبرى، ولا تصلح في الواقع لغير عوق حركتنا في بيتنا المتواضع. لقد بعتها لأحد بستّة دنانير السّاعة، وها قد حضر ليدفع الثّمن ويأخذ متاعه؛ فهلاّ تحزّمت وساعدتني قليلا على إخراجه من الدّار، لأسلّمه فورا للشّاري؟ قالت الخبيثة بديهةً وهي تطلق ضحكة جريئةً: "يا للزّوج الفذّ والتّاجر الأحذّ الّذي جاد عليّ به حظّي! فما بعتُ السّاعة أنا المرأة قعيدة الدّار، بسبعة دنانير أرخصَ هو عليّ فيه بدينار." هتف الزّوج طافحا بالبشْر بزيادة السّعر: " ومن الشّاري لها بذلك المقدار؟" ردّت: "نزل فيها يا سيّد الشّطّار للتّثبّت من متانتها منذ أوّل النّهار." 9-7 زيْن البعولة وتمام الرّجولة

9-7 المصباح

فالتقف الآخر مرادها ودون خذلان، قام يقول دون توان: "أتريدين

يا سيّدتي معرفة الحقيقة؟ خابيتك هذه جدّ عتيقة، مخدّدة كلّها بشقوق عميقة"؛ والتفت إلى زوجها يقول له كأنّه يجهله: × "وأنت أيّا من تكون يا صاح، هلاّ تفضّلت بإمدادي بمصباح، لأستطيع بعد كشط الأوساخ من داخله كما يرام، معرفة ما إذا كان صالحا حقّا للاستخدام، أم تحسبني ترى أدفع من مال حرام؟ × وبدون أدنى ريبة أو توان، أشعل سيّد العرسان ذبالة المصباح وقال في الآن: "تنحّ أنت أيّها الأخ وابق في دعة هنا حتّى أعطيكها أنا مكحوتة كحتا حسنا." نضا ثوبه وهو يقول ذلك وحمل المصباح، وراح يجلو من على جداره النّخر القُلاح. بينما انكبّ زيرنا الغندور فوق امرأة الحدّاد الحانية على الخابية يشتغل فيها دعكا وسحجا بطمأنينة راضية. أمّا هي فمضت تطلّ برأسها من فوق الخابية مستنوكة زوجها بمكر المومس الدّاهية، مشيرة إلى بقعة قلحاء هنا وأخرى هناك بإصبعها ثمّ تلك مجدّدا ليقشطها، حتّى انتهيا من شغلهما سويّا. فاستلم الحدّاد دنانيره السّبعة رضيّا مرضيّا، واضطرّ التّعيس لأن يحمل الجرّة على رقبته ويوصله إلى بيت عشيق زوجته.

9-8 قراءة الحظّ

مكث كهنتنا الأطهار هناك عددا من الأيّام، يَودكون من السّخاء العامّ، ويتموّلون مقدّمين عرافات عديدة. وقد ابتكروا وسيلة ارتزاق جديدة. ابتدعوا جوابا واحدا لعديد الأحوال، يخدعون به المتوافدين عليهم للسّؤال، حول شتّى المشاريع والأعمال. وقد صيغ الرّدّ على هذا المنوال: "الثّيران مقرونة لحراثة الأرض، ليزدهي غدا زرع يسرّ ويرضي." فإن جاء يسأل من بنيّته الزّواج، قالوا إنّ

لديهم بالضّبط ما يحتاج: المقرن للقران، والزّرع للولدان؛ وإن سأل من عزم شراء أرض كان في الثّيران والمقرن والبذار بشرى بعميم الخير والازدهار. وإذا تلقّى وحي الإلهة قاصد السّفار قيل له إنّ ألين الرّواحل بالانتظار، وأنّ نبت الأرض يعد بالرّبح المحض. وإذا كان يعتزم خوض معركة ضروس أو تعقّب عصابة لصوص وسأل عن جدوى مضيّه في ما نوى، كانت نبوّتهم بشرى النّصر المقدّر: فستنحني رقاب الأعداء للنّير، وسيظفر منهم بالمغنم الطّيّب الوفير. لمّوا على هذه الشّاكلة، بحيلة كهانتهم الباطلة، تحويشة من الأموال الطّائلة.

9-9 أيّتها العير إنّكم لسارقون

لكنّ تكرار الجواب على الاستشارات المستمرّة استنفدهم في النّهاية واستأنفوا الطّريق. فكانت أسوأ من كلّ الطّريق الّتي سلكنا ليلا: مليئة بالمناقع والحُفر، غرِقة هنا تحت غدران من الماء القذر، وزلجة هناك من طبقة من الطّين المذر. وتضعضعت قوائمي من العثرات المتتالية والكبوات المتوالية، ثمّ تخلّصت منها أخيرا إلى ثنيّة في أرض سهليّة. وإذا بكوكبة من الخيّالة المسلّحين تدركنا من الخلف على حين غرّة، ويوقف الفرسان اندفاع مطيّهم بمشقّة مُرّة، ويثبون على فيليبوس وصحبه بشِرّة. ويمسكون تلابيبهم ناعتين إيّاهم بالكفرة الفجرة وينهالون عليهم لكما ويغلّون أيديهم وينذرونهم مشدّدين × أنْ أوْلى لهم أن يُخرجوا الكوب الذّهبيّ مغنم جريمتهم السّوءى، الّذي اختلسوه من على وثار أمّ الآلهة أثناء تظاهرهم بأداء طقوسهم الّتي يمارسونها في الخفاء، ظانّين بوسعهم الإفلات من العقاب بالسّرى سرّا. لاجتياز

الأسوار سحَرا.

9-10 هديّة أم خُلسة؟

ألقى أحدهم على ظهري يده، ودسّها في حضن الإلهة ليفتّشه، فوجد الكوب وأمام الجميع أخرجه. لكنّ الأوباش ما انخذلوا ولا وجلوا، حتّى بعد افتضاح الجريمة النّكراء، بل قالوا ماحكين بضحكة مليئة بالرّياء: "يا للعيب ويا للشّقاء! ما أكثر المحن المتربّصة بالأبرياء! × لمجرّد كوب صغير قدّمته أمّ الآلهة بلطافة لأختها الرّبّة السّورية* هديّة ضيافة، يعامَل أولياء صالحون كأنّهم مجرمون وبأخطر الجرائم يُتّهمون." ومضوا في هذه الخزعبلات لكن بلا جدوى، إذ ردّهم القرويّون القهقرى، وحبسوهم مكبّلين بالأغلال في سرداب السّجن(1) وأعيد الكوب وحتّى التّمثال المحمّل على ظهري إلى منضدة العطايا وكُرّسا للمعبد. أمّا أنا فمن الغد عُرضتُ للبيع مرّة أخرى. فاشتراني طحّان من قرية مجاورة بسبعة دراهم فوق الثّمن الّذي دفعه فيّ فيلبوس من قبل، وحمّلني فور استلامي كمّيّة كبيرة من الحنطة اشتراها في نفس الوقت، ثمّ ساقني على طريق وعرة مليئة بالأحجار وجذاء شتّى الأشجار إلى الطّاحونة(2) مقرّ عمله.

9-11 الآلة الجهنّميّة

هناك كانت عدّة دوابّ قُرنت للّفّ تدير أرحاء في شتّى الاتّجاهات لا كامل النّهار فقط بل وآناء اللّيل أيضا في حركة

(1) سرداب السّجن: Tullianum نسبة إلى تولّيوس (شيشرون). لسجنه شيعة كاتلينا في سراديب.

(2) الجذاء/الطّاحونة: stirpibus/pistrinum جناس استهلاليّ معكوس.

لا تنتهـي، فتحضّر الطّحين اللّيليّ بـدوران الآلات الّتي لا تقرّ ولا تني. أمّـا أنا فأكرم مالكي الجديد وفادتـي، بالتّأكيد كيلا تنفّرني بدايتـي في الخدمة: فقد أعطاني اليـوم الأوّل إجازة وملأ مذودي بالأطعمـة. لكنّ نعيم الرّاحـة والجرش لم يدم أكثـر. فمن الغد شدّني منذ الصّباح الباكر، إلى رحى تبدو أكبر من كلّ الأُخَر، وغمّ وجهي، ودفعني فورا إلى مجرى قناة دائريّة، لأدور دون زيغ باستمرار، قافيـا خطاي في حركة دائريّة متكرّرة محدّدة المدار. لكنّني لم أُبْد استعدادا لتلقّي فنّيّات المهنة، ناسيا رصانتي وحكمتي؛ بل رغم رؤيتـي أكثر من مـرّة، لمّا كنت أعيش بين بني الإنسـان، آلات تدور على نفس المثال، × تسـمّرت في البدء متغابيا في مكاني. أمثّل دور الغفُل الجاهل بالشّغل، معتقدا أنّه سيحيلني لقلّة معرفتي وعدم صلاحيّتي للوظيفة وما شـابهها إلى شـغل آخر لا شـكّ أسـهل، بل قد يدعني أعلـف دون أن أعمل. لكن سُـدى أعملتُ فكـري الذّكـيّ بـل عاد وبالا عليّ، إذ طوّقني فـي الحال عدّة عمّال يحملـون العصيّ. وفيما أنا في غايـة الأمان، وعيناي معصوبتان حتّى ذلـك الأوان، أعطيت إشـارة فجـأة ولغطوا معـا، وانهالوا كلّهـم عليّ ضربا موجعا، حتّى عمهت من الضّجيج واللّطعات، فلم أملك سوى إلغاء مشـروعاتي، وضغطتُ فورا بكلّ جسمي على اللّبّة بفائق الإتقان، مندفعا بخفّة في الدّوران، فأثرت بتغيّر سلوكي المفاجئ ضحك أولئك الفتيان.

9-12 سُخرة العبيد

بعـد مـا انقضى معظـم اليوم، وبلـغ التّعب مبلغـه منّي، فكّوا اللّبّة عنّي، ومن ربقة الآلة المشـؤومة حرّروني، وإلى المعلف

ربطوني. ومع أنّي كنـت مرهقا إلى الآخر، وبأمسّ الحاجة لإنعاش جسـمي الخائـر، وتلفتُ من السّـغب، لبثت مـن فضولي المعتاد فـي غايـة الاندهـاش والعجب، وأرجـأتُ تنـاول طعامـي، الّذي أُحضر غدقاً أمامي، وانصرفت إلى التّفكير، باهتمام وشـيء من المتعة، في نظام هذا المعمل المقيت المعنت. يا آلهة السّـماء! أيّ أنـاس عُجُف اختطّـت جلودهم آثار العفقات الكامدة، ورقّشـت ظهورهـم الضّربات الكادمة. أسـمالهم تظلّل أكثـر ممّا تخفي أجسـامهم. وضع بعضهم شـملة قصيرة حـول الأربية فقط، والـكلّ مرتـدون أطمارا يظهر مـن خلالها عُريهم، وقد وُسـمت بحروف جباههم وحُلقت شـعورهم فلم يبق منها سـوى سبد، وحُجّلت أقدامهم وزادهم بشـاعة هزالهم، وهـرّأ القتام الكاوي أجفانهم حتّى عشـيت أبصارهم ودرنت بأغبرة الطّحين البيضاء المتراكمة أجسـامهم، كما يعفّر المصارعون بالأتربة، قبل النّزول إلى الحلبة(1).

9-13 دوابّ الطّاحونة

أمّـا رفاقي الدّوابّ، فماذا أقـول عنهم وكيف أصف حالتهم؟ كانوا جمعا من البغال العُجُز والجياد العجزة الوُهّن، × مستديرين بالمعلف مغطّسـين فيه رؤوسـهم يجرشـون أكداس التّبن؛ وقد تأكّلت الجـراح المتقرّحة أعناقهم الدّبـرى، ووارب النّخير والضّبح خياشـيمهم التّعبـى، وتقرّحت مـن الاحتكاك المسـتمرّ باللّبّة فهداتهـم، وتعرّت إلـى الضّلوع من الضّـرب المتواصل أجنابهم،

(1) عمّـال الطّاحونة: ربّما عبيد محكوم عليهم. يسـتخدم بلاوتوس عبارة in pistrinum dedere تقريبا بمعنى: الحكم على شـخص بالأشغال الشّاقّة. نجد عند ترنتيوس عبارة مماثلة في "معذّب نفسه" 3: 2

وتفطّســت من طول اللّفّ حوافرهم(1)، واخشوشنت من الدّبَر والهزال وطول الحبس جلودهم. فخفت على نفســي وأنا أرى بؤس رفاقــي الأرقّاء نفس المــآل. وتذكّرت عــزّ لوقيوس الأيّــام الخوالي، وتغشّى اليأس من الخلاص نفسي فأطرقت أرثي لحالي؛ لم يبق لي عزاء في حياتي المعذّبة يسلّيني قليلا سوى جبلّة فضولي، سيما والجميع يتصرّفون ويتكلّمون أمامي بحرّيّة مستخفّين بحضوري. ومــا أخطأ لعمري شــاعر اليونان الخالد قديما، لمّــا أراد أن يقدّم لنا رجلا أريبا حكيما، فجعله يكتســب خُلُقا وفضلا عظيما من زيارة مدن متعدّدة، ومعرفة شعوب متنوّعة. أنا شخصيّا أتذكّر بكثير من الامتنان فترة حياتي الحماريّة، فقد جعلتني تحت ستار هيئتي البهيميّة، ومن خلال التّمرّس بشــتّى الأحوال الحياتيّة، إن لم أقل أحصف حكما، فعلى الأقلّ أوسع علما.

9-14 زوجة الطّحّان

قرّرت بالمناسبة أن أنقل إلى مسامعكم هذه القصّة اللّطيفة الظّريفة قبل ســواها، وهأنذا أبدأ من بداياها. كان ذلك الطّحّان الّــذي امتلكني بماله، وهو، والحقّ يقــال، رجل صالح ومفضال، قد بُلي بزوجة هي شــرّة النّســاء السّــيّئات، فكان يقاسي منها في شــرفه وبيته أمرّ الويلات؛ حتّى أنّي كنت كامل الوقت، أتألّم رثاء لــه بصمت. لم تكن اللّئيمة تخلــو من أيّة مذمّة بل تجمّعت في نفســها كلّ الرّذائل كما تنصبّ كلّ سيول الحشوش في المقمّة.

(1) تفطّســت من طول اللّفّ حوافرهم: لــم تكن صفائح الدّوابّ معروفة في ذلك العصر. تذكّر الفقرة بوصف الخيل المستخدمة في مناجم الفحم الجوفيّة في القرن التّاسع عشر في رواية زولا: جرمينال.

شرسة شكسة، شرّيرة سكّيرة، عنود حقود، جشعة في نهب ما للغير باطلا، ســخيّة في المخزيات تنفق فيهــا مالا طائلا. تناهض الوفــاء وتناوئ الحياء. وقد ازدرت وســفّهت الآلهة قاطبة، وأبدلت بالدّيــن الثّابت دعــوى باطلة، عن إلــه زعمته واحــدا(1)، خادعة بطقــوس جوفــاء مختلقة كلّ النّــاس، وخائنة زوجها المســكين بالانغماس في الخمر من الإبكار، وفي الفجور كامل النّهار.

9-15 لوقيوس وزوجة سيّده

كانــت تلك المــرأة تلاحقني بأذاهــا بحقد غريــب ولا تتناهى، آمــرة قبــل طلوع النّهــار، وهي ما تــزال في الفراش بشــدّ الحمار الّــذي أتى مؤخّــرا للخدمة إلــى الرّحى. وتطلب حالمــا تخرج من غرفتها، ملحّة أن يوسَــع جلدا بحضرتها؛ ولمّا تُسرَّح بقيّة الدّوابّ لــلأكل في موعدها تبقيني ولا تأمــر بربطي إلى المعلف إلاّ أمدا مــن بعدها. وقد زاد فيّ باضطهادها حــبّ اطّلاعي الفطريّ على ســيرتها؛ فأدركت أنّ شــابّا يتردّد على غرفتهــا؛ وكنت أرغب في رؤيــة وجهه رغبة قصــوى، لو ســمحت لطرفــي الغِمامة حتّى بلمحــة عجلى، وما كنت لولاها لأعــدم حيلة لفضح فجور تلك اللّئيمــة بطريقة أو بأخرى. علمت أيضا أنّ عجوزا قوّادة، وكيلتها للمُخزيات ووســيطتها مع الزّناة، تحضر كلّ يــوم ترافقها، وتظلّ معها لا تفارقها. حالما تصل، تجالسها على الفطور وتباريها على احتســاء الخمور، ثمّ تدبّر للزّوج البائس، أســوأ المكائد والدّسائس. ورغــم نقمتي على غلطة فوتيس الّتي حوّلتني حمارا بدل الطّير

(1) دين زوجة الطّحّان: ربّما المســيحيّة (الّتي يشــير ترتلّيانوس في أواخر القرن إلى انتشارها الواسع)، وهي إذّاك أقلّ تشديدا على عقيدة التّثليث. ونجد وصفا شبيها لرجل يستخفّ بالآلهة في "المرافعة" 57

الموعد، كنت أتأسّى عن مسخي المنكود بهذا العزاء الوحيد: هو أنّي، بأذنيّ الطّويلتين ودون أيّ مجهود، أسمع تآمرهما حتّى من بعيد.

9-16 العجوز الشّيطانيّة

في أحد الأيّام، التقطت أذناي لتلك القهرمانة الحاذورة مثل هذا الكلام: "تبدين لي يا مولاتي أهلا بالملام، باختيارك دون استشارتي لذلك الخرع، الّذي يرتجف إن غضّن زوجك السّمج حاجبيه من الهلع، ويطفئ ببلادة حبّه البارد شهوة دمك الواقد. كم يفضُله فيلسِتروس* ذاك الفتى القسيم الكريم ذو الهمّة المتوقّدة، والمتصدّي بعزم لاحتياطات الأزواج فيجعلها عديمة الفائدة. هو وحده أهل، وحقّ السّماء، لينعم بوصال كلّ النّساء، هو وحده أهل لأن يحمل على رأسه تاجا من الذّهب، على الأقلّ لذاك المقلب، الّذي ابتكره بمنتهى النّباهة في الآونة الأخيرة، لزوج هصور شديد الغيرة؛ هاك اسمعي وقارني، بين ذكاء العاشقين المتباينِ.

9-17 قصّة بربروس وأريتة

تعرفين بربروس*: هو في مدينتنا عضو بالمجلس، ويكنيه الشّعب بالعقرب لطبعه الأشرس؛ تزوّج امرأة ذات حسب رفيع وحسن بديع، فأحاطها بحراسة عجيبة واعتقلها في البيت بحذر وريبة." لدى هذه الكلمات الأخيرة، هتفت زوجة الطّحّان مؤيّدة: "وكيف لا؟ أعرفها معرفة جيّدة؛ عن أريتة*، زميلتي في المدرسة، تتكلّمين"؛ قالت العجوز: "إذن فأنت تعرفين قصّتها مع

فيلستروس برمّتها؟" أجابت: "أبدا، لكنّي أتحرّق لمعرفتها؛ أرجوك يا أميمة احكي لي، أوّلا بأوّل كلّ التّفاصيل." فما تلكّأت عجوزنا الثّرثارة وأنشأت: "أراد بربروس هذا، وهو يستعدّ لسفر لا بدّ منه، أن يتّخذ كلّ احتياط لصيانة عفاف زوجته والذّبّ عنه، فنبّه بالأمر في الخفاء، عبده مرمكس* المعروف عنده بأوثق الولاء، وأوعز إليه بمراقبة سيّدته بنحو شامل ووجه كامل. وهدّده بالسّجن والقيود مدى الحياة، وبالذّيّ البطيء جوعا حتّى الممات، إن لامسها مارّا ولو بأنملته أيّ إنسان، وأقسم على ذلك بكلّ الآلهة أغلظ الأيمان. هكذا ترك مرمكس نهْبا للخوف تبيعا دائب اليقظة لزوجته، وانطلق مطمئنّا إلى وجهته(1)؛ فاستحال إذّاك مرمكس من انشغاله بهاجسه النّاغز إلى حارس مهووس وجْوج، إلى حدّ منع سيّدته من أيّ خروج؛ وإذا جلست تتلهّى بغزل الصّوف جلس عندها لا يفارقها؛ وحتّى عندما تروح مساء إلى الحمّام ضرورة يلازمها، ويلاصقها ممسكا بيده أطراف ردائها. كان باختصار يرعى الأمانة الموكولة إليه بأرب يستحقّ كلّ إكبار.

9-18 المال مفتاح الأقفال

لكن ما كان يمكن لفتنة تلك المرأة الكريمة(2) لتخفى عن يقظة فلستروس الضّريمة؛ بل إنّ ذات هذه العفّة المشهورة

(1) تبيعا/مطمئنّا: secutorem/securum جناس مضارع يقوّيه تلاصق الكلمتين في النّصّ، فاللّاتينيّة تعطي حرّيّة كبيرة في ترتيب الكلمات داخل الجملة، وقد نعت بالطّمأنينة الانطلاق بدل الفاعل ونجد أمثلة من هذا الأسلوب في النّصّ وفي العربيّة كبيت الخنساء: ترعى إذا نسيتْ حتّى إذا ادّكرت/فإنّما هي إقبال وإدبار.

(2) فتنة المرأة الكريمة: matronae nobilis pulchritudo ينعت "الكريمة" المرأة أو الفتنة (أرجح)

المجّدة، والحراسة المشطّة المشدّدة، أثارتاه وألهبتاه. فبات على أتمّ الاستعداد لفعل كلّ الصّعاب واحتمال كلّ الشّداد. وشدّ حيازيمه بقواه المجتمعة، لفتح قلعة نظام بيتها المتنعة. ولعلمه اليقينيّ بهشاشة الوفاء الإنسانيّ، وقدرة المال على تذليل كلّ الصّعاب، وعادة الذّهب فتح أصلب الأبواب، اغتنم فرصة لقاء مرمكس على انفراد ففاتحه بحبّه ورجاء شفاء نفسه من العذاب. فقد قرّر وأزمع الموت بعجل، إن لم يظفر بالمحبوب في أقرب أجل؛ ولا داعي لأن يخاف العبد من شيء في هذا الأمر السّهل، إذ يمكنه التّسلّل وحده في اللّيل، مستخفيا بجنح الظّلام إلى داخل البيت، ثمّ الانصراف بعد برهة من الوقت. إلى هذا ومثله من أساليب الإقناع والتّودّد، أضاف إسفينا قادرا على نسف عناد العبد المتشدّد: مدّ يده وأراه مثاقيل ذهبيّة، صلبة حقيقيّة، برّاقة من فرط جدّتها، أعدّ من جملتها عشرين لزوجة مولاه، وعشرة يهبها بطيب خاطر إيّاه.

19-9 حبّ المال وخوف سوء المآل

اقشعرّ مرمكس من ذلك الإمر، الّذي لم يُسمَع بمثله في النّكر، وفي الفور فرّ سادّا أذنيه. لكنّ بريق الذّهب المتّقد لم يبارح عينيه؛ حتّى بعدما نأى وعاد إلى البيت مسرع الخطى، ما انفكّ يرى أمامه سنا تلك النّقود. ويمسك في خياله بالمكسب الطّائل الموعود؛ وظلّت تتقاذف المسكين لجج متلاطمة من الأفكار المتناقضة والنّزعات المتعارضة: هناك الأمانة وهنا المال، هناك العذاب وهنا العذوبة. لكنّ الذّهب في النّهاية غلب خيفة الموت، فحتّى بمرّ الوقت، ما وهن حبّ المال الوبيءُ عنده، بل أقضّ

مضجعه وأرّق ليله؛ كان وعيد سيّده في البيت يستبقيه، لكنّ الذّهب بقوّة إلى الخارج يناديه. أخيرا داس على ذمّته وتخلّص من تردّده مبلغا ما طلب منه أذني سيّدته؛ فما حادت المرأة عن زيغ طبعها وللمعدن المقيت قبلت فورا تأجير عرضها. فأسرع مرمكس يخون أمانته، وهو لا يسع غبطته، متحرّقا لا فقط إلى أن يأخذ المال الّذي رأى وهو يجهل أنّ فيه خسارته، بل حتّى ملامسته، وأخبر فلستروس ببهجة أنّه نفّذ رغبته، باذلا في المهمّة أقصى الجهود، ومطالبا بالحلوان الموعود؛ وأمسكت يد مرمكس المثاقيل الذّهبيّة، هي الّتي ما عرفت قبل حتّى المسكوكات النّحاسيّة(1).

20-9 حتّى أتى هادم اللّذّات

ولمّا جنّ اللّيل قاد إلى البيت بيده، عاشقَنا الجسورَ الّذي أتى متلثّما بمفرده، فأدخله إلى غرفة زوجة سيّده. وبينما العاشقان في أولى العناقات يؤدّيان للحبّ الطّارف الطّقوس، ويشتبكان، مصارعيْن عارييْن، في أولى نزالات فينوس*، إذا بالزّوج يحضر بغتة أمام باب البيت، منتهزا فرصة اللّيل. فيطرق ويصيح ويدقّ بحجر على الباب، وبالتّأخير نفسه يزيد في الارتياب، فيتوعّد مرمكس بأقسى العذاب؛ أمّا هذا فأوقعه الخطب المفاجئ في الاضطراب، وغدا المسكين في حيرته سليب الرّأي والعقل، ولم يستطع سوى التّعلّل بظلام اللّيل، إذ لم يكن جرّاه يجد المفتاح الّذي أخفاه بكلّ عناية حسب دعواه. أمّا فلستروس فحالما سمع الضّجّة التحف بالجلباب، وخرج من الغرفة مسرعا حافي القدمين من فرط

(1) الذّهبيّة/النّحاسيّة: aureos/aereos جناس مختلف يكاد يكون تامّا.

الاضطراب؛ إذّاك أولج مرمكس المفتاح أخيرا في القفل وسارع بفتح الباب، مستقبلا سيّده الّذي لم يزل يرعد ويستشهد كلّ الأرباب؛ وبينما اتّجه بسرعة إلى غرفته، هرّب هو خفية عشيق سيّدته؛ وحالما خلص به أمام العتبة، أغلق البيت وعاد إلى النّوم بمنتهى الدّعة.

9-21 لا يخفى فعل عبد على عين مولاه

كن عند خروج بربروس من الغرفة مع انبلاج النّور، لمح نعلين غريبين تحت السّرير، هما اللّذان تسلّل فلستروس داخل البيت منتعلهما. فداخلته ريبة في ما حدث عند مرآهما. ^ فأسرّها لنفسه ولم يفاتح زوجته ولا أيّا من أرقّائه، والتقطهما فدسّهما خلسة في ثنية ردائه؛ وأوعز فقط إلى عبيده، بشدّ مرمكس وتقييده، وجرّه إلى وسط الميدان، حيث توجّه مسرعا يكاد ينفجر من الفوران، واثقا من الوصول بسهولة من مقاس الخفّين إلى قدم الزّاني. لكن بينما بربروس يمشي في السّاحة مقطّب الحاجبين محتقن الوجه منتفخ الوريد، وقربه مرمكس يرسف في القيود، لم يمسَك لا جرم متلبّسا بالجرم المشهود، لكنّ نفسه تنفطر من ندمه الشّديد، ويثير بهتون الدّمع ومرّ الشّكوى شفقة بلا جدوى، × إذا بفيلستروس يأتي حياله، كان يقصد شأنا آخر فساءه المشهد المفاجئ وما هاله. استعاد ذهنه حالا خطأ سرعته، وحدس بفطنة كلّ تبعته؛ وبثبات جأشه المعهود، عمد إلى إزاحة العبيد، وانهال على مرمكس بجمعي يديه، برفق خلاف المظاهر يقرّع خدّيه، صارخا: × "ويلك أيّها الشّقيّ حانث الأيمان يا شرّ اللّئام، ألا حلّت بك لعنة سيّدك الّذي أرى وكلّ آلهة

السّماء العظام، الّذين انتهكت حرمتهم بيمينك الكاذبة بعدما سرقت أمس نعليّ من الحمّام؛ إنّك لأهل بالبقاء في قيودك حتّى الاهتراء، ومعاناة ظلمات السّجن فوقها وحقّ السّماء." انخدع بربروس بمكر الفتى الموافق للموقف، ومن فرط ثباته ووثوقه، انجرّ بسذاجة إلى تصديقه، وحالما عاد إلى بيته دعا مرمكس إليه، فقدّم له النّعلين عافيا عنه بطيب خاطر وأشار عليه بأن يردّ إلى صاحبهما الخفّين اللّذين عمد إلى سلبهما."

9-22 غاب القطّ فالعب يا فأر

لمّا وصلت العجوز إلى هذا الحدّ من هذرها، هتفت الزّوجة: "يا بخت من تحظى بصاحب مثل ذاك! ويا لتعسي أنا الّتي وقعت على محبّ يخاف حتّى جعجعة الطّاحونة ووجه ذاك الحمار الأدبر هناك." ردّت العجوز: " لا عليك، سأقنع ذاك العاشق الثّبت الجنان، وأحضره لموعدك دون توان!" ثمّ ذهبت واعدة بالعودة مساءً؛ × أمّا الزّوجة مثال العفافِ فأعدّت في الحال عشاءً حفل بمآكل من كلّ الأصنافِ وروّقت أجود الخمور ونقعت اللّحوم في طازج الأمراق، ووضعت الخوان مصفّفة عديد الأطباق؛ باختصار، كمقدم إله كانت تنتظر سيّد العشّاق، إذ صادف أن كان زوجها خارج الدّار، عند جار له قصّار. لذا لمّا فُككتُ من الهُدية مع اقتراب آخر النّهار، وأُعدت بدعة إلى المعلف للاستراحة، لم أفرح لعمري بالحرّيّة من عناء الشّغل قدر فرحتي بإزالة الغمامة، إذ أتيح لي أن أرى بكامل الحرّيّة كلّ فعال تلك المجرمة. توارت الشّمس خلف أقيانوس* لتضيء رُحْب العالم السّفلى، فوصل في الإبّان مصطحبا تلك العجوز السّوءى زير النّساء المقدام. وإن هو إلاّ غلام، ما زال غضّ

الإهاب في مقتبل الشّباب، يزدهي برواء الخدود والوجه الأملود، لم يزل هو بالذّات، فتنة للزّناة؛ فاستقبلته زوجة الطّحّان بجحيم من القبل وبالأحضان ثمّ دعته إلى العشاء الّذي حضّرته(1).

9-23 يرى القذى في عين غيره ولا يرى الخشبة في عينه

فما كاد الشّابّ يمزّ ذواقا من شراب الافتتاح، ويلامس المقبّلات بأطراف الشّفاه، حتّى وصل الزّوج راجعا أبكر بكثير ممّا كان متوقّعا. فراحت الزّوجة الفضلى تستنزل أسوأ اللّعنات عليه وتدعو بكسر كلتا رجليه؛ وأخفت عشيقها وهو يرجف هلعا، شاحبا ممتقعا، تحت قصعة من خشب، ينقّون فيها البرغل عادة وبالصّدفة ملقاة على كثب. بعدما طمست بمكرها الفطريّ معالم جريمتها البشعة، وموّهت وجهها بقناع من الثّقة المصطنعة، سألت زوجها لماذا غادر مائدة أعزّ خلاّنه وحضر قبل أوانه؛ فأجاب بقلب يتوجّع وتنهّد لا ينقطع: × "لم أطق جرم امرأة في طريق الخسار، فلذت بالفرار، فبحقّ الآلهة الأخيار، ماذا دهى سيّدة فاضلة عاقلة مثلها لتمرّغ في أبشع الأرجاس نفسها؟ أستشهد كيريس* هذه وجلالها القدسيّ، أنّي لا أصدّق ما رأيت

---

(1) عشاء زوجة الطّحّان: هنا وفي مواضع أخرى نلاحظ عند أبوليوس اقتران شهوتي البطن والفرج. في الخصيّ 4: 5 لترنتيوس نجد هذا المثل: "بدون كيريس وليبر فينوس باردة" أي بدون طعام وخمر لا غرام، وقد قال شاعر عربيّ: "إذا كان في بطني طعام ذكرتها/ وإن جعت يوما لم تكن لي على ذكر// ويزداد حبّي إن شبعت تجدّدا/ وإن جعت غابت عن فؤادي وعن فكري".

الجنّان استغلى الثّمن: مع ذلك يبدو معقولا (12 دينارا ونصف) مقارنة بالسّعر الّذي دفعه فيلبوس (17 دينارا بل 3. في الملخّص اليونانيّ المنسوب للقيانوس). لكنّ الجنّان كما سنرى فقير جدّا.

من تلك المرأة بعينيّ." أثار كلامه فضول الزّوجة الوقاح، فلم تكفّ عن سؤاله بمزعج الإلحاح، أن يروي لها كلّ الحكاية، بالضّبط منذ البداية، حتّى نزل عند رغبتها في النّهاية، وأخذ يعرض بلاوي بيت جاره غافلا عن مصائب داره.

9-24 حيلة زوجة اللّبابيديّ

"أجل! إنّ زوجة صديقي القصّار، الّتي أحصنت عرضها كما كان يبدو باستمرار، وحظيت دوما بأطيب سمعة، كزوجة تدير بيت زوجها بعفّة، ارتمت في أحضان عشيق بدافع شهوة خفيّة بخفّة، وكرّرت لقاءاتها به سرّا بلا انقطاع، حتّى أنّها اليوم كانت ساعة عدنا من الحمّام للعشاء معه في جماع، بلبلتها عودتنا المفاجئة، فقرّرت بعجلة مضطربة، أن تخفيه تحت قفص من أعواد خيزران محدّبة، ومجمّعة في شكل إسطوانة مقبّبة، ينشرون عليه قطع النّسيج، وتشمّم دخان الكبريت للتّبييض؛ ولمّا رأته بمأمن من العيان، أتت تشاركنا العشاء بمنتهى الاطمئنان. في الأثناء كاد الفتى المُخفى والمغشّى يتلف مختنقا بنشوق الكبريت الثّخين النّفّاذ، حتّى أثار لديه سعوط ذلك المعدن الحمّاز، نوبة متواصلة من العطاس.

9-25 اكتشاف سيّد العشّاق

لمّا سمع الزّوج العطاس آتيا من ناحية زوجته من الخلف، ظنّها مصدره فشمّتها بالعبارة المعتادة حسب العرف، وأعاد مرّة أخرى بل مرارا، حتّى استغرب عطاسها المفرط تواترا وتكرارا، وفي نهاية الأمر، ارتاب في ما يجري، فدفع المائدة ونحّى القفص على

الفور، وأخرج الرّجل وهو يلهث متقطّع الأنفاس بمنتهى العسر؛ فاستشاط غضبا من الإهانة وأمسك بالخنجر يريد الإجهاز على المحتضر، × لو لم أبصُر بالخطر المشترك، فأمنعه بمشقّة من اندفاعه الأخرق العرك، مؤكّدا له أنّ غريمه مائت في القريب الموشك، على غير أيدينا تلقاء نفسه بفعل الكبريت المهلك. فامتثل لا لنصحي بل لمتطلّبات الموقف بالذّات، وأخرجه إلى زقاق قريب وهو بين الموت والحياة. فأسررت إلى زوجته ونصحتها، وفي النّهاية أقنعتها، بترك الدّكّان قليلا واللّجوء إلى إحدى صديقاتها، ريثما تنفثئ فورة شريك حياتها. فقد كان في شدّة حنقه وفورته، يفكّر بلا شكّ في إلحاق أذى بنفسه وبزوجته؛ فزهدت في عشاء صاحبي ولذت بالفرار، وعدت مقرفا إلى الدّار.

9-26 نفاق الزّوجة الخائنة

طوال رواية الطّحّان، طفقت زوجته الصّفيقة الّتي تخونه منذ أمد من الزّمان، تكيل لزوجة اللّبّاد أقذع الشّتائم، وتنعتها بالغادرة الفاجرة شين بنات جنسها في العالم. هي الّتي خلعت الحياء وداست على الميثاق الزّوجيّ، ونجّست بيت بعلها بخزي المبغى العموميّ، وقايضت مختارة شرف الزّوجة باسم البغيّ، مشيرة أيضا إلى كون النّساء الشّبيهات جديرات بأن يحرقن حيّات. لكنّها في نفس الوقت كانت تشعر بوخز جرحها الكتيم ووعيها برجس فعلها الأثيم؛ ولتعجّل بتخليص خدنها من عذاب مخبئه أشارت مرارا على زوجها بالذّهاب باكرا إلى مضجعه. لكنّ زوجها الّذي قطع العشاء وفرّ على الطّوى، ظلّ يطلب بلطف أن تقدّم له عشاءه بالأحرى. فبادرت وإن على كره

تعطيه إيّاه، إذ كانت قد أعدّته لسواه. أمّا أنا فكنت أنفطر كمدا كسير الخاطر، وأنا أفكّر في جرم تلك الماكرة السّابق وثبات جنانها الحاضر، باحثا عن طريقة لإسداء العون لسيّدي بفضح خُدعها أمام عينه، وكشف الفتى القابع تحت القصعة كالسّلحفاة للجميع بإزاحة مكمنه.

9-27 انتقام الحمار

تطلّعت العناية الإلهيّة أخيرا إليّ وأنا من هوان سيّدي في أشدّ العذاب: أتى الشّيخ الأعرج المكلّف بتعهّد الدّوابّ، والّذي يوردنا إلى حوض قريب في مثل هذا الوقت كلّ الأيّام، فقدّم لي عرَضا هذا الحدث الفرصة المرجّاة للانتقام. لحظت عند مروري بجانب القصعة أطراف أصابع العشيق المختفي، بارزة من تحت مخبئه الضّيّق الأجوف، فملت عليها بخفّي ودعستها بأشدّ العنف؛ فزعق من الألم ودحرج القصعة عنه إلى بعيد، وبدا لمرأى من يجهل أمره من جديد، كاشفا عن حيلة تلك المرأة الدّنيئة. لكنّ الطّحّان لم يتأثّر لأذى شرفه أكثر ممّا يجدر به، وللغلام الّذي تسمّر ممتقع الوجه واجفا، أنشأ يقول ببشاشة طلق المحيّا ملاطفا: × "لا تخف يا ابني أيّ أذى منّي؛ ما أنا بالهمجيّ أوالجلف جافي الطّباع الجبّار، ولا أنا بمرديك بدخان الكبريت القاتل على غرار فظاظة القصّار(1)، ولا بمقاضيك وطالب إقامة حدّ الزّنا على غلام بمثل هذه الحلاوة والنّعومة، بل سأعاملك على أساس الشّراكة مع قرينتي. سأطلب عيش الأسرة وفق صيغة المشاع،

(1) ولا...بمؤذيك...القصّار: nec ad/naccinae/necabo جناس. وفي القصّة لم يكن اختناق عشيق زوجة القصّار بتدبير الزّوج المخدوع.

دون تقاسم الأطراف للمتاع، بحيث يجمع ثلاثتنا فراش واحد بلا حجاج ولا نزاع؛ لقد عشت مع زوجتي دوما في أتمّ الوفاق والسّواء، بحيث تعجب كلينا نفس الأشياء من مذهب الحكماء، والحال أنّ روح المساواة والعدل تفرض ألاّ يكون للزّوجة أكثر من حظّ البعل."

9-28 العين بالعين

بمثل هذا الجوّ من المزاح والتّودّد مضى قاصدا مضجعه بالغلام الّذي اضطرّ مكرها أن يتبعه؛ وبعدما أفرد في غرفة أخرى زوجته الّتي لا تضاهيها عفّة أنثى، اضطجع لوحده مع الغلام، مستمتعا بالثّأر لانتهاك عشّه الزّوجيّ أعذب الانتقام. ثمّ لمّا طلع قرص الشّمس السّاطع معلنا ميلاد اليوم الجديد دعا اثنين من أقوى العبيد، ليمسكا عاليا بالفتى، وأخذ يلطعه على ردفيه بالعصا، وقال: × "ويلك، ما زلت طفلا رخوا غضّ الإهاب، تحرم العشّاق فيك زهرة الشّباب، وتتشهّى النّساء بل والحرائر سويّا، وتحلّ ما عقد الزّواج قانونيّا، وتدّعي قبل الأوان صفة الزّاني زير النّسوان!" بعدما أشبعه بهذا النّحو سبّا، وأوسعه فوق ذلك ضربا، رمى به خارج الدّار؛ ففرّ سيّد الزّناة والأزيار موفور السّلامة على غير ما يأمل ويألم مع ذلك لما نال كفليه البضّين في اللّيل والنّهار؛ ولم يمنع ذلك الطّحّان من بعث قسيمة الطّلاق لزوجته وطردها فورا من دويرته.

9-29 الزّوجة تحاول الانتقام

أمّا هي فناهيك عن الشّرّ المركّب في جبلّتها غضبت إلى

أقصى حدّ من إهانتها، وإن تكن عين العدل. وفي أجيج نقمتها، لجأت إلى المألوف من أساليب النّساء: × جدّت في طلب عجوز عظيمة الدّهاء يقال إنّها بعزائمها وأُخذاتها تصنع ما تشاء من الأشياء، فترجّتها بعديد التّوسّلات وأغدقت عليها الهبات، × طالبة منها أحد أمرين: إمّا أن تهدّئ زوجها وتصلح بينهما، وإمّا أن تسلّط عليه روحا شرّيرا أو إحدى خوارق القوى للفتك به إن هو أبى. فما كان من تلك السّاحرة الماهرة والعزّامة القادرة إلاّ أن بدأت في المناورة بأولى فنّيّات صنعتها الماكرة، محاولة تليين الزّوج الحانق من إهانته ودفع نفسه إلى حبّ زوجته؛ ولمّا أتت نتيجة المحاولة بغير ما توقّعت، سيئت من جنّها إلى أبعد الحدود، ودفعها تجاهلهم فضلا عن مبلغ المكافأة المرصود، إلى استنزال شرّ الويلات بالزّوج المسكين ذاته، فحرّضت روح امرأة قُتلت بعنف ضدّ حياته.

9-30. انتقام فظيع

لعلّك أيّها القارئ المدقّق ستؤاخذ روايتي وتعترض وتحقّق: "من أين لك، يا حمارنا الفطن، بمعرفة ما كانت المرأتان تحيكان في الخفاء حسب روايتك، وأنت حبيس جدران طاحونتك؟" هاك إذن كيف علمتُ أنا الإنسان الطُّلَعة المتشكّل في صورة الحيوان كلّ ما دُبّر ضدّ صاحبي الطّحّان. حوالي منتصف النّهار، ظهرت بغتة داخل الطّاحونة امرأة امتُقعت سحنتها من أثر الحبس وحزن نفسها المأفونة، لا تكاد تسترها خرقة رثّة مثيرة للرّثاء، حافية القدمين بدون أيّ نوع من الوقاء، زادها بشاعة ذبول كلون البقس ونحول، تتدلّى أمام وجهها، مخفيةً معظمه، خصل

متفرّقة مغبّشة ممّا حُثي عليها من الرّماد. فألقت وهي في تلك الحال يدها برفق على الطّحّان، كأنّها تريد مسارّته ببعض الكلام، واقتادته إلى غرفته، فأوصدت الباب ومكثت لأيا بصحبته. لكن لمّا كانت الحنطة الّتي سُلّمت للعَملة قد نفدت، ولزم طلب المزيد، وقف أمام الغرفة نفر من العبيد، وأخذوا ينادون سيّدهم لطلب التّكملة، لمواصلة شغل العَملة. بعدما نادوا مرارا وبأعلى أصواتهم، ولا ردّ لسيّدهم على نداءاتهم، أخذوا يقرعون الباب بقوّة، وحيث كان موصدا بعناية فائقة، ولخوفهم أن يكون حصل مكروه، بكرّة قويّة دفعوه، فزحزحوا محوره أو خلعوه، وهكذا فتحوا لهم أخيرا منفذا. فلم يعثروا في أيّ مكان على تلك المرأة، ورأوا سيّدهم يتدلّى مشنوقا بلا حياة من العارضة#؛ ففكّوا رقبته من العقدة، ونقلوه منتحبين بأشدّ الأسى واللّوعة، ثمّ غسّلوه، وبعد أداء مراسيم المأتم حملوه، في موكب حاشد من المشيّعين ليدفنوه.

9-31 نتيجة الكارثة بالنّسبة للحمار

من الغد هرعت بنته من قرية مجاورة تزوّجت فيها قبل ذلك بفترة، حزينة سافعة شعرها المحلول ولاطمة صدرها على نوبات متواترة. علمت بنكبة أسرتها دون أن يخبرها أيّ ناع بها إذ ظهرت لها في المنام صورة أبيها في حالة يرثى لها، وعنقه لا تزال مشدودة في خرتتها. فكشف لها جريمة زوجته بكلّيّتها: زناها ورقاها، وكيف راح بعدما سلبه الحياة أحد الأرواح إلى عالم الظّلال والأشباح. ولمّا تمادت في تعذيب نفسها بالنّواح، اجتمع إليها بعض أقرانها فخفّفوا من أشجانها. فكفّت عن النّحيب

في آخر الأمر، وبعدما أنهت في اليوم التّاسع الطّقوس عند القبر، وضعت التّركة في المزاد بما في ذلك العبيد والأثاث المنزليّ وكلّ الدّوابّ. هكذا فُرّق بفعل صروف الدّهر بيت واحد، وفق مصادفات البيع الّتي لا يستطيع التّنبّؤ بها أحد؛ فيما يخصّني، ابتاعني جنّان فقير بخمسين درهما وبالغلاء^ حسب قوله لكنّه كان يبغي الحصول بعملنا المشترك على كفاف يومه.

9-32 عند الجنائنيّ

يبدو لي أنّ المقام يقتضي منّي عرضا للائحة خدمتي هنا أيضا؛ كان سيّدي يحمّلني كلّ صباح كثيرا من الخضرة، لأنقلها إلى المدينة المجاورة؛ هناك بعد تسليمها للباعة واستلام السّعر، يقفل راجعا إلى جنّته راكبا ظهري. وبينما يكبّ محنيّا على العزق والرّيّ وبقيّة الأعمال، أظلّ طوال الوقت بلا شغل مخلدا إلى الرّاحة ناعم البال؛ لكن بانصرام دورات الأفلاك بانتظام، ومرور الأيّام والشّهور، هوذا الحول تولّى ومال من بعد مستلذّات الخريف طيّبة العصير، إلى صقيع برج الجدي والشّتاء ذي القرّ والزّمهرير. وتحت الأمطار المستمرّة، وجليد اللّيالي القرّة، كنت مربوطا في الهواء الطّلق، في مربض بلا سقف يوقّي(1)، أتعذّب بلسع البرد المستمرّ، إذ لم يكن بمقدور مالكي لشدّة الفقر، أن يجهّز لنفسه ناهيك عنّي، سقفا من الخوص أو أصغر كنّ، بل كان يقنع بقضاء العمر تحت ظلّة من أوراق الشّجر. زد على ذلك ما أعاني كلّ صباح من العذاب المردي، وأنا أخوض بحوافري العارية وحلا قارس البرد،

(1) مربض بلا سقف: كما قال أبو الشّمقمق: منزلي الفضاء وسقف بيتي/ سماء الله أو قطع السّحاب.

ومدرا مدبّبا من الجليد ولا أستطيع حتّى ملء بطني بغذائي المعتاد؛ ذلك أنّ طعاما يتوفّر لي ولسيّدي سواء ومتشابها تماما؛ لكنّه أُكُل خمط غثّ: خشّ عتيق رثّ، سليخ مليخ، استغلظ لتقادم العهد بشطئه كالمكنسة، وتسنّه طعم نسغه المرّ المذِر في أوراقه المتيبّسة.

9-33 في ضيافة المزارع

اتّفق في إحدى اللّيالي أنّ مزارعا من قرية مجاورة، أربكه ظلام ليلة غير مقمرة، وبلّلته شآبيب أمطار هامرة، فضلّ السّبيل السُّوى، عاج على جنينتنا وقد كلّ حصانه وونى. فاستُقبل بما يملي الظّرف من الحفاوة، ووجد لدينا كنّا وفّر له، على خلوّه من الرّفاهة، راحة كان إليها بأمسّ الحاجة؛ ورغبة في ردّ جميل مضيّفه البَرّ، وعد بإمداده بأمداد من الزّيتون والبُرّ، من غلّة أراضيه ودنّين من الخمر. وبلا توان، امتطى صاحبي ظهري بلا حلس ومعه غرارة وزقّان فارغان وانطلق لمسيرة ستّين شوطا(1)؛ بعد قطع تلك المسافة، وصلنا إلى المزرعة المذكورة، فاحتفى ربّ البيت بسيّدي فورا، وقدّم له غداء وفرا. وبينا هما يترافقان وبينهما الأكواب، حدث هذا الأمر العجاب: أخذت واحدة من جمهرة الدّجاج تجري وسط فناء الدّواجن وتقوق قواقها المألوف كأنّها تريد أن تبيض. فنظر إليها ربّ البيت وقال: "مرحى يا حلوتي الطّيّبة البيوض! لطالما غذّيتنا بمنتجاتك اليوميّة؛ والآن أيضا تفكّرين كما أرى في إمدادنا بلمجتك الشّهيّة!" ثمّ التفت هاتفا: "هيّا يا غلام، ضع

(1) الشّوط: stadium يساوي 125 خطوة passus، أي ثُمن ميل. والميل mille حوالي 1.5 كلم.

السّلّة المعدّة لإنتاج الدّجاج في ركنها المعتاد." فأحضر الغلام ما أُمر؛ لكنّ الدّجاجة صدفت عن أدحيّتها المألوفة، وتمخّضت أمام قدمي صاحبها بنتاج خديج، يرهص بحرج مريج، إذ لم يكن البيضة الّتي نعلم، بل صوصا مكتمل التّكوين، بريش وبراثن وعينين وحتّى الصّوت شرع يرافق أمّه في الحين.

9-34 نُذر سماويّة

لكن ظهرت عجيبة أكبر وأدهى، حريّة بأن يقشعرّ الجميع منها؛ فقد انشقّت الأرض تحت المائدة المحمّلة ببقايا الغداء، وانبجس من جوفها فوّار دم ثجّاج ترشرشت قطراته الثّقال مرتدّة فضرّجت المائدة. في نفس اللّحظة، وبينما الحضور متسمّرون في عجب ورهبة من هذه النّذر السّماويّة، هرع خادم من مخزن الخمور معلنا أنّ النّبيذ المخزّن فيه منذ زمان فار في الدّنان من الاختمار والغليان، كأنّ تحته أتونا من النّيران. في الآن نفسه رئي ابن عرس يجرّ من الخارج ثعبانا ميّتا بين أسنانه وضفدعة خضراء تنطّ من بين شدقي كلبٍ راع، وكبشا واقفا جانب ذاك الكلب يثب عليه فيرديه خنقا بعضّة واحدة. أثارت تلك العجائب وأخرى مثلها في نفوس ربّ البيت والخدم ذعرا شديدا وحيرة حول ما يجب تقديمه من قرابين كماً وكيفاً لتهدئة آلهة السّماء الغضاب، بم يضحّون قبل، وبماذا بعد، ممّ يكثرون وممّ يقلّون.

9-35 هذي الحياة صراع فيها الضّعيف يداس

بينما الكلّ وجوم يترقّبون كارثة فظيعة وهم راهبون، هرع عبد ليخبر سيّده بحلول أسوإ وأكبر الكوارث بما تملك يده. فقد

كان للرّجل ثلاثة بنين كبار، ذوي أدب وخُلُق وهم له مصدر فخار؛ وكانت تجمعهم صداقة تليدة برجل فقير له عزبة بسيطة. بيد أنّ الأملاك الشّاسعة الخصبةَ الّتي تتاخم العزبةَ بحوزة جار قويّ، شابّ وثريّ، من أسرة أصيلة، لكنّه يسيء استغلال مجد آبائه، ويستمدّ عنجهيّة من شيعته، ويفعل بسهولة كلّ ما يشاء(1) في مدينته. فكان يتعدّى، شأن العدوّ المتعنّت، على أملاك جاره المتواضعة، مقتّلا أغنامه، ومغتصبا ثيرانه، ومتلفا قبل النّضج محصوله؛ وبعدما سلبه كلّ غلّته، بات يرغب في إخراجه من حويزته، ويطالب بالأرض كاملةً مثيرا مسألة حدود باطلةً. فما كان إذّاك من الفلاّح الرّزين في كلّ أحواله، وقد جرّده جشع الغنيّ من جلّ أمواله، وللحفاظ لقبره على الأقلّ على أرض الجدود، إلاّ أن دعا في قلقه الشّديد، جمعا من صحبه لإثبات الحدود. فأتى الإخوة الثّلاثة في جملتهم حاملين لصديقهم في شدّته العون قدر طاقتهم.

9-36 المساعي الحميدة

لكن ما أخاف حضور كلّ أولئك المواطنين ولا أزعج حتّى قليلا خصمه الأهوج، وأبى أن يخفّف غلواء أطماعه أو على الأقلّ إغلاظه في القول؛ بل بينما هم يناشدونه مترفّقين، ويحاولون تليين مزاجه الأرعن متودّدين ومتلطّفين، أكّد فجأة مقسما أغلظ الأيمان بحياته وحياة كلّ عزيز عليه أنّه لا يعير بالا لحضور كلّ الوسطاء وأنّه سيجرّ جاره من أذنيه على أيدي عبيده، ويقذف به بعيدا خارج كوخه. فاستنكر السّامعون هذه

(1) يفعل بسهولة: facile faciens جناس مطلق.

الأقوال بشدّة، وبدون تردّد ردّ أحد الإخوة الثّلاثة بحدّة، أنّه عبثا يعتدّ بثرواته ليُرهب النّاس كما يفعل المستبدّ، فطالما أُتيح أيضا للفقراء، بعون القوانين الثّأر من غطرسة الأغنياء. فكالزّيت للنّار أو الكبريت للحريق والسّوط لجنّيّة النّقمة* كان خطابه لهوج الرّجل أمثل الغذاء. جُنّ جنونه وبلغ الغضب به مداه، فأرعد متوعّدا بالإيعاز بشنقهم جميعا مع قوانينهم، وأمر بكلاب رعاة معدّة لحراسة ضياعه، ضخام ضوار اعتادت تخاطف الجيف الملقاة في الحقول، ورُبّيت كذلك على عضّ من يمرّ على أرضه من أبناء السّبيل، أن تُسرّح وتُطلق عليهم مع تحريشها لتُعمل الفتك فيهم. فما إن حمّشتها إشارة الرّعاة المعهودة وحمّستها، حتّى تألّبت في هيجان مسعور، مروّعة في فوضى من الهرير، وانقضّت بشراسة على الحضور، فأثخنتهم بهجماتها جراحا ومزّقتهم، وحتّى الفارّون ما أعفتهم، بل بوحشيّة مضاعفة تعقّبتهم.

9-37 تعنّت إجراميّ

في غمار الجزرة الشّعواء في الجمع المتدافع، عثر أصغر الإخوة الثّلاثة بحجر فخرّ على الأرض مرتضّ الأصابع، مقدّما وليمة فظيعة للكلاب الوحشيّة الضّارية الّتي حالما وجدت الفتى التّعيس فريسة ملقاة مزّقته إربا. لمّا سمع أخواه صراخه وهو في غمرات الموت هرعا لإغاثته مفجوعين، فلفّا برداءيهما يديهما اليسريين، وأخذا يقذفان وابلا من الحجر لذبّ تلك الكلاب العقر عن أخيهما وإبعادها. لكنّهما ما استطاعا قمع ولا دفع وحشيّتها، وما لبث المسكين أن حشرج وهو في النّزع الأخير،

طالبا أن ينتقما لمقتل أخيهما الصّغير من الغنيّ الملوّث بدماء الكثيرين، ثمّ مات ممزّقا في الحين. إذّاك اندفع الأخوان الباقيان نحو الغنيّ، وفي حماسهما وإقدامهما الجنونيّ، لا ليأسهما من النّجاة بل لفرط اللامبالاة، أخذا يرشقانه بمطر من الحجر. لكنّ ذلك السّفّاح المتمرّس من قبل بجرائم مماثلة عدّة، قذف على أحدهما بحربة فشجّه وسط صدره بشدّة. فلم يهو الفتى وإن أردته الطّعنة على الفور، إذ اخترقته القناة ليخرج جزؤها الأكبر من الظّهر. ومن قوّة ارتطامها استقرّت في الأرض حاملة لصلابتها الجثّة المشكوكة بها. ثمّ إنّ عبدا فارعا قويّا هبّ حاملا لذلك القاتل العون، فرمى من بعيد حجرا على ذراع ثالث الفتية اليمنى، فمرّ بعد فقدان قوّة دفعه محفحفا على أطراف أصابعه، وسقط خلافا لظنّ الجميع بدون إيذاء يده.

9-38 نهاية حزينة

قدّمت هذه النّتيجة الطّيّبة للفتى الكيّس بارقة أمل في الأخذ بثأره. فتظاهر بتعطّب يده وأهاب بخصمه: "تلذّذ بإفناء كلّ أسرتنا، واسق وحشيّتك المتعطّشة الّتي لا ترتوي من دم ثلاثتنا، وانتصر بمجدٍ بقتل مواطنيك. لكن لتعلمُ أنّك مهما وسّعت تخوم أراضيك بسلب أموال الفقير ظلما، سيكون لك جار ما دوما. أسفي على يميني الّتي كانت ستقطع رأسك حقيقة، سقطت ضحيّة القدر الظّالم مسحوقة." فزاد لقوله المجرم عنتا وشهر خنجره وهو في سورة الجنون، وهجم بعنف على الفتى المسكين؛ لكن هيهات هيهات، ما رهواً رخاءً أتى. فخلاف ما انتظر وتظنّى تصدّى له الفتى، وبقبضة شديدة أمسك يده وأدار

سلاحه بضغطة قويّة تجاهه؛ وبعديد الطّعنات المتواترة عجّل إلى الموت بروح الغنيّ القذرة. وليخلّص نفسه من أيدي عبيده المسارعين إليه ردّ إلى نحره الخنجر الملطّخ بدم خصمه. ذاك ما أنذرت تلك الخوارق به من الخطوب. وذاك ما نُقل إلى مسمع الأب المنكوب؛ فما استطاع الشّيخ، وقد ألمّت به كلّ هذه الكوارث قول كلمة ولا حتّى سكب عبرة صامتة. بل أمسك بالسّكّين الّذي قسم به الجبن وأطعمة الغداء الأخرى بين ضيوفه قبل حين. فوجّه إلى نحره عدّة طعنات مثل ابنه المسكين. وانهار على رأسه فوق السّفرة، غاسلا لطخات النّجيع نذير الشّؤم بسيل من الدّم الجديد.

9-39 بين الجنديّ والجنائنيّ

لبث الجنّان حينا يندب حظّ هذه الأسرة الّتي أبيدت بهذا النّحو في لحظة عجلى، راثيا نكبته بشديد الأسى، دافعا لقاء الغداء أدمعا حرّى. ثمّ امتطى ظهري وانطلق بنا رأسا على الطّريق الّتي أتينا عليها، ضاربا يديه الفارغتين كفّا بأخرى. لكن حتّى عودتنا لم تمرّ بسلام؛ فقد اعترضنا رجل فارع القوام، هو على ما يبدو من الهيئة والزّيّ، جنديّ من الجيش الامبراطوريّ، فسأله بلهجة متعجرفة وخيلة إلى أين يقود الحمار الفارغ من أيّة حمولة. لكنّ صاحبي الّذي ما زال تحت وطأة الآلام، والجاهل باللاّتينيّة أصلا مرّ مرّ الكرام؛ فلم يستطع الجنديّ كبح قحته المألوفة، واستشاط غضبا من صمته كإهانة موصوفة؛ فنحّاه من على ظهري بجلده بزرجونة كانت بيده. إذّاك أجاب الجنّان في ضراعة أنّه لجهله بلسانه لا يستطيع فهم كلامه؛ فكان ردّ

العسكريّ باللّسان اليونانيّ: "إلى أين تسير بهذا الحمار؟" أجاب الجنّان أنّه يقصد المدينة الّتي بالجوار. قال الأوّل: "لكنّي بحاجة إلى خدمته: يجب بالأحرى أن ينقل من القرية القريبة أكياسا لقائدنا مع دوابّ أخرى." وفي الحال مدّ يده وأمسكني من الزّمام وأخذ يجرّني. مسح الجنّان الدّم النّازف من الشّجّة الّتي أحدثها برأسه السّاعة ضرب العصا وأخذ يتوسّل إلى العسكريّ ابن بلده بالتّصرّف برحمة ويناشده بأغلى مناه. وأضاف: "ثمّ إنّه حنطور كَلّ لا يصلح لشيء من الأشياء، متداعٍ من أخبث الأدواء، بالكاد يحمل لاهثا من شدّة الإجهاد بضعة حُزم من الخضرة من الجنينة المجاورة، ولا يبدو قطّ أمثل لينقل أحمالا أثقل."

9-40 حيلة الجنّان

لمّا لاحظ أنّ الجنديّ لم يلن لأيّة ضراعة، وازداد بالعكس عنتا على عنت، بل قلب السّرجونة ليشجّ رأسه بأغلظ كعبرة، لجأ إلى آخر وسيلة. نزل وانحنى كأنّه يريد استدرار رحمته متمسّحا بركبتيه، فقبض على كلتا رجليه، ورفعه من على أديم الأرض ليبطحه بكلّ ثقله عليه، ويوسعه من فوره لكما وعضّا وصكّا بمرفقيه، وكذلك ضربا بحجر أخذه من الطّريق على كامل وجهه ويديه وجنبيه. فما استطاع الآخر وقد بُطح على قفاه أن يقاومه أو يتوقّاه؛ لكنّه راح يتوعّده ويعيد غير مداج أنّه إن نهض سيفرمه بسيفه جذذا؛ فعمد الجنّان وقد نبّهه الإنذار إلى انتزاع السّيف، ورميه بعيدا ثمّ عاد إلى ضربه بمزيد من العنف. لذا فإنّ العسكريّ الطّريح العاجز من جراحه عن الإفلات، والّذي لم يجد وسيلة للنّجاة، استخدم الوسيلة الوحيدة الباقية: تماوت؛ ما كان

إذّاك من الجنّان إلاّ أن حمل سيفه وامتطاني، وانطلق بي رأسا بسرعة إلى المدينة دون الاكتراث بالذّهاب إلى الجنينة، فنزل عند أحد رفقته وروى له كلّ قصّته، مع رجاء مساعدته في شدّته، وإخفائه عنده يومين أو ثلاثة مع حماره، حتّى يفلت من القضيّة الجنائيّة باختبائه. فلم ينس صداقتهما التّليدة وهبّ لإجارته؛ فرُفعتُ مثنيّ القوائم إلى المقصورة العليا على السّلالم، ونزل الجنّان إلى الدّكّان السّفليّ حيث كمن في سلّة سدّت فتحتها.

9-41 البحث عن الجاني

أمّا العسكريّ فكما علمت لاحقا قام في نهاية الأمر، كالمستفيق من تعتعة السّكر، لكن في ترنّح، ووهن من ألم ما أصابه من ضرب مبرّح، ووصل وهو لا يكاد يثبت على عصاه إلى المدينة؛ ولحرجه لم يبح لأحد بشيء ممّا جرى له جرّاء خوَره، بل ظلّ يجترّ بصمت هوان غَلَبه واكتفى برواية مصابه لبعض من لقي من أصحابه. فرأوا أن يختفي لبعض الوقت في الثّكنة، خوفا، إلى جانب الفضيحة الشّخصيّة، من قانون الخدمة العسكريّة، بسبب إضاعة سيفه، ويعتنوا هم بعد أخذ أوصافنا بالبحث عنّا والأخذ بثأره منّا. فحدث أنّ جارا غادرا وشى بنا، وأنبأ فورا بمخبئنا؛ فاستحضر الجنود القضاة مدّعين أنّهم أضاعوا في الطّريق إناء نفيسا من الفضّة لقائد الحامية، وأنّ جنّانا لقيه فأبى أن يعطيه ولجأ إلى صديقه ليخفيه. حالما علم القضاة بالضّرر وباسم القائد، حضروا أمام باب ملجئنا، منذرين مجيرنا بتسليمنا، نحن المختبئيْن يقينا عنده، وإلاّ عرّض لحكم الإعدام رأسه. فلم يُجْد التّرهيب معه، ولحرصه على سلامة صديق أمّنه، لم يبح

عنّا بشيء، مدّعيا أنّه لم ير ذلك الجنّان منذ عدّة أيّام. في المقابل ظلّ الجند يؤكّدون مقسمين بحياة قائدهم أنّه يختفي هنالك؛ في النّهاية رأى القضاة إجراء تفتيش لفضح المتّهم المتمسّك بالإنكار. لذا أدخلوا عددا من أعوان الشّرطة والموظّفين وأمروهم بفحص كلّ زوايا البيت بدقّة؛ فأخبروهم أنّ لا أحد بالبيت إنسانا كان أو حمارا.

9-42 الحمار وظلّه

حمي وطيس المشادّة بين الطّرفين، الجنود يؤكّدون وجودنا كأمر محقّق مقسمين باسم قيصر ومعيدين، وهو لا يزيد إلاّ إنكارا وإصرارا، ويستشهد عزّة الآلهة مرارا. لمّا سمعتُ المشادّة والضّجّة المتعالية، عنّ لي أنا الحمار الطّلعة ذي النّفس القلقة، أن أطلّ برقبتي من كوّة بالجدارلاستجلاء سرّ تلك الجلبة، فاتّفق أنّ جنديّا كان بالصّدفة ينظر ناحيتي لمح ظلّي واستشهد الجميع بالمعاينة. فعلت في الحال ضجّة كبرى، وارتقى البعض السّلالم فورا؛ وامتدّت لي يد أمسكتني وكالأسير أنزلتني. عند ذلك أزيل كلّ ظنّ وأخذوا يبحثون بمزيد من التّحرّي في كلّ ركن؛ ولمّا كشفوا غطاء السّلّة وجدوا الجنّان المسكين فأخرجوه وللقضاة سلّموه، فزُجّ به في السّجن بانتظار شنقه علنا حسب أغلب الظّنّ؛ ولم يكفّوا عن السّخريّة لمرآي ضاحكين ملء أشداقهم؛ من ثمّة كذلك نشأ المثل السّائر عن مرأى الحمار وظلّه(1).

(1) الحمار وظلّه: قصّة لإيسوب، نجدها كذلك في خطاب ديمستينس "في السّلم" ولاحقا في "الرّدّ على كلسوس" لأريجينس 3: 1 عن رجل أجّر حمارا وعند الظّهر نام في ظلّه فنازعه صاحبه بدعوى أنّه أجّر الحمار لا ظلّه، وفيما هما يتنازعان فرّ الحمار.

الكتاب العاشر

10-1 الحمار بالزّيّ الحربيّ

لا أدري ما فعل صاحبي الجنّان من الغد. أمّا أنا فاقتادني من المذود، بدون اعتراض أحد، ذاك الجنديّ الّذي تلقّى خير تأديب على فرط هوجه(1)، فساقني على الطّريق محمّلا بأمتعة له من ثكنته، على ما بدا لي، وبكامل الجهاز والعتاد، بالطّريقة العسكريّة. فكنت أحمل خوذة لمّاعة، ودرعا دلاصا يبدو بريقها من بعيد، ورمحا تلفت الأنظار بطول قناتها، وقد رتّب هذه العدّة بأعلى كومة الأكياس، على غرار المحاربين، لا لكونها جزءا من الزّيّ النّظاميّ آنذاك، بل على الأرجح لتخويف المسافرين المساكين. بعدما اجتزنا طريقا ريفيّة غير وعرة وصلنا إلى بلدة، فلم نتوجّه إلى فندق بل نزلنا ببيت خفير(2) ؛ فعهد بي حالا إلى خادم وانطلق عجلا إلى قائده الّذي ينضوي ألف عسكريّ تحت إمرته.

(1) هوجه: impotentia كلمة مزدوجة المعنى، إذ تعني كذلك العجز والخور.

(2) الخفير: decurio رتبة بالجيش، تقريبا كضبّاط الصّفّ حاليّا، يساهم كذلك في الإدارة المحلّيّة للمستعمرات.

10-2 عاشقة ربيبها

تعود لي هنا ذكرى جريمة بشعة اقترفت هناك بعد أيّام من وصولنا، أدوّنها لكم لتقرؤوها بدوركم^: كان لربّ بيت ولد شابّ أحسن تربيته فكان مثال البِرّ والأدب، يودّ كلّ لو أنجبه أو أنجب مثله. ماتت أمّ ولده منذ أمد بعيد، فتزوّج من جديد، وأنجبت زوجته الثّانية ولدا آخر أدرك بدوره الثّانية عشرة مؤخّرا. لكنّ زوجته الّتي غدت في بيت زوجها صاحبة العقد والحلّ بحسنها لا بخُلُقها، حطّت عينها، إمّا لسفه مركّب في طبعها وإمّا مدفوعة بقدر إلى أرذل المخازي، على ربيبها(1). فلْتعلمْ هنا أيّها القارئ أنّك ستقرأ فاجعة لا طرفة، وسترتفع من نعل الملهاة إلى خفّ المأساة. قاومت تلك المرأة طالما بقي حبّها النّاشئ في طور الطّفولة، قواه الّتي لم تستفحل بعد مخفية حمرة خفيفة بمنتهى السّهولة. ثمّ لمّا اجتاح أتون الحبّ فؤادها وأضرمه بناره المستعرة بلا اعتدال، استسلمت للإله الجبّار، فتظاهرت بالمرض مموّهة جرح الرّوح بسقم الجسد. لا أحد يجهل فعلا أنّ أعراض ذُويّ الصّحّة والوجه تتشابه تماما عند المرضى والعشّاق: من شحوب وامتقاع، وعيون ذبلى، ورُكَب تعبى، ونوم يغلب عليه الاضطراب وتنهّد ملؤه العذاب يزيد حرقته السّقام؛ حتّى لتخالها ببساطة نهبا لنوبات الحمّى لولا بكاؤها. فواسخفَ عقول الأطبّاء وجهلهم، لِم هذا النّبض المضطرب وهذا الامتقاع، لِم اللّهاث المعنّى والتّقلّي على الجانبين بلا انقطاع؟ وما أيسر تشخيص

(1) قصّة عاشقة ربيبها: ربط ضعيف هنا أيضا. من الأمثلة الأسطوريّة الشّهيرة قصّة فيدرة مع هيبوليتوس في تراجيدية يوريبيدس (وهي أكثر رومنسيّة)، ويشير إليها أبوليوس في "المرافعة": 79

الدّاء مع ذلك يا آلهة السّماء، لا على الطّبيب النّطاسيّ لزاما، بل على من يعرف الغرام، إن رأى أحدا يلتهب ولم ير في جسمه اضطراما!

10-3 بوح بالحبّ

في عجزها عن احتمال جنون هواها الّذي كان يخضّ حشاها، قطعت صمتها الطّويل، طالبة إحضار ابنها، وهو اسم كم كان بودّها أن تزيله عنه كيلا يذكّرها بخزيها؛ ودون توان لبّى الفتى أمر أمّه المريضة، وقصد غرفتها مغضّن الجبين كالشّيخ من الأحزان، مؤدّيا واجب الطّاعة المستحقّ لزوجة أبيه وأمّ أخيه. أمّا هي فأعياها عذاب صمتها الطّويل واستمرّت في حيرتها كالغريق بين الأمواج متأرجحة، كلّما بدا لها لفظ مناسبا للظّرف عادت فاستبعدته مستقبحة؛ إذ لم تزل بها بقيا من الحياء تقاوم مترنّحة؛ وظلّت تتردّد من أين تبدأ. أمّا الشّابّ الّذي لم يكن يخامره ريب، فبعفويّة سألها مطرقا عن سبب مرضها. إذّاك استجمعت شجاعتها، وانتهزت فرصة خلوتهما المشؤومة، وقالت له باختصار بصوت مرتعش ودمع مدرار، ومغطّية وجهها بطرف الإزار: ^ "سبب دائي الحاضر ومصدره، وفي نفس الوقت دواؤه والمنجى الآمن الوحيد لي منه هو أنت؛ عيناك نزلتا عبر عينيّ إلى صميم فؤادي لتضرما فيّ حريقا التهمني حتّى النّخاع. فارحم من تتلف بسببك ولا يزعُك البتّة البرّ بأبيك الّذي ستنقذ زوجته المحتضرة؛ في محيّاك أرى صورته فأهواك وما أخالف سنّة الحياة في ذاك؛ ها أنت بمأمن ولديك فرصة مواتية لفعل ما يلزم! ففي عداد ما لم يقع ما لا أحد يعلم."

10-4 الحبّ والكراهية

صُعق الفتى من الخطب الفجائيّ، ورغم نفوره فورا من ذلك الفعل الإجراميّ، قدّر أنّه لا ينبغي تأجيج صبابتها بصرامة رفض لا توافق الموقف، بل يحسن إرجاؤها بوعد حذر حتّى تخفّف. لذا وعدها متلطّفا، ونصحها مشدّدا أن تتشجّع وتستردّ نضرتها وعافيتها، إلى أن يخلو بغياب أبيه الجوّ للذّة الهوى. وانقلب في الحين بعيدا عن مرآها الأثيم. رأى أنّ كارثة أسرته الكبرى بحاجة إلى رأي أحكم، فتوجّه فورا إلى مربّيه الشّيخ المشهود له بالرّأي السّديد، وبعد طول المداولة لم يبدُ لهما من حلّ أسلم من الإسراع بالفرار للإفلات من ضربة القدر الجبّار. لكنّ المرأة الّتي لم يكن بوسعها تحمّل أدنى تأجيل سارعت باختلاق ذريعة وأقنعت زوجها بأساليب عجيبة بالمضيّ حالا إلى ضياع له بعيدة. فلمّا فعل طلبت بتلهّف، وقد جنّت بحلول الأجل، موعدا للشّهوة الموعودة؛ لكنّ الفتى ظلّ يتعلّل تارة بعذر وطورا بآخر متجنّبا لقاءها المقيت، حتّى أدركت بوضوح من تنوّع معاذيره إخلافه وعده؛ إذّاك حوّلت في حركة عكسيّة حبّها الآثم إلى حقد شرّ منه. لجأت في الحال إلى عبد لها من مخصّصات مهرها، طويل الباع في كلّ شرّ ولكلّ جرم مطلق اليد حرّ، وأخبرته بما تبيّت من المكر والغدر، فلم يبد لهما من حلّ أفضل من إزالة الشّابّ المنكود كلّيّا من الوجود؛ من ثمّ أرسلت عبد السّوء على الفور فأحضر سمّا فتّاكا خلطته جيّدا بالخمر؛ وأعدّت الشّراب القاتل لتقتل ربيبها الغافل.

10-5 أرادت ربيبها وأراد القدر ابنها

بينما الغادران يتشاوران حول الفرصة المناسبة لتقدّم له الخمر، شاءت الصّدفة أن يرجع إلى البيت، من حصّة التّعليم الصّباحيّة، الولد الأصغر، ابن تلك الجرمة، فيجد، وقد ألمّ به عطش إثر تناول غدائه، قدح النّبيذ الّذي دُسّ السّمّ فيه، فيجترعه فورا جاهلا بالكيد الّذي يخفيه. وما إن شرب قدح الموت المعَدّ لأخيه حتّى هوى على الأرض مردى؛ فانفطر لمصرع الولد المفاجئ قلب معلّمه، وأخذ حالا يصرخ ويولول مناديا أمّه وكلّ أسرته؛ وما لبث الجميع أن علموا بحادثة الشّراب المسموم واختلفوا في من يتّهمون بذلك الجرم العظيم. لكنّ تلك المرأة الشّرسة والمثال الفريد لمكر زوجة الأب لم تتأثّر بميتة ابنها الشّنيعة، ولا بعلمها أنّها المتسبّبة فيها، ولا بالكارثة الّتي حلّت ببيتها، ولا برزيّة زوجها، ولا بألم المأتم، إذ كان همّها استغلال مصاب الأسرة للانتقام؛ وعلى الفور أوفدت رسولا ليخبر بخراب البيت زوجها المسافر، فعاد على عقبيه بسرعة؛ وبكلّ جسارة اتّهمت الجرمة علنا ربيبها بقتل ابنها. وما كذبت في ذلك تماما، فقد سبق ولدها الشّابّ للموت المعدّ له؛ لكنّها كانت تدّعي أنّ الأخ الأصغر قُتل على يد ربيبها لرفضها تلبية مراودته الدّنيئة ومحاولته انتهاك عرضها. ولم تكتف بتلك الأكاذيب النّكراء، بل أضافت أنّه هدّدها بسيفه لفضحها خزيه؛ فجزع الأب المنكود المنكوب في كلا نجليه، وجاشت نفسه بالآلام أمام تلك الكرب العظام. كان يرى ابنه الأصغر يُدفن أمام عينيه، ويعلم أنّ الآخر سيُحكم عليه بالإعدام حتما، لمحاولة الزّنا بزوجة أبيه وقتل أخيه؛

وباستمرار زوجته المحبوبة في شكاواها الكذوبة نجحت في تأجيج حقده ضدّ ولده.

10-6 الشّيخ يرفع قضيّة ضدّ ابنه

ما كادت تتمّ طقوس الدّفن حتّى انطلق الشّيخ المنكود من المحرقة رأسا إلى المحكمة، مبلّلا وجهه بدموعه المسترسلة، وممزّقا شيبته المعفّرة بالرّماد. هناك بالتّوسّلات وبالبكاء، بل والتّمسّح برُكب الخفراء، وفي جهله بمكائد زوجته الماكرة، وبكلّ حماس نفسه الفائرة، مضى يجتهد لإلحاق شرّ الأذى بابنه الباقي، مستحلّ الزّنا بمحرمه في فراش والده، وقاتل القريب السّاعي في هلاك أخيه، والسّفّاح المتوعّد بسيفه زوجة أبيه. فأثار تعاطف واستنكار القضاة والجمهور معا إلى درجة أنّ الكلّ ضجّوا ضيقا بطول إجراءات المحاكمة والتّحقيق مع المتّهم في جرم جليّ وتعميات الدّفاع المدروسة طالبين توقيع العقاب على هذا الخطر العموميّ على مرأى من العموم بسحقه بالأحجار. دفع القضاةَ الخوفُ على سلامتهم في حال تطوّر الغليان الشّعبيّ من سخط بسيط في بداياته إلى شغب يخلّ بالنّظام العامّ، إلى طلب تدخّل الخفراء وتهدئة الشّعب ليُبتّ في القضيّة وفق القانون والأعراف بنحو متحضّر من خلال محاكمة، وبفحص حجج الطّرفين، لا أن يدان المتّهم دون الاستماع إليه على نحو وحشيّة الهمج أو تسلّط الطّغاة المستبدّين، فتُترك للأجيال سابقة فظيعة تتمّ في زمن أمن وسلم.

10-7 شهادة حاسمة

لقي هذا الرّأي السّديد القبول، وفي الحال طُلب من المُحضر الإعلان عن عقد جلسة لمجلس الشّيوخ؛ فأتوا حالا وجلس كلّ في مكانه المعتاد الّذي يخوّله قانونيّا مقامه؛ وبطلب جديد من المحضر دخل المدّعي أوّلا. ثمّ نودي على المتّهَم فاقتيد بدوره؛ وأهاب المحضر بالمحامين، وفقا للتشريع الأتيكيّ * وقانون مارس*(1) أن يمتنعوا عن الافتتاحيّات الخطابيّة واستثارة عواطف الجمهور. عرفت كلّ هذه التّفاصيل من عدّة أناس كانوا يذكرونها في أحاديثهم أمامي. أمّا العبارات الّتي حمل بها المدّعي على المتّهم، والوقائع الّتي فنّد بها المتّهم الدّعوى، والخطب والمحاجّات، فلا أستطيع، لوجودي بعيدا عند معلفي، معرفتها ولا يمكنني بالتّالي إخباركم بما لم أعلم؛ لكنّي سأدوّن في هذه الرّسالة ما علمتُ يقينا. ما إن انتهت مرافعة الطّرفين، حتّى قرّرت المحكمة أنّه لا بدّ من تبيين حقيقة الجرائم وصدق الحجّة بوقائع ثابتة، ولا مجال للظّنّ والشّبهات في حكم بمثل تلك الخطورة. لذا يجب أوّلا إحضار ذلك العبد الّذي يعلم وحده على ما يقال حقيقة ما جرى. بدأ الوغد بدون أدنى وجل من فداحة الحكم وحجمه، ولا من مرأى المجلس الموقّر بأتمّه، ولا من إدراكه شناعة جرمه، يدّعي ويؤكّد(2) كحقائق ثابتة أكاذيب اختلقها: × أنّ الشّابّ في غيظه من صدّ زوجة والده وليثأر لإهانته دعاه وأمره بقتل ابنها مع وعده

(1) قانون مارس: قانون مجمع حكماء أثينة Areos Pagos كان ينعقد على هضبة حوكم فيها حسب الأسطورة مارس/أريس أمام آلهة الأولمب لقتله هليروتيوس الّذي حاول اغتصاب ابنته وحكموا ببراءته.

(2) يدّعي ويؤكّد: adseverare et adserere جناس.

بمكافأة سنيّة جزاء صمته، وهدّد في حالة الرّفض بقتله، وأنّه سلّمه السّمّ ليعطيه أخاه بعدما مزجه بيده. ثمّ لارتيابه بأنّه قد يمتنع عن تقديم القدح ويحتفظ به دليلا على جرمه قدّمه في النّهاية للغلام بيده. بإدلاء عبد السّوء بتلك الشّهادة بتأثّر مفتعل وبالطّريقة الّتي تجعلها شبيهة تماما بالحقيقة انتهت إجراءات المحاكمة.

10-8 منعطف في مسار القضيّة

لم يكن يوجد بين الخفراء من بقي لديه عطف على الفتى كيلا ينسب الجريمة باقتناع إليه، ويحكم بأن يخاط في كيس من الجِلد عليه. لمّا باتت جاهزة أخيرا بطاقات الحكم المتماثلة حيث خطّت أزاميل كلّ القضاة بالإجماع نفس العبارة، لتُلقى وفق العادة المتّبعة منذ القدم في صندوق الاقتراع النّحاسيّ، وبالإدلاء بحصى التّصويت يكون قد بُتّ في مصير المتّهم بنحو نهائيّ، ولا يُسمح بعدئذ بتغيير أيّ شيء، بل يُسلّم المدان إلى يد الجلّاد. تقدّم أحد أعضاء المجلس، وهو شيخ طبيب يحظى لدى الجميع بثقة مطلقة ومصداقيّة فائقة فسدّ فتحة الصّندوق بيده كيلا يدلي أحد بدون رويّة ببطاقته، وأعلن للهيئة: × "في مثل سنّي يسعدني حقّا أنّي حظيت لديكم باستمرار بكلّ اعتبار؛ ولن أسمح بارتكاب جريمة قتل محقّقة بإدانة متّهم على أساس تهم ملفّقة، ولا أن يجرمكم، وأنتم تصدرون تحت اليمين حكمكم، كذب عبد شقيّ على أن تنكثوا قسمكم. شخصيّا لا أستطيع أن أنتهك حرمة الآلهة وأخادع ضميري بإصدار حكم جائر. فاعلموا منّي حقيقة ما جرى.

10-9 شهادة الطّبيب

أتاني هذا الوغد قبل أيّام، طالبا منّي إحضار سمّ قتّال، وعارضا مقابل ذلك عينا مائة مثقال. زاعما أنّ مريضا يشكو من داء عضال بحاجة إليه لرغبته في التّخلّص من عذاب حياته#. لكنّي فطنت إلى أنّ عبد السّوء اللّئيم كان يكذب ويلفّق التّعاليل بأقبح وجه. فبادرت وأنا على يقين أنّه يدبّر جريمة، بإعطائه الشّراب؛ نعم، أعطيته إيّاه. لكنّي لم أقبل على الفور الثّمن الّذي قدّمه احتياطا للمساءلة المتوقّعة، وقلت له: "لنتحقّقَ من عدم وجود قطعة مغشوشة أو منقوصة الوزن بين هذه المثاقيل الذّهبيّة، لنضعُها في هذه الصّرّة ولتمهرُها بخاتمك، فنتأكّد غدا بمحضر الصّرّاف من سلامتها." هكذا استدرجته إلى ختم النّقود الّتي أرسلتُ بمجرّد مثوله أمام المحكمة للشّهادة، أحد أعواني لإحضارها بسرعة من العيادة، وهأنذا أعرضها أمامكم. فليرها وليتعرّف على ختمه؛ فكيف يجوز اتّهام الأخ بالسّمّ الّذي اشتراه هذا العبد؟"

10-10 مكافحة بين شاهدين

استولى إذّاك على العبد اضطراب شديد، وحلّت محلّ نضرة الحياة فيه غبرة الأموات وغمر عرق بارد كلَّ أعضائه، × واصطفقت ساقاه، وأخذ يحكّ رأسه هذه النّاحية مرّة وتلك مرّة، وتلعثم وهو يغمغم بكلمات غير مفهومة وقد انفرجت شفتاه؛ بحيث لم يعد أحد يصدّق حقًّا براءته؛ لكنّه ما لبث أن استجمع مكره ورباطته، وأخذ ينفي مع الإصرار على الإنكار والتّمسّك

بتكذيب شهادة الطّبيب. إزاء الطّعن في نزاهته كقاض وفي صدقه أمام العموم، بذل الطّبيب قصارى جهده لتفنيد مزاعم العبد اللّئيم. أخيرا فحص أعوان الأمن بأمر من القضاة يديه، فوجدوا خاتما حديديّا لديه قارنوه بالدّمغة الّتي على الصّرّة فأيّدت المقارنة الشّبهة وعزّزتها. أحضر دولاب التّعذيب والمنصبة وفق عادة اليونان لكنّ العبد رسخ على موقفه بعناد عجيب ولم يفلّ عزمه الجَلْد ولا حتّى النّار.

10-11 حجّة إضافيّة

إذّاك انبرى الطّبيب قائلا: "لا لن أسمح بإعدام هذا الشّابّ البراء ضدّ نواميس السّماء، ولا بأن يتلاعب هذا الشّقيّ بعدالتنا مفلتا من عقاب جريمته النّكراء؛ لذا سأقدّم برهانا دامغا على الحقيقة البيّنة في القضيّة الرّاهنة. لمّا طلب منّي هذا الشّقيّ تحضير السّمّ الفتّاك، رأيت أنّ غاية مهنتي لا تتمثّل في إحضار أسباب الموت لأيّ أحد، فقد تعلّمت أنّ الطّبّ يُحتاج إليه لإنقاذ حياة البشر(1). وخفت إن امتنعت عن إعطائه ما طلب أن أوفّر برفضي غير المناسب فرصة للجريمة؛ فقد يشتري ذلك الشّراب من غيري زاعما أنّه لغرض قتل رحيم، أو قد ينفّذ في النّهاية ما يبيّت من نوايا الغدر بخنجر أو بأيّ سلاح آخر؛ فأعطيته العقّار، لكنّه كان منوّما، وهو عشبة اللّفّاح المعروفة بقوّتها المخدّرة الثّابتة، والّتي تُحدث إغماء شبيها جدّا بالموت. لا غرابة في أن يتحمّل هذا الوغد بيسر في يأسه وعلمه بالعقاب الّذي ينتظره

(1) قضيّة القتل الرّحيم: لا تزال في المجتمعات الغربيّة (بعد علمنة الدّولة فيها) مثار جدل واسع.

وفق سنن الأجداد. ألوان التّعذيب الّتي ترون فهي أهون منه. من جهة أخرى، إن تناول الولد الشّراب الّذي خلطت بيديّ فهو بالتّأكيد حيّ وغارق في النّوم، ولن يلبث أن يخرج من سباته ويعود إلى نور النّهار؛ أمّا إن منعه الموت من ذلك، فلْتبحثوا عن أسباب أخرى لوفاته."

10-12 نهاية غير متوقّعة

استصوب الحضور رأي الشّيخ، وفي الحال وبأقصى سرعة قصدوا الضّريح حيث وُضع جسم الغلام؛ فلم يبق أحد من المجلس ولا من الأشراف ولا حتّى من الشّعب إلاّ وانصبّ هناك متطلّعا باهتمام. وها هو الأب أزاح غطاء التّابوت بيديه؛ فوجد ابنه الّذي كان يخرج في تلك السّاعة بالذّات من إغمائه وينهض عائدا إلى الحياة؛ فضمّه بحرارة بين أحضانه، ودفعه أمام الشّعب والكلمات من الفرح متوقّفة على لسانه. ثمّ أخذه إلى المحكمة ليُعرَض وهو ما زال ملفوفا في أكفانه. إذّاك انكشفت جرائم العبد اللّئيم والزّوجة الغادرة جليّة وتبدّت الحقيقة عارية؛ فحُكم على الزّوجة بالنّفي المؤبّد وتمّ صلب العبد، وتركت مثاقيل الذّهب برضا الجميع للطّبيب الطّيّب ثمنا لرقاده المناسب. هكذا أخذت قصّة ذلك الشّيخ العجيبة الّتي تناقلتها كلّ الألسنة نهاية ترضاها عناية الآلهة. ففي مدّة وجيزة بل في مدى الهنيهة عاد بعد تجربة الثّكل المرّ أبا لشابّين في زهرة العمر.

10-13 في صحبة الأخوين

أمّا أنا فراحت صروف الدّهر تلفّ بي وتقلّبني كلّ منقلب.

فقد حمل ذاك العسكريّ الّذي ابتاعني ولا أحد باعني، وامتلكني بدون دفع الثّمن، بأمر رئيسه الملزم، رسالة إلى رومية موجّهَة إلى الأميرالأعظم؛ فباعني بأحد عشر دينارا لأخوين من الجيرة عبدي رجل واسع الثّروة. كان أحدهما حلوانيّا يحضّر أقراص خبز وكعكا بالعسل، والآخر طبّاخا يطهو لحوما منقوعة في أمراق شهيّة ومتبّلة بأفاويه شذيّة. كانا يعيشان معا في بيت واحد؛ وقد اشترياني لأحمل أواني الطّبخ العديدة اللاّزمة لسيّدهما المتنقّل بين شتّى المناطق ذات العادات الغذائيّة المختلفة. هكذا ضمّني الأخوان شريكا ثالثا في التّعاونيّة، ولم أحظ في أيّ وقت بحظّ كالّذي عرفت في تلك الأيّام الهنيّة. فقد اعتاد صاحباي كلّ مساء، بعد إعداد عشاء فاخر واستخدام طاقم أوانيهما الباذخ، أن يحملا إلى غرفتهما مؤنا كثيرة: هذا بقايا وفيرة من لحم خنزير ودجاج وسمك ولحوم شتّى، وهذا قطائف وكعكا مقرمشا وكنافة وكبيبات ومشبّكات ولوزينجا وحلويّات أخرى. فإذا ما أغلقا الغرفة وتوجّها إلى الحمّام بنيّة الاستجمام وقعتُ على الوليمة المرسَلة إليّ من السّماء فأصيب منها نصيبا؛ فما كنت غبيّا ولا حمارا حقيقيّا لأدع أكلا شهيّا كذاك وأتناول حشيشا جشيبا.

10-14 محاسبة صريحة

تواصلت بنجاح غزواتي ردحا من الزّمن؛ إذ ظللت أختلس بتعقّل واحتشام كمّيّات بسيطة من تلك الأطعمة الوفيرة، كيلا تتطرّق إليهما ريبة في أيّ غشّ من جانب حمارهما. لكن بتنامي ثقتي في خفاء العمليّة، صرت ألتهم منها الشّيء الكثير

والحظّ الوفير، وأتخيّر ألذّها وأبهاها، وآتي على أشهاها؛ فدبّت إلى ذهنيهما ظلال ريبة لا يستهان بها؛ ومع أنّهما لم يشكّا فيّ في تلك القضيّة، أخذا يجتهدان لاكتشاف المتسبّب في السّحوب اليوميّة. ووصل بهما الأمر إلى ارتياب كليهما بأخيه بشأن تلك الاختلاسات الدّنيئة. فصارا يوليان الأمر عناية فائقة وحراسة يقظة، ويُبديان في عدّ قطعهما دقّة متناهية؛ أخيرا نحّى أحدهما الحياء وأهاب بالآخر: × "ليس من العدل ولا المروءة أن تختلس يوميّا خيرة أطعمتي، لتزيد أرباحك ببيعها سرّا بالتّجزئة، ثمّ تطالب بحصّتك من الأصول المتبقّية. إن لم تكن راضيا عن شراكتنا، فبإمكاننا حلّ تعاونيّتنا، مع إبقاء كلّ علاقاتنا الأخرى كأخوين، وإلاّ فستنشئ بيننا الخصومة بشأن المفقودات أشدّ الشّقاق والبين." فردّ الآخر: "بل أنا الّذي أهنّئك وحقّ هرقل على هذه السّفاهة، إذ تختلس يوميّا من مؤني وتستبق شكايتي الّتي طالما كظمتها وكتمت آهتي، كيلا أخاصم أخي حول اختلاسات بهذه التّفاهة. لكن حسنٌ أن أثيرت المسألة بيننا بصريح العبارة، وبدأ البحث عن وسيلة لإنهاء الخسارة، وإلاّ فجّرت بيننا الشّحناء، لو بقيت سرّيّة، صراعات إتيوكليسيّة*(1)."

10-15 اكتشاف السّارق

بعد كثير من التّعاذل وسوء الظّنّ المتبادل، أقسم كلاهما أنّه لم يقترف أيّ غشّ أو سرقة في حقّ الآخر. واتّفقا على البحث عن اللّصّ مسبّب الضّرر المشترك بكلّ الوسائل. فما ظنّا

(1) صراعات إتيوكليسيّة: كالّتي انفجرت حسب الأسطورة بين الأخوين إتيوكليس وبولنكس.

بإمكان الحمار مساكنهما الوحيد أن يعير بالا لتلك المآكل؛ مع ذلك ظلّت أفضل الأطباق تختفي كلّ الأيّام، ولا يدخل الغرفة قطعا ذباب بحجم الحربياوات* اللاّتي كنّ ينهبن مائدة فينيوس* في قديم الزّمان. في الأثناء ظللت أحشو بطني بشراهة من الأغذية البشريّة، منقادا لإغراء تلك المآكل الوافرة الشّهيّة، حتّى ودِك وانتفخ بدني، وطلُق جِلدي ونعُم من السّمن، وزها لون وبري من مأكلي الحسن. لكن حصل لي من غُنمي البدنيّ أفدح الغرم المعنويّ؛ فقد عجب صاحباي من انتفاخ جسمي غير العاديّ، ولاحظا بقاء علفي على حاله يوميّا، فوجّها إليّ انتباههما مليّا. في السّاعة المعتادة، أقفلا الباب كأنّهما ذاهبان إلى الحمّام كالعادة، وأخذا يراقبان من كوّة صغيرة، فرأياني أقبل على الأطعمة المتناثرة بحماسة كبيرة؛ وقفا أمام وليمة حمارهما الظّريفة مشدوهين، وبخسارتهما غير آبهين. وما لبثا أن انفجرا ضاحكين؛ ثمّ دعوا بواحد، فآخر، فالعديد من رفاقهما إلى مشاهدة الذّوق الفريد لدابّة شُهرت بالحسّ البليد. فاستولت على الجميع إذّاك ضحكة صاخبة بلغت سمع سيّدهم المارّ من هناك.

10-16 إنجاز عظيم

بعد الاستفسار عن الحدث السّارّ الّذي يُضحك خدم الدّار، وأُخبر بأمره، أخذ يتفرّج بدوره من نفس الفرجة، وهو في أوج البهجة؛ وانفجر بدوره في ضحكة مدوّية انخضّت لها أمعاؤه من الألم؛ ثمّ أمر بفتح الباب ووقف عن كثب يشاهدني. فمضيت، وأنا أرى وجه الحظّ يفترّ لي أخيرا عن بسمة رضوى،

آكل بلا وجل وبطمأنينة صفوى. مستمدّا من حبور الحضور ثقة قصوى. حتّى أمر سيّدهم لفرط غبطته، بطرافة المشهد وجدّته، باقتيادي بل قادني بيديه إلى حجرة السّفرة، وأمر بتوظيب المائدة وصفّ أصناف الأطعمة، وجبات كاملة وأطباقا تامّة. ومع أنّي كنت قد عبّأت بطني، أقبلت على الأطعمة المعروضة أمامي بشراهة الجوعان، رغبة في استمالته ونيل مودّته. ولاختبار مدى استئناسي أخذوا يتفنّون في إعطائي ما تعاف الحمير إلى أقصى حدّ، من لحوم متبّلة وفراريج مفلفلة وأسماك مسقيّة بأمراق أجنبيّة. تعالت قهقهات الحضور في الأثناء، ثمّ هتف أحد الظّرفاء: "أعطوا للأخ العزيز شيئا من صرف النّبيذ." فعقّب سيّدهم: "ما من لغو الحديث مزحتك يا خبيث؛ فجائز أنّ بصاحبنا رغبة في احتساء قدح من بتع النّبيذ." ثمّ التفت قائلا: "هيّا يا غلام! اغسل جيّدا ذاك الكوب الذّهبيّ، واملأه بتعا وأعط ضيفي الطّفيليّ؛ وأهب به أنّي أشرب على نخبه."(1) في الحال استولت على الحضور حالة من التّرقّب والفضول؛ أمّا أنا، فبدون مخافة وبكلّ وداعة لويت على شكل اللّسان أطراف شفتي، وبشفطة واحدة أفرغت القدح العظيم في حنجرتي؛ فعلا هتاف المتفرّجين يحيّون كلّهم مأثرتي.

10-17 الحمار الأعجوبة

غمرت سيّدهم بهجة عارمةفي الآن، ودعي العبدان اللّذان كانا قد اشترياني، فأمر لهما بأربعة أضعاف ثمني ليتخلّيا له

(1) سقي الحمار الظّريف خمرا: تروى نادرة شبيهة عن الفيلسوف أبكتيتس قبيل موته.

عنّي؛ وسلّمني لمعتوق له من مقرّبيه ميسور الحالة، وأوصاه بإيلائي أكبر العناية. فكان يعاملني بكلّ رفق ويتفانى في تسلية مولاه بعرض مهاراتي عليه، ليزداد حظوة لديه. علّمني أوّلا أن أثبّت على المائدة عند الأكل كوعيّ الأماميّين، وكذلك المصارعة والقفز مع رفع قائمتيّ الأوليين. وإمعانا في الإبهار علّمني التّعبير بالحركات، كأنْ أُبدي الرّفض بردّ رأسي إلى الخلف والقبول بحنيها إلى الأمام، والرّغبةَ في الشّرب، إذا عطشت، بالنّظر ناحية السّاقي وترميش أهداب عينيّ بالتّناوب. كنت أستجيب لكلّ ذلك بمنتهى اليسر؛ ولا غرو، فقد كنت أستطيع فعله بدون أن يعلّمني أحد. لكنّي كنت أخشى، إن أظهرت صدفة قدرتي على الأكل وكثير من الأعمال الأخرى وفق عادات البشر، أن يروا في الأمر نذير شؤم فينحروني كظاهرة غير سويّة ويقدّموني للنّسور وليمة سخيّة. سرعان ما ذاع صيت مواهبي وجلبت لصاحبي بفضل قدراتي الخارقة شهرة ومجدا. فكان يقال عنه: هذا الّذي يملك حمارا يصادقه ويجالسه على المائدة، ويصارع ويرقص كالبشر ويفهم كلامهم ويعبّر عمّا يشاء بالإشارات.

10-18 إكرام الحمار

لكن لا بدّ أن أقول لكم أوّلا، وكان أحرى بي أن أفعل منذ البداية، مَن ومِن أين هو صاحبي: ثياسوس، بهذا الاسم فعلا يدعى مالكي، من أبناء كورنتوس* عاصمة إقليم أخاية*. تقلّب في المناصب متسلّقا سلّم التّشريفات درجة بعد أخرى، كما خوّلته أرومته وجدارته، حتّى عُيّن في منصب حكّام الخمسيّة(1)؛

(1) حاكم الخمسيّة: دُومويِر، وهو أحد الحاكميْن في المستعمرات. وأبو أبوليوس نفسه حسب ما يذكر في "المرافعة" 24 شغل هذه الخطّة في مادورة.

ولتقديم حفل يليق بأبّهة نيله الشّارات السّلطانيّة، وعد بتقديم عرض مصارعين لثلاثة أيّام وسخّر له كلّ ثروته ليكون آية في البذخ. ولحرصه على الصّيت والأبّهة وصل إلى تسّالية* لاقتناء أكرم الحيوانات وأشهر المصارعين؛ وبعد التّرتيب للعرض وشراء كلّ المستلزمات حسب رغبته، أخذ يُعدّ لعودته. فإذا به يعرض عن مركباته الفخمة، ويستخفّ بمقصورات عرباته المطهّمة، المجرورة في آخر الاستعراض بلا جدوى، منها المغطّى ومنها المعرّى، وحتّى خيل تسّالية* ودوابّ بلاد الغال* الّتي يعطيها أصلها الكريم شرفا وقيمة كبرى. وبشغف يمتطيني بعد تزييني بصفائح ذهبيّة ومنضحة أرجوانيّة وشكيمة فضّيّة وإكاف مزخرف وحقاء مزركش وجلاجل عذبة الرّنين. وبين الحين والحين يوجّه لي كلمات حفيّة، ويعلن أنّه من جملة دواعي سروره يعلّق بالأخصّ أهمّيّة على وجدانه فيّ جليسا ومطيّة.

10-19 وللنّاس في ما يعشقون مذاهب

أنهينا رحلتنا، برّا وبحرا، وبلغنا كورنتوس* فهبّ للقائنا جمع غفير من المواطنين، لا حرصا على تكريم ثياسوس حسبما بدا لي بقدر الرّغبة في رؤيتي؛ فقد انتشرت هناك أيضا شهرتي، حتّى بتّ لمتعهّدي مصدر ربح لا يستهان به. ذلك أنّه لمّا رأى الكثيرين يتزاحمون ولعا بي راغبين في رؤية ألعابي، عمد إلى إغلاق الباب، وصار يُدخلهم فرادى، أُحادَ أُحاد، وبما يتلقّى من البقشيش، دأب على تحويش مبالغ يوميّة ليست غير ذات أهمّيّة. كانت بين ضمن ثلّة الزّوّار، سيّدة عظيمة القدر واليسار، تدفع كالآخرين ثمن

الفرجة، وتجد عظيم المتعة في عروضي المتنوّعة؛ وشيئا فشيئا بتواصل الإعجاب وقعت تجاهي في شغف عجاب؛ ودون أن تتناول لعلاج شهوتها الجنونيّة عقّارا، غدتُ كباسيفاية* عُلّقت حمارا، تنتظر ضمّات عناقي، بأحرّ الاشتياق. أخيرا عرضت على مُقيتي أجرة باهظة للمبيت معي ليلة واحدة؛ ودون أن يهمّه إن كان الأمر يحلو لي، وفرحا بربحه فقط سارع بالقبول.

10-20 مفاجأة لطيفة

بعد العشاء والخروج من مقصف السّيّد، وجدنا الهانم تترقّب في غرفتي منذ أمد؛ وأيّ إعداد رائع البهاء، لليلتنا يا آلهة السّماء! ^ سارع أربعة خصيان بإعداد فراش لنا على الأرض من عدّة وسائد منتفشة، محشوّة بريش ناعم، وألقوا على الحشايا بفنّ طنفسة موشّاة بالذّهب وبحُمُر صور^*؛ ثمّ نثروا فوق ذلك نمارق صغيرة لكن كثيرة من تلك الّتي تسند عليها النّساء المرهفات عادة خدودهنّ وجيودهنّ. وكيلا يؤخّروا بطول حضرتهم متعة سيّدتهم، أغلقوا باب الغرفة وانصرفوا؛ في الدّاخل كانت الشّموع المتلألئة بساطع السّنا تضيء ظلمات الدّجى لنا.

10-21 الاستعداد لليلة غرام

تجرّدت إذّاك تماما من كلّ ثيابها، حتّى الشّريط الّذي يشدّ نهديها الفاتنين، ووقفت قريبا من النّور فادّهنت جيّدا ببلسم يحويه قمقم من القصدير؛ وعركتني مرارا على كلّ جسمي، مولية عناية خاصّة بتدليك خطمي. ثمّ غمرتني بجحيم من القُبل المشبوبة، لا كتلك الّتي تلقي بها في دار الرّيبة بنات الهوى

طمعا في النّقود أو زبائنهنّ متمنّعين عن إعطاء المزيد، بل هي قبل صافية صادقة، تتخلّلها هينمات رائقة. "أحبّك"، "أعشقك"، "أنت وحدك من أهوى"، "لم أعد أستطيع بدونك أن أحيا"، وغير ذلك ممّا تتودّد به النّساء إلى أخدانهنّ، ويعربن عن عواطفهنّ؛ ثمّ أمسكتني من زمامي برقّة، وأضجعتني بالنّحو الّذي تعلّمتُ بلا مشقّة، إذ لم يبد لي من جديد أو صعب في العمليّة، سيما وأنا قادم بعد كلّ تلك الفترة، على عناق امرأة بمثل حسنها وفي أوج الشّهوة، إذ كنت قد انتشيت بكؤوس من الخمر الزّكيّة وأجّجت جذوة شبقي بتلك العطور الذّكيّة.

10-22 هذه ليلتي

لكنّ هاجسا ناغزا كان يشغل بالي، إذ كنت أتساءل كيف لي بقوائم بهذه الغلاظة أن أتغشّى امرأة بمثل تلك الغضاضة؛ وكيف لي بضمّ هذه الأطراف النّاعمة البضّة، مشيج الحليب والعسل، بحوافري الفظّة؛ وكيف لي بتقبيل تينك الشّفتين الرّقيقتين النّديّتين برحيق الآلهة بهذا الفم الغليظ العريض الّذي تزيده قبحا هذه الأسنان البارزة كالجنادل النّاتئة؛ أخيرا كيف لامرأة ولو تحرّقت شبقا حتّى الأظفار، بإيواء عضو من مثل هذا العيار؟ × يا ويلتي، أنا الّذي بعد قصم هذه المرأة النّبيلة، سأُلقى إلى السّباع، وأُدرج في ما يُعدّ سيّدي من عروض الصّراع؛ في الأثناء ما انفكّت تزيد من نأماتها الحانية وقبلاتها المتتالية وهمساتها العذاب المخلّلة بغمزاتها الطّراب، وهتفت بي وهي في أوج الهيجان: × "ها أنت بين يديّ يا قمريّي ويا كرواني!"(1) وأبانت

(1) عشق الحيوان: حالات نادرة، لكنّ استخدام البهائم لإرضاء الشّهوة الجنسيّة

لي بقولها ببطلان تصوّراتي وسخف تخوّفاتي؛ فقد عانقتني مع أوثق الاتّصال وتلقّتني كلّي بالكمال. فكانت كلّما انزحتُ رفقًا بردفيها اقتربتْ منّي بشديد التّهيّج، وضغطت على ظهري ملتصقة بي بمزيد التّشنّج؛ حتّى رأيت لعمري أنّ شيئا يعوزني لأشبع شهوتها وفكّرت أنّ أمّ مينوتور* ما طلبت اعتباطا عند عشيق ذي خوار لذّتها. وبعدما انقضت ليلتنا المجهدة المسهّدة، انصرفت المرأة متجنّبة وضح النّهار بعد الاتّفاق على أجرة مساوية لليلة آتية.

10-23 قصّة المحكوم عليها بالإعدام: أخ وأخته

ولم يكن مدرّبي يتحرّج من الجود عليها بلذّتها حسب مشيئتها، من جهة لزيادة عائده، ومن جهة لإعداد عرض جديد لسيّده؛ لذا لم يتردّد في إطلاعه على مشهد جماعنا برمّته؛ فكافأ معتوقه بأجر موفور، وعزم على عرض مواهبي للجمهور. ولاستحالة قبول قرينتي الرّائعة نظرا لمكانتها مشاركتي، ووجود أيّة امرأة أخرى بدلها رغم ضخامة المكافأة، وجدوا بعد البحث امرأة من الرّعاع، صدر من الوالي حكم بإلقائها إلى السّباع،

منتشر في شتّى المجتمعات وكان يوجد عند الرّومان سيما الكلاب والثّعابين بالنّسبة للسّيّدات. وورود قصص في الميثولوجيا عن اتّخاذ آلهة صور دوابّ للاتّحاد بإنسيّات أو إلهات، وعن كائنات نصف بشريّة ونصف حيوانيّة تتشهّى الإنسيّات، كالقنطور أو السّاتور، ذو دلالة. ووردت في مثنويّ جلال الدّين الرّوميّ 5: 1334- 1429 قصّة جارية كانت تقضي وطرها مع حمار سيّدتها، وكانت قد درّبته كما يدرّب الماعز والدّبّ على جماع الآدميّين وتضع قرعة في عضوه حتّى لا يجاوز الحدّ. فعلمت السّيّدة ذلك، ولم تر القرعة، فصرفت جاريتها بحجّة ما، واجتمعت بالحمار بلا قرعة، وهلكت مفتضحة. وهو محرّم في الدّيانات السّماويّة وعقابه الإعدام، وقد انتقد فولتير قسوة القوانين ضدّه، والتّشريعات الحديثة العلمانيّة لا تعاقب عليه إلاّ إن كان فيه تعذيب للحيوان.

لتملأ معي المدرّجات في عرض أمام الأهالي، وقد علمت بخبر عقابها التّالي. تزوّجت فتى كان أبوه وهو ينطلق في سفر قد أوصى زوجته أمّ ذلك الفتى، إذ تركها مثقلا بحملها، أن تقتل فورا ما تلد إن تضع أنثى. وقد ولدت بنتا في غياب بعلها، لكنّ عاطفة الأمومة الفطريّة غلبت فرض طاعة زوجها؛ فسلّمتها لجيران لها لتربيتها، وأخبرت الزّوج عند عودته بأنّها أنجبت بنتا وقتلتها. فلمّا تفتّحت زهرة أنوثتها وآن أوان تزويجها، وجدت الأمّ نفسها عاجزة عن رصد مهر لابنتها يليق بمنبتها، في جهل أبيها بوجودها، ولم تستطع سوى البوح بسرّها الدّفين لولدها، سيما أنّها تخاف كثيرا أن يمسّ أخته، مدفوعا بتوثّب دماء الشّباب إن جمعت صدفة بينهما، في جهلهما معا بأخوّتهما. أدّى الفتى، مثال البرّ والإحسان، واجب طاعة أمّه وصلة أخته بغاية التّفاني؛ وأودع بعناية أسرار أسرته طيّ الكتمان، مؤدّيا على أحسن وجه واجب صلة الرّحم، متظاهرا بفعل ذلك ببساطة من باب الكرم، إلى حدّ إيواء جارته الفتاة البائسة المحرومة من عون أبويها تحت سقف داره، ثمّ تزويجها بصديق حميم تربطه مودّة كبرى به، مع مهرها بسخاء من حرّ ماله.

10-24 الجريمة

لكن ما كانت تلك الإجراءات الموفّقة حسنة النّيّة لتخفى على مشيئة القدر الوحشيّة، فاتّجهت إلى بيت الفتى بتدبيرها الغيرة السّوءى. بدأت زوجته في الحال، وهي نفس المرأة المحكوم بإلقائها إلى الوحوش الضّواري جزاء ما يأتي من الفعال، ترتاب أوّلا في كون الفتاة منافستها الّتي خطفت منها زوجها، ثمّ تكرهها

ومن ثمّة تنصب لها بوحشيّة شراك الرّدى: هذه هي الجريمة الّتي دبّرت لها. اختلست خاتم زوجها، وذهبت إلى الرّيف فأرسلت عبدا تثق بوفائه، لكنّه شرّ النّاس في عين الوفاء ذاته، ليخبر الفتاة أنّ الشّابّ الّذي ذهب إلى ضيعته يدعوها إلى موافاته، مضيفا بأن تأتي على جناح السّرعة بمفردها، ولا أحد بصحبتها. وكيلا ينشأ أيّ تردّد حول المجيء في بالها، سلّمته الخاتم المسروق من بعلها، لتأييد صدق أقواله عند إظهاره: امتثلت الفتاة لطلب شقيقها غير المعروف بتلك الصّفة لأحد غيرها، بعدما رأت الأمارة المعروضة عليها، وسارعت بالذّهاب بدون رفقة أحد حسب التّعليمات المبلّغة إليها. هكذا انخدعت بالحيلة المَريدة، ووقعت في شراك تلك المكيدة: إذّاك عرّت الزّوجة الفضلى شقيقة بعلها، وقد أعمتها الغيرة وأخرجتها عن طورها، وانهالت عليها بجلد جاوز كلّ حدّ: ومع أنّ الشّقيقة بلّغتها الحقيقة، مكرّرة أن لا أساس لظنّتها عن الزّنا سبب نقمتها، ومؤكّدة مرارا صفته كشقيقها، عدّت كلّ ذلك كذبا من تلفيقها، وأولجت قبسا متّقدا بين فخذيها، وبوحشيّة قضت عليها.

10-25 تتبعها الرّادفة

فلمّا أتى النّعي أخاها وزوجها هرعا، فبكيا الفتاة وتوجّعا وتفجّعا، ثمّ نقلاها لتودع مثواها: لم يستطع الفتى تحمّل موت أخته البائس المدبّر وغير المبرّر بصبر وقلب شجاع، وهزّ الألم كيانه إلى النّخاع، وسيطرت عليه مرارة الصّفراء الضّارّة باغية على كلّ الأمشاج، وألمّت به نوبات الحمّى المتلظّية حتّى بدا هو ذاته يحتاج إلى العلاج. لكنّ زوجته الّتي فقدت منذ أمد تلك الصّفة

بفقدانها الثّقة، ذهبت إلى طبيب مشهور بخلوّه من أيّ ضمير، يعرف له النّاس انتصارات مجيدة، وتعدّ قائمة مآثر يده ضحايا عديدة؛ فوعدته بخمسين ألف دانق، مقابل بيع سمّ صاعق، وهي بهذا النّحو من جهتها تشتري موت شريك حياتها. بعدما اتّفقا، تظاهرا بتحضير الشّراب المشهور بالمبارك حسب تسمية العلماء، والصّالح لعلاج الأسقام الباطنة والتّخلّص من بلغم الصّفراء؛ لكنّهما عوّضا وصفة الأطبّاء بأخرى بديلة، هي المعدّة لخلاص بروسربينة*(1)؛ وبمحضر الخدم والأهل والأصحاب راح الطّبيب يمدّ بيده للمريض كوب الشّراب.

10-26 عصفوران بحجر

فما كان من تلك المرأة الجريئة، للتّخلّص من شريكها في الجريمة، والاحتفاظ في نفس الوقت بالمال الّذي وعدته، إلاّ أن أوقفت الكأس أمام الجميع وخاطبته: "لا يا حضرة الطّبيب، لن تعطي من هذا المشروب لزوجي الحبيب، قبل أن تشرب منه أنت نفسك أوفر نصيب. إذ كيف لي بمعرفة ما إن كان يحوي بعض السّموم المزعفة؟ ولا يسوؤك أنت الرّجل الحكيم العالم أن أبدي كامرأة متفانية منشغلة بسلامة زوجي هذا الحرص اللاّزم." بُهت الطّبيب بالمكيدة المدبّرة له من تلك الشّيطانة المَريدة، وطاش صوابه وحار في الأمر، ولم يجد لضيق الوقت فسحة لإعمال الفكر؛ وقبل أن يشي أيّ اضطراب أو تردّد بالسّوء الذي يخفيه، نهل من الشّراب نُغبا تباعا ملء فيه. فأخذ الشّابّ الكوب

(1) الوصفة المباركة/المعدّة: تلاعب بلفظ sacram. وخلاص بروسربينة هو الخلاص من الحياة.

مطمئنّا مثله وشرب ما كان مقدّما له؛ ولمّا انتهى الحكيم بهذا النّحو من خدمته، أخذ يستعجل الرّجوع إلى بيته، لإبطال مفعول السّمّ الزّعاف الّذي تناوله السّاعة بالتّرياق الشّافي. لكن لم يرقْ للمرأة الماكرة، في إصرارها الإجراميّ على إتمام خطّتها الغادرة، أن تسمح له بالابتعاد قدر الأنملة، وقالت: "انتظر سريان الشّراب في الأعضاء وظهور أثر الدّواء"؛ لكن بعدما أتعبها بطول التّوسّل والمناشدة، أذنت له أخيرا على مضض بالمغادرة. في الأثناء كانت أحشاؤه قد تشبّعت حتّى النّخاع من المستحضر الفاتك النّقاع؛ أخيرا وصل بيته بجهد، وقد استولى عليه خدر ثقيل وضنى مُردٍ. وما كاد يروي لزوجته كلّ قصّته، ويوصيها بمطالبة زبونته على الأقلّ بالأجر الموعود لميتة مزدوجة، حتّى لفظ طبيبنا النّطاسيّ أنفاسه في انتفاضة عنيفة وحشرجة.

10-27 حيلة جديدة

لم يبق الزّوج هو الآخر طويلا على قيد الحياة، وبين دموع زوجته المزيّفة المتكلّفة عرف نفس الوفاة؛ بعد دفنه ومرور الأيّام المعدودات الّتي تقام أثناءها الطّقوس للأموات، حضرت زوجة الطّبيب طالبة مكافأة الميتة المثنّاة. أجابت تلك المرأة الثّابتة هي هي حتّى النّهاية، مخفية وجه الصّدق ومبدية مظهره، وبمنتهى الحفاوة، مغدقة عليها الوعود بسخاء، ومتعهّدة بتسليمها الثّمن المتّفق عليه دون إبطاء، لو أمدّتها فقط بقليل من ذاك الشّراب من فضلها لإتمام الصّفقة الّتي بدأت مع بعلها. ما الدّاعي للإطالة؟ وقعت زوجة الطّبيب في الحبالة، مغترّة بسيّء المكر فقبلت بمنتهى اليسر ولاستمالة السّيّدة الغنيّة أسرعت

تجلب من بيتها كلّ علبة السّمّ المعنيّة. وبحصول تلك على مادّة وفيرة لجرائم كثيرة، أطلقت يديها الدّمويّتين تعيثان في الأرض بالطّول والعرض.

10-28 عصفورتان بحجر

كانت أمّا لبنت صغيرة، من زوجها الّذي اغتالته قبل مدّة قصيرة؛ فضاقت بالبنيّة لأنّ القوانين تعطيها كلّ الحقّ في تركة أبيها؛ ولطمعها في كلّ ميراث بنتها، أخذت تُعدّ أيضا لموتها. لوثوقها إذن من مآل إرث الأبناء الأموات، إلى أمّهاتهم المجرمات، أبدت أمّا ما أبدت قبلُ في دور الزّوجة؛ واحتالت لغداء لتهيئة الفرصة، فوجّهت لزوجة الطّبيب وابنتها بنفس السّمّ نفس الضّربة. لكن بينما أتلف الدّاء الفتّاك سريعا روح الصّغيرة الهشّة الدّقيقة وأحشاءها الغضّة الرّقيقة(1)، شهدت زوجة الطّبيب تغلغل إعصار الشّراب المقيت في رئتيها وانتشار دماره على طول مساره، فتشكّكت وما لبثت أن تحقّقت وهي ترى نفَسها يضيق من آثاره، فقصدت بيت الوالي مستصرخة مستجيرة بذماره؛ وأثارت هتاف الجماهير الغفيرة وألحّت لتمكينها من كشف تلك الجرائم الكبيرة. فانفتحت لها في الحال دار وأذنا الوالي. وما إن عرضت منذ البداية كلّ فظائع تلك المجرمة الوحشيّة بفائق العناية، حتّى اعترى ذهنَها تهويم، وتشوّش وتغييم، وزمّت شفتيها بعدما ظلّتا منفرجتين قليلا واستحالت قفقفة أسنانها صريرا طويلا، وتهافتت أمام قدمي الوالي بالذّات بلا رمق من الحياة. لم يسمح ذلك الرّجل المحنّك

(1) الدّقيقة/الرّقيقة: tenuem/tenera جناس مضارع.

بأن ينفسخ بالإرجاء وقع جرائم تلك الحيّة الرّقطاء؛ فأمر بإحضار وصيفاتها على الفور، وانتزع منهنّ تحت التّعذيب حقيقة الأمر. وحكم بإلقائها إلى السّباع. وهو عقاب دون ما تستحقّ بلا نزاع، لكن ببساطة لم يكن في المستطاع، أن يستنبط عقوبة أخرى توازي جرائمها الكبرى.

10-29 رقصة جماعيّة

مع تلك المرأة كنت سأعقد زواجي أمام كلّ الأنظار. فلبثت أنتظر يوم العرض بشديد الجزع والاحتيار، وأكثر من مرّة رغبت في الانتحار قبل أن ينجّسني مساس تلك المرأة المجرمة أو تصمني خسّة ذلك العرض العموميّ بالعار؛ لكن ما كان بدون اليد البشريّة والأصابع بمقدوري أن أجرّد سيفا بحافري المهرّئ المستدير. مع ذلك ظلّ بصيص من الأمل يعزّيني عن منحني الشّداد: فهذا الرّبيع في ساعة الميلاد، وقد وشّى الأرض ببراعم النّوّار المتفتّحة، وكسا الحقول بحمرة المتلألئة؛ وها هي الورود في الموعد تخترق غلافها الشّوكيّ ناشرة في الهواء عرفها الزّكيّ، وستعيدني إلى لوقيوس شكلي الأصليّ. أخيرا حلّ اليوم المحدّد للعرض العموميّ. فقادني مدرّبي إلى مدخل المسرح يتبعني جمهور غفير في جوّ احتفاليّ بهيج؛ وبينما كانت تقدَّم في افتتاحيّة العرض مشاهد استعراضيّة مسلّية من التّمثيل الجماعيّ، لبثت أرصد بنهم من موقفي المؤقّت قرب الباب بساطا نضرا من الأعشاب نبت على المدخل، منعّما بفضولٍ بصري بمشاهدة عرض رائق من خلال الباب المفتوح. راح فتية وفتيات في زهرة العمر، رائعو الجمال أنيقو اللّباس رشيقو الحركات يؤدّون بفنّ واتّساق لوحات رقصة

بيرّوس* اليونانيّة، منثنين تارة في حركة دائريّة، وملتفّين تارة في رتل متماسك، فمتجمّعين في شكل تربيعة، فمنفضّين أسرابا. ثمّ أنهى زمير البوق الختاميّ هذه السّلسلة من اللّوحات الرّاقصة المتنوّعة المتناوبة، فأزيح السّتار وطويت السّجف وأُعدّ الرّكح للمشهد التّالي.

10-30. عرض راقص لمشهد ميثولوجيّ

كان وسطه جبل خشبيّ يشبه جبل إيدا* الشّهير الّذي تغنّى به الشّاعر هوميروس* ينتصب عالي البناء، غُرست فيه أشجار حيّة مخضرّة، ومن أعلى قمّته حيث فجّرت يدا الصّانع عينا تجري مياه مسبطرّة. وعلى سفحه بعض المعاز ترعى الكلأ. وفي زيّ فارس* الرّاعي الفريجيّ*، كان شابّ التحف قميصا أنيقا وتدلّت على كتفيه أطراف حلّة أجنبيّة، ولفّ رأسه بقلنسوة ذهبيّة، يمثّل دور راعي القطيع. ظهر فجأة ولد صبوح عارٍ إلاّ من دثار ممّا يرتدي الغلمان لم يستر سوى الكتف اليسار، × يسرّ النّاظرين بحسن جسمه كلّه حتّى شعره الأشقر الّذي برز من بين خصله جناحان صغيران ذهبيّان جُمعا برباط يشبههما، وتبيّن عصيّته مركوريوس* ومرزاقه. تقدّم راقصا، حاملا بيمينه تفّاحة مذهّبة الأوراق، مدّها للفتى الّذي يمثّل فارس*، معبّرا له بالإيماء عمّا أوعز به يوبتر*؛ ثمّ تراجع برشاقة واختفى عن الأنظار. ثمّ أتت فتاة ينمّ محيّاها عن الوقار تشبه منظر الإلهة يونون*، يكلّل رأسها تاج ناصع البياض وبيدها صولجان. ثمّ دلفت أخرى، تحسبها مينرفة* من أوّل نظرة، تغطّي رأسها خوذة متلألئة، عُقد عليها إكليل من أغصان الزّيتون، تحمل مجنّا وتشهر رمحا كما تظهر في المعارك.

10-31 رقصة يونون ومينرفة

بعدهما دخلت أخرى تسرّ الأنظار بحسنها الفائق، تعرف في نضرة لونهـا الرّيّى برحيق الآلهة فينوس* كمـا كانت في ريعان الشّـباب، عارضة جمالها المطلق، في عري جسمها المجرّد من كلّ ملبس سـوى غلالة شـفيفة رفيفـة من الدّيباج تظلّـل الأربية، × كان النّسـيم في فضول وصبابة يزيحها تارة عن زهرة شبابها وينفـخ عليهـا بمجون تارة فتلتصق بجسـمها راسـمة خطوط أعضائهـا الفتّانة؛ أمّا لون الإلهة فيزدهي فـي تضادّه العبقريّ بين بياض جسمها المعلم بمعدنها السّماويّ، ووشاحها الفيروزيّ المنبئ بمآبها البحريّ. ثمّ حفّ بـكلّ واحدة من الفتيات القائمات بـدور الإلهات موكـب تابعيهـا والتّابعات؛ فتبع يونونَ كسـتور* وبولوكـس*، تغطّي رأسـيهما خوذتان كبيرتـان مقبّبتان تناثرت بأعلاهمـا النّجوم، لكنّ الكسـتورين(1) هما أيضـا مجرّد ممثّلين. تتقدّم الفتـاة بخطوها الوئيد الموقّع كالنّشـيد، مثيرة إيقاعات شـتّى؛ وبحركات خلـت من التّكلّـف والابتذال، تعـد الرّاعي، إن أسند لها لقب ملكة الجمال، بمنحه مُلك آسية بالتّمام والكمال. أمّا تلك الّتي حاكت بها مينرفةَ* شـكّةُ أسـلحتها، فسار فتيان بجانبهـا، هما حاملا سـلاح الإلهـة المحاربة، الخوف والجـزع (ترّور وميتوس) متوثّبين، بسـيفيهما المجرّدين؛ وخلفها بقليل سار زمّار يعـزف لحنا حربيّا، مازجـا بالأجراس الكتيمة الرّنّـات الجهيرة على نحـو بوق النّفير، ملهبـا حماس تلك الرّقصة السّـريعة. أمّا هي فكانت تسير بنشاط هازّة رأسها وعيناها تومضان وعيدا، وتومئ

(1) الكستوران: كستور وبولكس، تغليب كما في "صراعات إتيوكليسيّة" وكما في العربيّة: العُمَران.

لفارس* بحركات سـريعة ملتوية، واعدة إن سلّمها شارة النّصر في مسـابقة الجمال أن تجعله سـيّد الأبطال، وتكلّله في معارك عديدة بانتصارات مجيدة.

10-32 رقصة فينوس

هـذه الآن فينـوس* تأتي فتقف في منتصف الرّكح، وسـط هتـاف المتفرّجـين، محفوفـة بكوكبـة مـن الولـدان يتألّقـون بهجـة، وعلـى ثغرها بسـمة عذبة، تخـال أولئـك الغلمان من بهاء أجسـامهم الرّيّـى الطّريرة جمهـرة من آلهة الحـبّ طاروا لتوّهم من السّـماء أو البحر؛ فبأجنجتهم اللّطيفة وسهامهم الصّغيـرة وكامـل هيئتهم، كانـوا فعلا يحاكـون صورتهم أروع المحاكاة، ويضيئون بموارج مشـاعلهم السّاطعة لسيّدتهم كأنّها تسـير إلـى مأدبة زفاف. ثـمّ تدخـل كوكبة عبقريّـة الجمال من العـذارى: هنا ربّات الـرّواء* فائقات الرّواء، وهنـاك ربّات الفصول* رائعـات البهاء، ينثـرن الزّهور مفرّقة ومنظومـة مهنّئات ربّتهنّ، ويتجمّعن حولها في جوقة على نسق بديع، ملاطفات ربّة اللّذّات برياحين الرّبيع؛ ثمّ ها هي المزامير متعدّدة الثّقوب قد بدأت تعزف مقطوعـات ليديّة* بأنغام عذاب. فتنتشـي مـن حلاوتها قلوب المشاهدين، وتفوقها حلاوة فينوس* إذ بدأت تختال بتؤدة، وبخطى متأنّية متردّدة، مـؤوّدة برفق أعطافها، وهازّة بلين رأسـها، وتجيب نغمة المزمار الرّخيمة بحركات حلوة التّوقيع، وترسـل إشارات من حدقتيهـا المقصورتين في ارتخـاء حينا والمتوقّدتـين وعيدا حينا، وبالعينـين فقط ترقص أحيانـا. حالما وصلت أمـام الحكم أخذت تعـده، كما بـدا من حركـة ذراعيهـا، إن فضّلها علـى الإلهتين

الأخريين أن تعطي فارس* عروسا باهرة الجمال مثلها؛ فأسرع الفتى الفريجيّ* بكلّ سرور يسلّم الفتاة التّفّاحة الذّهبيّة الّتي بيده، شعار الانتصار.

10-33 أفكار الحمار حول العدالة

أفتعجبون إذن يا أراذل النّاس، بل يا بهائم المحاكم، بل ويا عقبان الفلا المكسوّة ثوب القضاء، أن يتّجر القضاة اليوم في أحكامهم ويُملوا ثمنها، إن كانت المحاباة قد أفسدت في بدء العالم حكما متنازعا بين الآلهة والبشر، وإن كان قرويّ ومجرّد راع اختير بإيعاز يوبتر* العظيم، باع حكمه منذ القديم، مقابل شهوته، ولتهلكته وتهلكة شعبه برمّته؟ × والأمر مماثل لعمري في الحكم الآخر اللّاحق الّذي نوّه به كلّ قادة الآخيّين* الأنجاب وقضى بناء على تهم باطلة بإدانة بلاميدس* الّذي فاق الجميع معرفة وحكمة بالخيانة، أو تفضيل أوديسيوس* في فنّ الحرب على أياس* الأشدّ لها مراسا؛ وماذا أقول في ذاك الحكم المعروف الّذي أصدره الأثينيّون، أولئك المشرّعون الجهابذة والمتفوّقون في كلّ العلوم الأساتذة؟ ألم يقض على ذلك الشّيخ صاحب الحكمة الإلهيّة*، الّذي قدّمه ربّ دلفي* في الحكمة على كلّ البشريّة، بعدما تألّبت عليه عُصبة باغية حاسدة مفترية، باعتباره مفسد الشّباب الّذين كان بالعكس يكبح جماحهم، بالموت بسمّ الشّوكران المردي، تاركا لمواطنيه وصمة عار إلى الأبد، بينما يستحسن كبار الفلاسفة إلى هذا اليوم مذهبه ويفضّلونه على ما عداه، وفي بحثهم الدّؤوب عن السّعادة لا يثقون بأحد سواه؟ × لكن لئلاّ يعترض معترض على فورة استنكاري قائلا

في نفسه: "ها نحن الآن ملزمون بالإصغاء إلى حمار يتفلسف علينا!". لأعدْ إلى روايتي حيث تركتها.

10-34 نهاية مشهد الباليه

بعدما حكم فارس*، غادرت يونون* ومينرفة* الرّكح آسفتين مغضبتين، مبديتين بالحركات سخطهما من ردّ الفتى لهما، بينما عبّرت فينوس* عن فرحتها بالرّقص مع فرقتها. إذّاك انبجس من قمّة الجبل الشّمّاء عبر أنبوب خفيّ صنبور زعفران مذاب في الخمر، فارتفع عاليا، ثمّ اسّاقط رشاشا على المعاز الرّاعية في الجوار، ممطرا عليها ودقا شذيّا، حتّى اكتسى وبرها الأشيب لونا بهيّا، متحوّلا من بياضه العاديّ إلى صفرة الجاديّ؛ ثمّ لمّا نشر في المسرح كلّه عرفه الشّذيّ، ابتلعت أحشاء الأرض فجأة ذلك الجبل الخشبيّ. ثمّ إذا بجنديّ يجري عبر السّاحة ليُحضر من السّجن العموميّ، بطلب من الشّعب تلك المرأة الّتي ذكرتُ أنّها ستُلقى إلى السّباع جزاء جرائمها العديدة، والمعدَّة لحفلة عرسي المشهودة. ها قد هيّؤوا بعناية ما سيكون لنا بالتّحقيق تخت الزّواج، فراشا متلألئا باليشب الهنديّ محشوّا بالرّيش النّاعم ومزدانا بملاءة من الدّيباج. أمّا أنا ففضلا عن خجلي من أداء عرض الجماع أمام الجميع، وعن نفوري من ملامسة مجرمة نجسة، كنت أتعذّب أيضا جزعا من الموت، متسائلا بيني وبين نفسي كيف للسّبع الّذي ينوون إطلاقه لافتراس المرأة، ونحن متلاصقان في ضمّة الغرام، وما هو مهما كان بالفطن فطرةً ولا بالمدرّب اصطناعا ولا بالقادر على مجاهدة النّفس على الطّعام، أن يمزّق المرأة المضطجعة بجانبي ويدعني بصفتي بريئا لم أُدنْ

بأيّ نوع من الإجرام.

10-35 فرار الحمار

فلم أعد قلقا على عفافي وإنّما على سلامتي أصلا. وبينما مدرّبي منهمك في ترتيب السّرير، والخدم كلّهم منشغلون بإعدادات مشهد الصّيد أو مشدوهون بالعرض المثير، × أتيح لخاطري مجال للتّفكير، وما كان أحد ليفكّر في ضرورة مراقبة حمار بمثل سلاستي. تقدّمت الهوينى خلسة حتّى بلغت الباب الّذي كان قريبا، واندفعت بأقصى سرعتي. بعدما قطعت بسرعة مذهلة ستّة أميال بأكملها، بلغت كنخرية*، وهي مدينة محصّنة تقيم بها، على ما يقال، جالية كورنتيّة* عريقة، تقع على ضفاف بحر إيجة والبحر السّارونيكيّ، وبها كذلك ميناء يُعَدّ مرسى مأمونا للسّفن ويتردّد عليه كثير من النّاس. تجنّبت الجموع وانتبذت على الشّاطئ قريبا من خطّ ارتداد الموج مكانا بعيدا؛ فتمدّدت على بساط الرّمل النّاعم لأريح جسمي المكدود. إذ كان مسار الشّمس قد انحنى على حدّ النّهار الأقصى، فأسلمت نفسي لهدأة المساء، وما لبث نوم عذب أن ألمّ بي.

الكتاب الحادي عشر

11-1 الأمل

قرابة الهزيع الأوّل من اللّيل استيقظت مذعورا، فرأيت قرص البدر تمّا، وقد برز فوق لجّة البحر متلألئا بنور ساطع. آنست من اللّيل المعتم جلالا وسكينة، ووقر في قلبي أنّ هذه الإلهة العليّة تبسط على الكون سلطتها، وأنّ الشّؤون الإنسانيّة خاضعة لعنايتها، وأنّ قوّة نورها وبركتها الرّبّانيّة لا تمدّ بقوّة البقاء الحيوانات داجنها وبرّيّها فقط، بل كذلك الجماد، وأنّ كلّ الأحياء على الأرض وفي البحر والسّماء تزيد آنا بزيادتها وتنقص آنا بنقصانها. وأنّ القدر لا ريب قد شفى غلّته بكلّ ما أنزل بي من المصائب والنّوائب، فقدّم لي أملا في الخلاص، وإن أتى متأخّرا؛ فقرّرت أن أتضرّع إلى الإلهة المتجلّية لي في هذه الصّورة المهيبة. أزحت على الفور فتور النّعاس، ونهضت خفّا فرحا، فبادرت إلى تطهير نفسي بالاغتسال في البحر: مغطّسا رأسي في لجّته سبع مرّات، فقد أبان فيثاغور* الإلهيّ أنّ هذا العدد يناسب العبادات بشكل خاصّ أكثر من سواه؛ وأنشأت أدعو والدّمع يبلّل وجهي تلك الإلهة الجبّارة.

11-2 دعاء لوقيوس

"يا ملكة السّماء، سواء كنت كيريس* المطعمة منشئة الثّمرات، الّتي في بهجتكِ بالعثور على ابنتكِ، أزلتِ طعام التّوحّش بلّوط البشر العتيق، وعلّمتِهم طعاما أرهَف، وتزيّنين اليوم أرض إليوسية* بفيض هباتك؛ أو كنت فينوس* السّماويّة، الّتي ولدت في بدء الكون الحبّ فجمعت به الجنسين المختلفين، ونشرت النّوع البشريّ بسلسلة التّناسل اللاّنهائيّة، وتُعبدين اليوم في هيكل بافوس* المحاط بالبحر؛ × أو أخت فويبوس* الّتي يسّرت وضع الأجنّة بمراهمك المسكّنة فأنشأت بذلك شعوبا عديدة، وتُعظَّمين اليوم في معبد أفسس* الشّهير، أو بروسربينة* ذات الوجوه الثّلاثة المخيفة بنوحها اللّيليّ، كابحة جماح الأشباح والحفيظة على زنازن الأرض، الهائمة بين الغابات، والمسترضاة بشتّى العبادات. أنت يا من تضيئين مدننا بنورك الطّافح برقّة الأنوثة، وتغذّين بأشعّتك الرّطبة الدّافئة النّباتات المتفتّقة، وترسلين على الأرض ضياءك الخافت في لفّاتك المنفردة؛ بأيّ اسم وبأيّة طقوس وفي أيّة صورة تسمحين للنّاس بأن يدعوك؛ × أعينيني على محنتي الّتي بلغت المدى الأكبر وثبّتي حظّي المتعثّر؛ وبعد استنفاد كلّ الكرب العظام، منّي عليّ بالرّاحة والسّلام؛ كفاني متاعب وحسبي مخاطر! اسلخي عنّي غلافي الحيوانيّ وردّيني إلى مرأى ذويّ. أعيديني إلى لوقيوس العزيز عليّ؛ وإن كانت قوّة إلهيّة غضبى تتعقّبني بحقدها بلا هوادة فليُسمح لي بالموت على الأقلّ إن لم يُسمح لي بالحياة."

11-3 تجلّي الإلهة

بعدما وجّهت هذه الدّعوات وأردفت كثيرا من الشّكاوى الباكيات البائسات، استولى النّوم من جديد على نفس ذاك الفراش الرّمليّ على نفسي المضناة. فما كدت أغمض عينيّ حتّى انبثق من خضمّ البحر طيف إلهيّ رافعا طلعة بهيّة يخرّ الآلهة أنفسهم لها سجّدا؛ ثمّ برز الطّيف النّيّر تدريجيّا بكلّ جسمه نافضا عنه اللّجّة. تراءى لي منتصبا قبالتي. سأحاول أن أنقل إليكم أنتم بدوركم صورته العجيبة، إن منحني فقر اللّسان البشريّ القدرة على وصفها بالكلمات، أو وهبتني تلك القوّة الإلهيّة فصاحة وجزالة وبيانا. كان شعرها الكثيف الطّويل المنعقف شيئا يسيرا ينسدل رخاء على جيدها الإلهيّ متفرّقا ومتموّجة بنعومة، وقد عُقد بأعلى رأسها المهيب تاج من زهور شتّى متعدّدة الأشكال، تبرز وسطه، فوق الجبين، اسطوانة صقيلة كالمرآة أو بهيئة القمر ترسل ضياء ناصعا، محفوف على اليمين والشّمال بنقش حيّات متوقّدة، وكذلك مُدّت فوقه شارات كيريس*. وعليها إزار متدرّج الألوان، حيك من أرهف الكتّان، هنا أبيض كالضّياء ناصع، وهناك أصفر كالزّعفران فاقع، أو متضرّم بحمرة الورد ساطع، وما كان يخطف أكثر أنظاري، عباءة فاحمة تسطع في سوادها البهّار، تمنطقها مرتدّة من الجنب اليمين إلى الكتف اليسار، دُلّي رفلها مكشكشا حتّى الكِفاف، بحاشيته هدب معقودة الأطراف، وهي تسرّ العين بتموّجها الهفهاف.

11-4 وصف الإلهة

وعلى حاشيتها المطرّزة وفي عرضها انتثرت نجوم ساطعة توسّطها قمر ينفث ألسنة من اللّهب؛ وعلى مدار هذه العباءة الرّائعة التحم بها أوثق الارتباط شريط مشكّل من زهور وفواكه شتّى. وقد برزت في كلّ عدّتها، حاملة بيمناها صنجا من النّحاس عُقفت صحيفته على هيئة النّجاد ومُدّت وسطه قضبان صغيرة تصدر عنها كلّما مُرّرت عليها عصيّة ناقرة ثلاثتها معا رنّات جهيرة. ويتدلّى من اليسرى قنديل ذهبيّ بشكل قارب ينبثق من جزء عروته المرئيّ صلّ يمدّ رأسا متوقّدا، وينفخ عنقه إلى أقصى مدى؛ ويغطّي قدميها الصّمعاوين نعلان صُفرا من سعف النّخيل الّذي يمثّل الظّفر؛ في هيئتها هذه وأبّهتها، وبصوت ملؤه جلال ألوهتها، تكرّمت بمخاطبتي وهي تعبق بأصماغ بلاد العرب الطّيّبة:

11-5 الإلهة تخاطب لوقيوس

"هأنذا جئت إليك يا لوقيوس، متأثّرة بدعائك. أنا أصل الطّبيعة بأكملها وسيّدة العناصر كلّها، أرومة القرون الأولى والقوّة الإلهيّة العليا، ملكة عالم الأموات والأولى بين آلهة السّماوات والنّموذج الموحّد لكلّ الآلهة والإلهات. أنا الّتي أسيّر وفق مشيئتي ذرى السّماء النّيّرات، وأنفاس البحر الشّافيات، والصّمت الحزين الرّائن على غياهب عالم الأموات؛ فيّ يتعبّد العالم كلّه إلى قوّة إلهيّة واحدة، تحت أشكال شتّى وبطقوس متنوّعة وأسماء متعدّدة. يدعوني هنا الفريجيّون* الأُلى أمّ

الآلهة البسّينّنتيّة*، وهناك سكّان أتّيكة* مينرفة* الأثينيّة، وهنالك القبارصة البحّارة فينوس * البافوسيّة *، وسكّان كريت الصّيّادون ديانة* الدّيكتنيّة*، وسكّان صقلّية النّاطقون بثلاث لغات بروسربينة* الإستكسيّة*، وسكّان سهول إليوسية* القدامى كيريس* الأثينيّة. وتدعوني فئة يونون*، وأخرى بلّونة*، هؤلاء هكّاتة* وأولئك رمنوسية*، بينما الشّعوب الّذين تضيئهم أشعّة الإله الشّمس بازغة عند الشّروق ومنحدرة مع الغروب(1)، الأحباش بكلتا فئتيهما والمصريّون المتضلّعون في المعرفة منذ القدم، يؤدّون لي الشّعائر المناسبة ويدعونني باسمي الصّحيح: الملكة إيزيس*(2). هأنذا حضرت إليك راثية لمصائبك، هأنذا راضية مؤاتية إلى جانبك. فكفكف عبراتك وكفّ عن شكاتك(3) وأبعد الحزن عنك، فها قد أشرق بعنايتي يوم خلاصك. لذا أعرْ أوامري كلّ انتباهك. لقد خصّصت الدّيانة الأزليّة لي النّهار الّذي سينسلخ من هذه اللّيلة، والّذي بمقدمه تكون عواصف الشّتاء قد سكنت، وثائرة الموج قد هدأت، وعاد البحر مأمونا للملاحة، فيقدّم لي كهنتي قاربا جديدا لافتتاح موسم البحارة.

(1) بازغة عند الشّروق ومنحدرة عند الغروب: nascentis (dei solis) inchooantibus et occidentis inclinantibus جناس تصحيف مع مقابلة.

(2) أسماء الملكة إيزيس: لاحظ هنا عشرة أسماء هي إلى حدّ ما تسميات مضلّلة ومظاهر، قبل تجلّي الحقيقة الصّحيحة. ولعلّ لهذا كما لتبويب الرّواية إلى عشرة كتب يتبعها كتاب يختلف عنها في لهجته ممّا قد يوهم أنّه زيد إلى الرّواية الأصليّة تلفيقا، دلالة إذا عدنا إلى فلسفة العدد الفيثاغوريّة الّتي تعتبر عدد 10 (=1+2+3+4) ختام دورة وافتتاح دورة جديدة: وهنا يبدأ لوقيوس حياة جديدة، بعد ضياع حياته السّابقة البهيميّة. ويمكن تقسيم الكتب العشرة الأولى موضوعيّا على الأساس المذكور: 1- الوصول 2-3: السّقوط في اللّذّة الحسّيّة والسّحر 4-5-6: في كهف اللّصوص 7-8-9-10: تنقّل ومحن.

(3) كفكف/كفّ: mitte/omitte جناس مطلق مذيّل.

11-6 تعليمات إلهيّة

فلتنتظر هذه الشّعيرة بذهن صاف من الكدر، ومن مشاغل الحياة الأُخَر: بإيعازي سيحمل كاهن وسط الموكب بيمينه إكليلا من الورد ملاصقا للصّنج. فلا تتردّد: نحّ الحشود وانضمّ إلى الموكب بخفّة، وأنت من رضاي في قوّة، اقترب كأنّك تودّ تقبيل يد الكاهن وبرقّة، اقتطف من ذلك الورد تنضُ عنك فورا جلد البهيمة البغيض منذ أمد عندي. لا ترهبْ وتستصعبْ شيئا ممّا يوحى لك. ففي هذه اللّحظة بالذّات بينما أحضر هنا حيالك، أصدر تعليماتي إلى كاهني في منامه بما يجب فعله بعد ذلك. بأمري سينفلق محفل الجماهير المتراصّة أمامك، وفي غمرة العيد البهيج والمشاهد الاحتفاليّة، لن يشمئزّ أحد من خلقتك المستعارة الزّريّة، أو يثير تحوّل صورتك فجأةً لديه سوء تأويل وشبهةً. تذكّر جيّدا واحفظ دوما في أعماق الضّمير أنّ ما تبقّى من حياتك ملك لي حتّى الرّمق الأخير؛ فلا حيف في أن تدين بما تبقّى لك من العمر لمن بفضلها ستعود بين البشر. ثمّ إنّك ستعيش سعيدا، ستعيش في حماي مجيدا، حتّى إذا ما وصلت بعمرك إلى الأجل، فنزلت إلى العالم الأسفل، هناك أيضا، في ذلك القبو نصف الكرويّ، ستلقاني ساطعة بين دياجير الأخيرون*، باسطة ملكي على غياهب إستكس*؛ هناك أيضا، في مُقامك برياض الأليزيوم* الرّضيّة، ستثابر على عبادة ربّتك البرّة الحفيّة. وإن أنت بالطّاعة المتناهية والعبادة المتفانية والنّقاوة المتمادية صرت أهلا لرضواني، فاعلم أنّي وحدي بإمكاني أن أمدّد أيضا عمرك إلى ما بعد الأجل المقدّر لك."

11-7 يوم العيد

بعدما نطقت تلك الإلهة الجبّارة بجليل وحيها حتّى المنتهى اضمحلّت منحسرة في ذاتها؛ فنفضت النّوم عنّي فورا ونهضت أطفح رهبة وسرورا ثمّ عرقا غزيرا، منخطفا بتجلّي الحضرة الإلهيّة لي مبهورا؛ اغتسلت بماء البحر، وأخذت أستعيد تعليماتها مركّزا فكري. وحالما انجلى ظلام اللّيل البهيم وبزغت الشّمس ذهبيّة، إذا بالجموع يملؤون السّاحات من كلّ صوب مسرعين، في جوّ مهرجان بل احتفال بنصر مبين. كان يبدو لي أنّ كلّ شيء يستطير من فرط السّرور، بسبب فرحتي الخاصّة وحبوري، حتّى لأحسّ البهائم من كلّ نوع والمنازل بل والنّهار، كلّها تطفح بهجة واستبشارا. فقد تلا صقيعَ البارحة(1) على غير المتوقّع نهار صحو دافئ؛ وانطلقت العصافير تصدح أعذب الألحان، محتفية بدفء الرّبيع الحاني، ملاطفة بشدوها الرّقيق أمّ الكواكب أصل الأزمان وسيّدة الأكوان. وكذلك الأشجار، مثمرها المؤتي كلّ حين أكله، وعقيمها المعطي فقط ظلّه، كلّها بدت منتعشة بنسمات السّلامى الرّيّقة، مشرقة بأكمام أوراقها المتفتّقة، مهفهفة في حفيف رقيق لتأوّدات أغصانها المترقّقة؛ وخفتت دمدمة العواصف الثّائرة، وهدأت عربدة اللّجج الفائرة، وراح البحر يرسل موجه في انسياب لطيف، وتبدّد ما في السّماء من ضباب كثيف فأشرقت بسنا صاف شفيف(2).

(1) صقيع البارحة: pruinam pridianam جناس ناقص.

(2) صاف شفيف: nudo sudo(que) جناس مضارع.

11-8 لوحات تنكّريّة في مقدّمة موكب إيزيس

تقدّمت موكبَ المهرجان قليلا طلائع ازّيّنت كلّ حسب اجتهاده وعلى هواه. هذا تقلّد نجادا يؤدّي دور الجنديّ، وذاك التحف دثارا قصيرا وبدا بنعله وحرابه بمظهر الصّيّاد، ولبس آخر حذاء مذهّبا وإزارا من الحرير وحليّا نفيسة ووضع شعرا مستعارا وسار في ارتخاء يحاكي امرأة. وبرز آخر في طماق ودرع وخوذة حتّى لتظنّه خارجا من مباراة مصارعة، ولم تخل التّشكيلة ممّن يقلّد القاضي بإبّالة فؤوسه وطيلسانه الأرجوانيّ، أو الفيلسوف بردائه الطّويل وعصاه ولحيته الشّبيهة بعثنون التّيس، أو آخرين يمثّلان بقضبان من الخوص أحدهما قنّاص الطّير مع الدّبق والآخر صيّاد السّمك مع الشّصوص. رأيت كذلك دبّة أليفة محمولة على محفّة في زيّ سيّدة، وقردا بطرطور مزرود وتنّورة زعفرانيّة من الطّراز الفريجيّ*، في هيئة الرّاعي الكتميتيّ*، يحمل كوبا ذهبيّا، وحمارا أُلصق له جناحان يمشي بجانب شيخ متداع، تحسب من دون شكّ أحدهما بلّيروفون* والآخر بيغاسس* فتنفجر ضحكا على كليهما(1).

11-9 موكب إيزيس

وسط هذه العروض المسلّية المعدّة لتهريج العامّة والمنتشرة هنا وهناك، بدأ الموكب المخصّص للإلهة واهبة الخلاص يتحرّك. في مقدّمته سارت نساء متألّقات في ثياب بيضاء، مشرقات في

(1) العرض التّهريجيّ في مقدّمة موكب إيزيس: بمثابة تذكير بشخصيّات ورد ذكرها في النّصّ، أي، إن قبلنا التّأويل الفلسفيّ لرواية أبوليوس كنظرة أفلاطونيّة، بعالم الظّواهر الّذي هو ظلّ من عالم الحقيقة.

شتّى عُدد الزّينة، مكلّلات بتيجان زاهية من أزهار الرّبيع، هؤلاء يفرشن الأرض بنثار الزّهور يسحبنها من حجورهنّ وينثرنها على طريق الموكب وأولئك يُدرن للإلهة الآتية مرايا ثبّتت على ظهورهنّ تكشف أمامها تيّار العبّاد المشيّعين. والبعض حملن أمشاطا من العاج يتظاهرن، بحركة أيديهنّ وثني أصابعهنّ بتصفيف شعر الملكة وتزيينه، وأخريات يرششن السّاحات بقطر من طيب الحفلات وشتّى العطور. ويتلوهنّ جمع غفير من كلا الجنسين، يحملون مصابيح ومشاعل وشموعا وغير ذلك من الأضواء الصّناعيّة زلفى لمصدر الأنجم السّماويّة. وخلفهم الشّبّابات والمزامير تشدو بمعسول النّشيد في انسجام. تتبعها فرقة غنائيّة تسرّ النّاظرين من صفوة الشّبّان، متلألئين في ثياب حفلات بيضاء كالثّلج، مردّدين شعرا عذبا نظمه بإلهام ربّات القريض* شاعر مفلق، معيدين القطعة تمهيدا لأدعية الإنشاد الختاميّ. يسير في الموكب أيضا زمّارون من خدّام سرابيس* العظيم، مميلين شبّاباتهم باتّجاه آذانهم اليمنى مقدّمين المعزوفة المألوفة للإله في معبده(1)، وعدّة سدنة يهتفون طالبين إفساح السّبيل أمام الموكب الجليل.

11-10 بقيّة الموكب

ثمّ يأتي جمع المطلَعين على الأسرار اللّدنّيّة رجالا ونساء من كلّ فئة وسنّ يتلألؤون في ثياب من كتّان نقيّة البياض، وقد لفّت النّساء شعرهنّ المضمّخ بالعطور بوشاح شفّاف، ولمعت

(1) الإله في معبده: templi deique حرفيّا: الإله ومعبده، فصل لمتّصلين مع عطفهما hendiadys.

رؤوس الرّجال الحليقة إلى القذال: كواكب الدّين العظيم على الأرض. يحدثون رنينا جهيرا بصنوج من النّحاس والفضّة وحتّى الذّهب(1). ومشى خلفهم كبار الأحبار، حفظة الأسرار، ملتفّين بصدار من كتّان فالق البياض شُدّ حول قامتهم نازلا إلى القدمين، حاملين شارات الإلهين الأعظمين(2). يمشي أوّلهم مادّا مصباحا يشعّ وضّاحا بنور ساطع السّنا، غير القناديل الّتي تضيء مساء عشاءنا، بل سفينةً ذهبيّة تبعث من فتحة وسطها شعلة قويّة. وبيدي الثّاني المشابه للأوّل في ثيابه منضدة المعونات المشتقّة من عناية الرّبّة المعوان تسميتها الخاصّة المطابقة؛ ويسير الثّالث رافعا سعفة فُصّلت أوراقها من ذهب تفصيلا رائعا ومزراق مركوريوس* معا. ويعرض الرّابع رمز العدالة، يدا يسرى صُوّرت براحة مفتوحة، وهي تبدو بلا مندوحة، لأنّها جُبلتْ على العطالة، وضعف الحيلة وقلّة الشّطارة، أوْلى من اليمنى بتمثيل العدالة. ويحمل كذلك كوبا من الذّهب كالثّدي في استدارته، يسكب نخبا من الحليب من حلمته؛ والخامس يحمل سلّة ذهبيّة مليئة بغصينات من الذّهب، والسّادس جرّة.

11-11 صورة إيزيس

بعدهم مباشرة، تقدّم الآلهة متكرّمين بالمشي على أقدام بشريّة: هذا أنوبيس* الوسيط المخيف بين العالم العلويّ والعالم

(1) من النّحاس/من الذّهب: aereis/aureis جناس مختلف، ورد مثله في 9-19

(2) لافّات شعورهنّ، حليقي الشّعر، ملتفّين بصدار: crines obvuolutae, capillum derasi, cinctum injecti استخدام شاذّ لحالة النّصب accusativus للتّعبير عن الوسيلة مكان الجرّ ablativus.

السّفليّ، مهيبا بوجهه المراوح بين اللّون الأسود والذّهبيّ، رافعا هامته القعساء بشكلها الكلبيّ، حاملا مزراقا بيسراه، وهازّا سعفة مخضوضرة بيمناه. تتبع خطاه بقرة منتصبة تمثّل الإلهة أمّ كلّ الأشياء، يحملها مثبّتة على كتفيه ويمشي بهمّة أحد خدّامها السّعداء؛ ويحمل آخر سلّة تحتوي على الأسرار الكتيمة، ضامّة في جوفها خفايا الدّيانة العظيمة. ويحمل آخر في حضنه السّعيد صورة جليلة للإلهة العظيمة، ليست على شبه داجن الحيوان ولا الطّير ولا الوحش ولا حتّى الإنسان، يثير الإجلال بطرافته النّابعة من فكرته البارعة، شعارا جلّ أن يُسمى لدين يجب حفظه بالكتمان، وقد شُكّل من ذهب ساطع اللّمعان، في صورة وعاء صغير، مجوّف بمهارة وذي قعر مستدير، زُوّق في الخارج بصور رائعة من أنماط مصريّة شائعة، مع نتوء في فوهتها المرتفعة قليلا عن قاعدتها والممدودة بقناة في شكل مسقاة، وثُبّتت بالجهة الأخرى عروة واسعة المنحنى، يلتفّ صلّ حولها ويطلّ من فوقها رافعا عنقه المنتفشة المحزّزة من فرط انتفاخها والحرشفة.

12-11 إلى الورد فالورد حلو جميل...

ها هي الآن قد وصلتني أنعم الرّبّة المفضال الّتي وعدتني، ودنا أكبر الأحبار حاملا مفتاح خلاصي وأقداري، في نفس العدّة المذكورة في وعد الرّبّة، ممسكا بيده اليمنى صنجها وإكليلا لي أنا، إكليلا طبعا ليمكنني، بعد معاناتي كلّ تلك المحن، وبعنايات إلهتي المعظّمة، أن أتغلّب على قسوة الحظّ الغاشمة. فما دفعني فرحي المفاجئ إلى إقبال الطّائش الأرعن، مخافة أن

يشـــوّش نظامَ الموكب الدّينيّ اندفـــاع دابّة بنحو فجائيّ، وبتهيّب وخطو متأنّ بل إنسانيّ، وإلهام لا شكّ ربّانيّ. تسلّلت على رسلي والشّعب ينفضّ من حولي.

11-13 التّحوّل

فمـــا كان من الكاهـــن المطّلع، كما علمت مـــن الوقائع، على وحي اللّيلة السّابقة، والمبهور بالمطابقة مع المهمّة الّتي بعهدته إلاّ أن توقّـــف للحظتـــه، ومـــدّ يـــده تلقائيّا فعـــرض الإكليل أمام فمي ســـويّا. أمســـكت إذّاك مرتعشا، وقد تســـارع خفقان قلبي المعمـــود، الإكليل المتألّق المضفور من جنيّ الورود، والتهمته بنهم وملء قلبي شـــوق إلى الخـــلاص الموعود. فما كذب وعد السّـــماء الصّريح: زال فورا عنّي الشّكل البهيميّ القبيح؛ انقشع أوّلا ذلك الوبر الوضر، ثمّ نعُم الجلد الخشـــن، وضمُـــر البطن الرّبيل، ونضت كفـــوف أطرافي الحوافر لتُنبت أظافـــر، ولم يبق طرفاي الأماميّان رجلين، بل امتدّا في وضـــع قائم ليقوما بوظائف اليدين. وتقلّص العنق الطّويل، واســـتدار الرّأس والوجه المستطيل، وعادت الأذنان العملاقتـــان إلى ضآلتهما الأصليّة، وعادت الأســـنان الشّـــبيهة بالجنادل الصّخريّة إلى دقّة المقاســـات البشريّة، وما كان يعذّبني بالأخصّ من قبل، ذلك الذّيل، تلاشـــى فلا ذيل. شُده عامّة النّاس، وخشع المطّلعون على الأسرار أمام ظهور قدرة إلهتهم العظيمة بمثل ذاك التّجلّي، وهذه المعجزة الشّـــبيهة برؤى اللّيل. ويسر هذا التّحـــوّل الّـــذي تمّ أمامهـــم، وانطلقوا بصوت جهيـــر كلّهم، وقد مدّوا إلى السّـــماء أيديهم، يشهدون على تلك الآية المبينة على إحسان الرّبّة المعينة(1).

11-14 لوقيوس يستر جسمه

أمّـــا أنا فتســـمّرت مكاني من فـــرط ذهولي معقود اللّســـان، ومهجتي لا تســـع مثل تلك الفرحة المفاجئة العارمة. متســـائلا: مـــا الأفضـــل أن أقـــول أوّلا، وبماذا أفتتـــح بعد اســـتعادتي نطقي حديث الولادة، بأيّ حديث أســـتهلّ تيمّنا بحلّ عقلة لساني، وبأيّة ألفـــاظ على قدر كاف مـــن البيان، أحمد إلهتـــي العظيمة على ذلك الإحسان. لكنّ الكاهن الّذي علم بوحي إلهيّ بكلّ مصائبي منـــذ البدايـــة، ورغم ذهوله هو نفســـه من إعجاز تلـــك الآية، أمر بإيماءة من الرّأس أن يقدَّم لي ثوب من الكتّان أســـتر به نفسي؛ × فبعدما جرّدني الحمار من غلافي النّحس، ضغطت بشدّة فخذيّ، وخصفـــت عليهما جيّدا بيـــديّ، متّخذا ذلك السّـــربال الطّبيعيّ للاســـتتار قدر ما يمكن لشـــخص عار. إذّاك بادر أحـــد الكهنة إلى نزع عباءته البرّانيّة وتغطيتي بأقصى السّـــرعة؛ بعد ذلك قال لي الحبـــر الأعظم وهـــو مبهور ويحدّق فيّ مليّا، ووجهه يشـــعّ بهجة وسنا ربّانيّا:

11-15 خطاب الحبر الأعظم

"بعد الّذي عانيت من عديد وشـــتّى الأنـــواء، وعواصف الدّهر الهوجـــاء، وأعاصيـــر الحدثان العاتيـــة، ها أنت يـــا لوقيوس وصلت

(1) الموكـــب الدّينـــيّ: لاحظ الشّـــبه مثلا ورغـــم اختلاف المضمـــون الدّينيّ مع "خرجة" ســـيّدي أبي ســـعيد في تونس صيفا، إذ تنطلق من "زاويته" نحو مكان قريب ســـكن به الوليّ الصّالح، في مقدّمتها "الشّيخ" يتبعه "الباشعلاّم" ثمّ "الباشســـقّاء" علـــى حصان، ثمّ ســـقّاؤون وعلاّمون، ثمّ حامـــل المبخرة وضاربو الدّفـــوف وطبّال وزمّارون ومدّاحون ينشـــدون أذكارا تمجّده ثـــمّ يعود الموكب إلى ضريحه.

أخيرا إلى حرم الرّحمة ومرفإ السّلامة؛ ما نفعتك قطّ أرومتك ولا منزلتك، ولا حتّى معرفتك الّتي هي حليتك وزينتك، بل انزلقت إلى شهوات شبابك الغرير ووقعت في أسرها المرير، وبؤت بالعقاب الوخيم على فضولك المشؤوم(1). لكنّ الحظّ الأعمى الّذي ألقاك طويلا في أسوإ أهوال وأنكال، قادك عبر مكره العشوائيّ إلى هذه السّعادة القدسيّة على أيّة حال؛ فليرُح الآن وليطلق العنان لخبطه العقور، وليبحث عن سواك هدفا لبطشه المسعور؛ فلا منال لضربات الأقدار وقسوتها في من طلب جلال إلهتنا حياتهم لخدمتها. ما استفادت ربّة الحظّ ممّا عانيت من قسوتها الوحشيّة، من اللّصوص والوحوش والعبوديّة، وذرع الثّنايا المحصبة وخشية الموت اليوميّة؟ ها قد أُلت الآن إلى عهدة ربّة حظّ غيرها، بصيرة وتضيء حتّى الآلهة الآخرين بنورها. فلتضع الآن على وجهك صفاءً يوافق بياض ثوبك، ولترافقْ بخطوة جذلى موكب ربّتك المعينة الفضلى؛ وليرك الكفرة، ليروك وليعترفوا بخطئهم: هوذا أمام أعينهم لوقيوس مخلّصا من سالف كُربه، مغتبطا بعناية إيزيس* به، منتصرا على حظّه. لكن لتحظى بمزيد من الأمان والحماية انضمّ إلى رهبانيّتنا السّمحاء الّتي أُمرتَ بإعطائها عهدك منذ عهد قريب وكرّسْ نفسك منذ الآن للخضوع لتعليمات ديانتنا، واحن رقبتك لنير الخدمة الطّوعيّة؛ فحين تبدأ في خدمة إلهتنا، ستتذوّق أكثر نعمة الحرّيّة."

(1) خطاب الحبر الأعظم للوقيوس: يفهمنا لماذا كان فضول لوقيوس كبسيشية قبله غير سليم فالاتّصال بعالم الألوهة لا يكون بالانهماك في شهوات الحسّ وخزعبلات السّحر بل بالمعرفة والحبّ بمعناه الأفلاطونيّ (فينوس بنديموس لا أورالية كما جاء في مأدبة أفلاطون وكما يشير أبوليوس نفسه في "المرافعة" 12).

11-16 حفل تدشين موسم الإبحار

كذا خاطبني الكاهن الجليل بإلهام الإلهة، ساحبا بشيء من المشقّة أنفاسه اللاّهثة ثمّ سكت. ومن ثمّ اختلطت بطابور العبدة ومشيت في غمار المسيرة المباركة، وقد بتّ معروفا للمدينة بأكملها، وقبلة الأنظار كلّها، ووجهة كلّ إشارة وكلّ بنان، وقصّتي تروى على كلّ لسان. "هذا الّذي اليوم ردّته اليوم عناية الإلهة القديرة العليّة إلى صفته البشريّة. فنعمّا له ويا سعده، بل يا سعديْه(1). هذا الّذي استحقّ لا شكّ بنقاوة وأمانة حياته السّابقة من السّماء مثل هذه الوَلاية السّامية، حتّى يُجتبى وهو يُحيى بنحو ما بلطف رحمتها لشرف خدمتها." وسط هذه التّعليقات وغوغاء المحادثات الفرحى والدّعوات، تقدّمنا الهوينى حتّى اقتربنا من شاطئ البحر ووصلنا إلى عين المكان حيث أوى الحمار الّذي كنت أمس. بعدما وُضعت هناك تماثيل الآلهة حسب الشّعائر، عمد الحبر الأعظم إلى سفينة بديعة الصّنع زُيّنت على كامل محيطها بالرّسوم المصريّة الباهرة، فتلا عليها صلوات من شفته الطّاهرة، ونقّاها من كلّ رجس بمشعل متّقد وبيضة وكبريت أتمّ التّنقية، ثمّ أهلّ بها ونذرها للإلهة. كان شراع المركب السّعيد المتألّقُ سنا يحمل بارزة حروفا من الذّهب مطرّزة، ترفع دعاء بإبحار سعيد في الموسم الجديد. ها قد انتصبت الصّارية المكوّنة من جذع صنوبر مستدير، زاهية وعالية، تسرّ الأنظار بمصطبتها الكبيرة. وتألّق كوثلها المعقوف على شكل البطّة والملبّس بصفائح الذّهب، ورونق

(1) سعديْه: في النّصّ اللاّتينيّ يا سعده ثلاثا.

غاطسها الصّقيل المصنوع كلّه من خشب السّرو الصّافي. إذّاك أخذ الجميع، عبدة وعامّة، يتبارون على تكديس قفاف مملوءة بالأفاويه وما شابهها من العطايا، وسكب شربات اللّبن الطّازجة فوق اللّجّة إلى أن امتلأت السّفينة بالعطايا النّفيسة والقرابين المباركة وحُلّت من مراسيها وسُلّمت للبحر فجرت بريح طيّبة. بعدما أخذت صورتها، لبعد المسافة، تضمحلّ وتهتزّ أخذ حملة المقدّسات كلّ ما جلب قبل، وعادوا خفافا الخطى إلى المعبد في موكب حافل على نسق مماثل.

17-11 في معبد إيزيس

لمّا وصلنا أمام المعبد دخل الحبر الأعظم وحملة الصّور الإلهيّة، والمُطلَعون السّابقون على الأسرار القدسيّة إلى غرفة الإلهة، فرتّبوا فيها وفق الطّقوس التّماثيل النّابضة بالحياة. ثمّ وقف أحدهم، يسمّى أمين الصّحف، على الباب فدعا إلى الانعقاد مجلس حملة التّوابيت (الباستوفوري*)- بهذا الاسم يدعى فعلا ذاك المجمع المقدّس. ثمّ قرأ من على منبر عال من نصوص خطّت في كتاب، داعيا بالخير والبركات بإطناب للأمير الأعظم ومجلس الشّيوخ وفئة الفرسان وكلّ شعب الرّومان، وللبحّارة والسّفائن في البحار الخاضعة لسلطة إمبراطوريّتنا؛ ثمّ أعلن بلغة اليونان ووفق عادتهم:" بلويا فيسيا". عبّر هتاف كلّ المحفل الّذي تلا تلك الكلمة عن بشرى الخير واليمن للجميع؛ أخذ النّاس يحملون أكاليل من أغصان الآس المونعة طافحين سعادة، ويقبّلون قدمي الإلهة الّتي ثُبّت تمثالها المصنوع من الفضّة على دكّة، ثمّ انصرفوا إلى بيوتهم؛ أمّا أنا فما كانت حالتي النّفسيّة

لتسمح لي بالابتعاد قيد أنملة، فلبثت هناك متأمّلا صورة الإلهة متذكّرا مصائبي السّابقة.

18-11 وقد يجمع الله الشّتيتين بعدما يظنّان كلّ الظّنّ ألاّ تلاقيا

في الأثناء لم توقف الشّهرة المجنّحة طيرانها ولم تنِ، بل أذاعت بسرعة في كلّ أرجاء وطني خبر النّعمة القمينة بدائم الثّناء لإلهتي اللّطيفة المعطاء، وقصّتي الجديرة بالذّكر مدى الدّهر. فبادر خدمي وصحبي ومن تجمعهم صلات القرابة بي إلى خلع مظاهر الحداد الّتي اتّخذوا لمّا أتاهم خطأً خبر موتي، وأسرعوا من فورهم والفرحة المفاجئة على أساريرهم حاملين هدايا شتّى ليشاهدوني عائدا إلى النّور من عالم الموتى. فأنعشني أنا نفسي مرآهم بعد يأسي؛ وقدّرت(1) ممتنّا هداياهم السّخيّات، إذ اعتنى ذويّ بأقصى الاحتياط بحمل ما يفي بغرض الإنفاق بسخاء على ملبسي وبقيّة حاجياتي.

19-11 تقاعس عن إجابة داعي الرّهبنة

بعدما حدّثتهم كلاّ باللّياقة اللاّزمة، وأخبرتهم بسرعة بأتراحي الماضية وأفراحي الحاضرة، عدت إلى مشاهدة الإلهة المحبّبة واستأجرت في فناء^ المعبد بيتا اتّخذته سكنا مؤقّتا؛ مكبّا في تبرّع خاصّ على كلّ الطّقوس المقدّمة للإلهة، ومندمجا في حياة الكهنة المشتركة، معتكفا لعبادة الرّبّة

(1) مرأى/قدّرت: facie/facio(+genitivus جناس مختلف.

(2) مرأى/فناء: conspectum/conseptum جناس مضارع.

المعظّمـة. فما خلت ليلة ولا غفوة من طيف الإلهة وتنبيهاتها، بل أخذت تكرّر لي شـريف تعليماتها، لحضّي على أن أباشر أخيرا خدمتها الّتي منذ أمد وُسـمت لها. أمّا أنـا، فرغم حرارة رغبتي، كانـت تثبّطني رهبتي، بعدما اسـتخبرت بعنايـة عن متطلّبات عبادتها الصّعبة، ونذر البتوليّة الشّـديد المشقّة، وضرورة حماية حياة الرّهبنة المعرّضة لعديد الفـتن بإحاطتها بالحيطة الدّائبة؛ ولتفكيري المستمرّ في ذلك الأمر، ظللت، أمّا كيف فلا أدري، أرجئ وأؤجّل وإن كنت أتعجّل.

11-20 رؤيا صادقة

ذات ليلـة، رأيت في المنام كبير الكهنـة يقدّم لي ملء حجره شـيئا، ولمّا استفسرت عمّا يكون ولأيّ شـيء يصلح، أجاب بأنّها حصـص أرباح أُرسـلت إلـيّ من تسّـالية*، وأنّ خادمـا لي يدعى كنديدوس(1) أتـى في نفس الوقت. لمّا نهضـت قلّبت الرّؤيا في ذهنـي طويلا لتأويلها، سـيما أنّي على حدّ علمـي لم أملك أبدا عبدا بهذا الاسـم. لكن مهما يكن مـا يحمل لي حلمي من نبإ المستقبل، كنت أرى في إرسال مرابيح فأل كسب محقّق في كلّ الأحـوال؛ بقيت قلقا ومترقّبا حدثا سـارّا على تلـك الحال، أنتظر موعد فتـح المعبد في الصّبح. ولمّا أُزيحت السّـتر النّاصعة على الجانبين، صلّينا لصورة الإلهة المهيبة، وطفق الكاهن يطوف حول مناضد العطايا المنصوبة، ويتلو صلوات خاشـعة تعظيما للرّبّة؛ ويسـكب ماء مغترَفا من جـرن بداخل المعبد. بعـد الانتهاء من هذه العبادات وفق الأصول، انطلقت أصوات العبّاد معلنة طلوع

(1) الخـدم: حول اسـتخدام صيغة الجمع/المثنّى عند حديثـه عن مرافقيه في السّفر انظر الملاحظة 2: 15

النّهـار ومحيّية مولد النّور. فجأة وصـل من هيباتة* الخدم الّذين تركـت^ هناك لمّا سـجرتني فوتيس بغلطتها النّحسـة، بعدما علمـوا طبعـا بقصّتي، معيدين لـي جوادي الّذي اسـتردّوه بعد تنقّله من يد إلى يد بالتّعرّف على سـمة بظهره. فبقيت أتعجّب مـن صدق حلمي، ففضـلا عن تحقّق وعده بالمغنـم(1)، أعيد لي حصاني الأبيض مصداقَ كنديدوس اسم الخادم.

11-21 في انتظار السّيامة

بعد تلـك الحادثـة واظبت بمزيد مـن الحماس علـى العبادات، سـيما وفـي النّعـم الحاضرة عربون خيـر آت. وأخـذت رغبتي في السّـيامة تنمو باطّراد يوما بعد يوم ولا تعرف أدنى فتور؛ قصدت مـرارا رئيس الكهنة متوسّـلا إليه أن يُطلعني أخيرا على أسـرار اللّيلـة المقدّسـة. لكنّ ذلـك الرّجل المعروف برزانتـه ومحافظته على تعاليم الدّيانة الصّارمة مـا انفكّ، بحلم وترفّق وكما اعتاد الآبـاء تهدئة رغبات أبنائهم السّـابقة لأوانهـا، يصبّرني ويكبح تعجّلي، ويعلّل نفسـي القلقـة المتلهّفة بعـزاء الرّجاء الطّيّب؛ × ذاكـرا لي أنّ الإلهة نفسـها تعيّن بإشـعار منهـا اليوم الّذي يمكن لكلّ مرشّح تلقّي الأسرار فيه، وبعنايتها هي يُختار الكاهن لإمامـة طقوس السّـيامة، وبتعليمات مماثلة يتـمّ كذلك تحديد النّفقات الضّروريّة لتلك الحفلة الطّقوسـيّة، وأنّ علينا، حسـب رأيـه، تحمّل كلّ ذلك بجميل الصّبر، وعليّ الاحتياط إلى أبعد حدّ من التّلهّف والكِبْر، وتجنّب كلا الإثمين فلا أتخلّف متى دُعيتُ ولا

وعده بالمغنم: lucrosae pollicitationis مجاز مرسـل: التّرجمة الحرفيّة: وعده المُربح.

أتعجّل قبل تلقّي الأمر. وأخيرا أنّ كهنوته ليس منهم من فقد رشده أو قرّر موته ليجرؤ بدون أن تأمره بالتّخصيص إلهته على تعريض نفسه لخطر سيامة فيها تطاول على الحرمات، وانتهاك للمقدّسات(1). آتيا بذلك خطيئة مميتة؛ فإنّ مقاليد العالم السّفليّ ووكالة الخلاص الأبديّ محفوظة بيد الإلهة. وإقامة طقس العبور ذاته بمثابة موت إراديّ وخلاص ممنوح بنعمتها، وبنهاية الأعمار المقدّرة تستخلص مشيئة الرّبّة من بين المنيخين على البرزخ حيث ينتهي عالم النّور من أمكن استئمانهم على أسرار الدّين الجليلة، فتعيد عنايتها إحياءهم بنحو ما وتضعهم على مسار حياة جديدة. يجب إذن أن أمتثل للأمر العلويّ، وإن تكن مشيئة الإلهة العظيمة خصّتني منذ أمد بالشّرف الجليّ المتمثّل في تعييني ونذري لنعيم خدمتها، وأنّ عليّ الامتناع منذ اليوم كباقي عبّادها عن الأطعمة الرّجسة المحرّمة فألج بيسر إلى أسرار ديانتها السّمحاء.

11-22 الإذن بالسّيامة

بعدما قال لي الكاهن ذلك لم يعد التّلهّف يفسد طاعتي، بل واظبت أيّاما على حضور شعائر العبادة المنتظمة بمنتهى التّفاني والدّعة والصّفاء وامتناع عن تذكيره جدير بالثّناء. فما خذلتني رحمة ربّتي القديرة، وما عذّبتني بطول الإنظار، بل ما عتّمت أن أخطرتني ذات ليلة بهيمة بتعليمات غير مبهمة بمقدم اليوم المبتغى، × الّذي تمنّ فيه عليّ بكبرى المنى، وبالمبلغ المترتّب عليّ لتسديد نفقات الحفلة، وبتعيين كبير كهنتها مثرا^

(1) فقد رشده أو قرّر موته: perditatae mentis/destinatae mortis ترصيع.

بالذّات للإشراف على طقوس سيامتي، لتوافق برجينا بتدبير إلهيّ حسبما ذكرت. أنعشت مهجتي أقوالُ إلهتي هذه وبقيّة وصاياها الفيّاضة بالودادة؛ وقبل أن يلوح الصّباح الوضّاح(1)، نفضت النّوم عنّي وهرعت إلى صومعة كبير الكهنة، فلقيته خرج للحظته من غرفته، فبادرت بتحيّته. كنت قد قرّرت، بحزم أكثر(2) ممّا مضى، أن أطالبه بطقس المسارّة، باعتباره الآن حقّا لي؛ لكنّه بادرني حالما لمحني: "إيه لوقيوس، طوبى لك ويا سعدك، أنت الّذي كرّمتك الإلهة العظيمة بمرضاتها." واستأنف: "لِم تقف الآن عاطلا متّاقلا؟ ها قد حلّ اليوم الّذي ما فتئتَ تتمنّاه، يوم تُدخل وفق الأوامر الموحاة من ربّتنا ذات الأسماء المتعدّدة وبيديّ هاتين إلى أقدس الأسرار الإلهيّة." ومدّ الشّيخ يده بودّ فقادني في الحال إلى باب المعبد الكبير وأقام بفائق الجلال ووفق الأصول طقس الفتح وقدّم نُسُك الصّبح. ثمّ أخرج من مخبئ بالمعبد أسفارا خُطّت فيها طلاسم مستغلقة، بعضها صور حيوانات شتّى محشّاة بعبارات مقتضبة، وأخرى لفائف ذات عُقد، معقوفة على شكل الدّولاب وملولبة كالعنم، حُصّنت قراءتها على غير العارفين، ومن نفس المصادر أعلمني بما يلزم إعداده لغرض طقس السّيامة.

11-23 طقوس المسارّة

اقتنيت فورا تلك المستلزمات مع الاستيفاء، وعظيم السّخاء، بنفسي أو بواسطة زملائي؛ ولمّا آن أوان الاحتفال، كما ذكر كبير

(1) الصّباح الوضّاح: luce lucida جناس مطلق.

(2) لقيت/بحزم أكثر: continatus/constantius جناس مضارع.

الكهنة، قادني إلى المغطس القريب، محفوفا بجمع من العبّاد؛ فسلّمني أوّلا إلى المغسل العاديّ مستخيرا لي الآلهة، ثمّ طاف حواليّ ينضح مرارات ماء التّعميد عليّ. ثمّ أعادني إلى المعبد، وقد انقضى من النّهار قسمان، أبقاني أمام قدمي الرّبّة، وأسرّ لي بتعليمات ارتفعت روعتها عن متناول الكلم، ثمّ أوعز لي جهارا، بشهادة الجميع، بالامتناع عن ملاذّ الطّعام وأكل أيّة موادّ حيوانيّة وشرب الخمر مع الطّعام عشرة أيّام تباعا. بعد أداء تلك الفرائض حسب الأصول بالتزام واحترام، جاء اليوم الموعود للموعد الرّبّانيّ، والشّمس مالت للمغيب حاملة في ركابها المساء. فإذا بجموع يأتون من كلّ صوب لتكريمي بالهدايا وفق طقوس السّيامة العتيقة؛ ثمّ أزاح الكاهن عنّي العوامّ، وغطّاني بثوب من كتّان غير مصبوغ ثمّ أمسك بيدي وقادني إلى قدس الأقداس. قد تسأل، أيّها القارئ النّبيه، بشيء من اللّهفة، عمّا قيل وصُنع بعد ذلك، وسأقوله لو كان يُسمح بقوله، وستعلمه لو كان يُسمح بسماعه. غير أنّ أذنيك ولساني سترتكب إذّاك نفس الذّنب، هذا إفشاءَ السّرّ الكفور، وتانك الفضول الأثيم؛ لكن ربّما كانت تشوّقك رغبة ورعة، فلن أعذّبك بإطالة حيرتك؛ اسمع إذن وصدّق لأنّ ما أقول عين الحقيقة. بلغتُ برزخ الموت ووطئت عتبة بروسربينة* ثمّ عدت محمولا عبر كلّ العناصر، ورأيت في عزّ اللّيل الشّمس تسطع بنورها الشّعشعانيّ، ومثلت أمام آلهة العالم السّفليّ والآلهة الأعلين وجها لوجه، وقدّمت لهم عن كثب عبادتي؛ هأنذا أخبرتك بأشياء لا بدّ، مع أنّك سمعتها، أن تجهلها؛ وإنّي مخبرك فقط بما يمكن التّصريح به

لأفهام غير العارفين دون ارتكاب إثم عظيم.

11-24 في رحاب إيزيس

حلّ الصّباح، وبعد قضاء المناسك، تقدّمت للسّيامة وعليّ اثنا عشر طيلسانا، وهذا الزّيّ لا شكّ ذو دلالة تتّصل بأسرار الدّين، لكن لا قيد يمنعني من الحديث عمّا رآه إذّاك كثير من الحاضرين. أمرني الكاهن بالجلوس على منبر خشبيّ أقيم وسط المعبد أمام تمثال الرّبّة، وعليّ ثوب من كتّان محبور برائع الألوان، ومن كتفي يتدلّى دثار فخم على ظهري حتّى الكعبين. وأنا مزخرف في كلّ مكان بصور حيوانات متعدّدة الألوان: هنا تنّينات الهند، وهناك عنقاوات أصقاع الشّمال النّائية، تلك الوحوش الغريبة المجنّحة المتحدّرة من عالم آخر: والمسيمون يدعون هذا الدّثار بالحلّة الأولمبيّة. كنت أحمل باليد اليمنى مشعلا متّقدا، وكُلّل رأسي بعصابة رائعة من سعفة ناصعة تمتدّ أوراقها إلى الأمام على شكل أشعّة؛ بعد ما زوّقوني في زيّ الشّمس على هذا المثال، وأوقفوني منتصبا في هيئة التّمثال، أزيحت السّتائر فجأة، وانتشر النّاس من حولي ليشاهدوني؛ ثمّ احتفلت بتلقّي الأسرار الرّبّانيّة هذا المولد الأسعد، وأقمتُ مأدبة بهيجة حفلت بما لذّ وطاب. في اليوم الثّالث أيضا، أقيمت شعائر مماثلة، وفطور طقسيّ، واستُكملت سيامتي حسب الأصول؛ بعد ذلك، بقيت هناك بضعة أيّام أنعم بلذّة لا تضاهى وأنا أتأمّل تمثال الإلهة، مشدودا إليها برباط جميلها الّذي لا يقدّر بمال. أخيرا وبإيعازها، وبعدما أدّيت لها، بنحو لا يفي قطعا بالغاية، لكنّه أتى على قدر طاقتي، أخذت أُعدّ للإياب إلى بيتي بعد طول الغياب، فاكّا

بأشدّ المشقّة عروة المحبّة المتوثّقة؛ فسجدت أمام صورتها جثيًا ومسّحت بوجهي قدميها مليّا، وانفجرت عبراتي، ثمّ دعوتها بصوت مختنق مقطّع بشهقاتي:

11-25 وداع الإلهة المعينة

"إلهتي المقدّسة، يا راعية النّوع الإنسانيّ مدى الدّهر، ومسبغة أنعمك على البشر لألم جراحهم، ومانحة أمومة قلبك الرّؤوم للبائسين في أتراحهم. لا يمرّ نهار ولا منام(1) ولا أصغر آن خِلْو من نعمك، ودون أن تقدّمي للنّاس في البرّ والبحر حمايتك، فتطردي أعاصير الحياة وتمدّي إليهم يدك المساعدة الّتي بها تسلّكين خيوط الأقدار المتشابكة وتهدّئين عواصف الدّهر المحتدمة وتخضعين مجاري الأفلاك النّحسة. أنت يا من يعظّمك آلهة العالم العلويّ، ويجلّك آلهة العالم السّفليّ، ومن تحرّكين الأفلاك على مدارها، وتمدّين الشّمس بضيائها، ويخضع هذا العالم لحكمك، والتّرتار* موطئ قدمك، والنّجوم لك تستجيب، والأزمان إليك تؤوب، ويبتهج الآلهة بك، وتخضع العناصر لك. بأمرك تهبّ الرّياح وتُثقل المعصرات، وتُنبت البذور وينمو النّبات؛ ومن مهابتك تقشعرّ الطّيور المحلّقات في السّماء، والوحوش الهائمات في الجبال، والزّواحف المختفيات تحت التّراب، والوحوش السّابحات في البحار. لكنّي لحمد أفضالك ضعيف الحجى، ولتقديم القرابين لك قليل الغنى، وتعوزني لبيان ما أحسّ به إزاء جلالك فصاحة اللّسان، بل يقصر عنه ألف فم وألف لسان أو مديح مسترسل إلى آخر الزّمان. لذا سأحرص

(1) لا نهار ولا منام: nec dies nec quies جناس مضارع.

على فعل ما بوسع عبد صادق التّقوى، لكنّه معدم من ناحية أخرى: سأحفظ قسماتك البهيّة وجلالتك الإلهيّة في خفايا صدري وأتمثّلها مدى عمري." بعدما دعوت الإلهة العظمى بهذا الشّكل، عانقت مثرا كبير الكهنة الّذي غدا أبا لي، واعتذرت له وأنا أطوّق رقبته، وأغمره بفيض من القبَل، معتذرا عن عجزي عن ردّ كفء تلك الجمائل.

11-26 في معبد إيزيس برومية

ثمّ بعدما تلبّثت طويلا أثني على أفضاله شكرا جزيلا، غادرته أخيرا عازما على الإياب رأسا إلى بيت آبائي بعد طول الغياب؛ وبعد أيّام قليلة، وبوحي من الإلهة القديرة حزمت أمتعتي بعجلة، وقصدت رومية على متن سفينة. فوصلت بفضل ريح طيّبة إلى ميناء أغسطس* بسرعة معجبة، ومنه انطلقت سريعا على عربة، فوصلت المدينة المقدّسة مساء عشيّة النّصاف(1) من كانون الأوّل. من ثمّة، كانت أولى أولويّاتي أن أقدّم يوميّا صلاتي لجلال الإلهة الملكة إيزيس* المعبودة هنا تحت اسم إلهة الحقل المستمدّ من موقع معبدها(2)؛ وكنت لها عابدا دؤوبا، فلئن كنت في معبدها غريبا، فقد بات دينها لي وطنا حبيبا. وها أنّ الشّمس العظيمة أنهت، متنقّلة على مدار البروج، حولا بالتّمام، وإذا بي أتلقّى مجدّدا في المنام من إلهتي

(1) النّصاف: يؤرّخ الرّومان بغرّة الشّهر kalendae أو نصافه idus أيّهما أقرب؛ ويستخدمون كذلك Nonae وهي اليوم الخامس أو السّابع من الشّهر. والعيدوس يوافق 15 أو 13 من الشّهر، وهو اليوم الّذي تُدفع فيه الدّيون. والتّاريخ هنا هو 12 ديسمبر.

(2) إلهة الحقل: نسبة إلى حقل مارس برومية.

يقظة العناية دائمة الإنعام، إخطارا عن مسارّة جديدة وطقوس سيامة مزيدة؛ فلبثت أتساءل محتارا عن مرادها وغايتها، ولا غرو فقد كنت أحسبني أُطلعت تماما منذ أمد على أسرار ديانتها.

11-27 إيزيس تطلب منه سيامة جديدة

لبثتُ أعرض مشكلتي الإيمانيّة على عقلي تارة وأستشير العارفين بالأسرار تارة حتّى اكتشفت حقيقة جديدة أكثر إثارة. هي أنّي تشرّبت فقط من أسرار الإلهة العظمى، ولم أتلقّ بعد نور الإله الأسمى، أوزيريس* الجبّار أب الآلهة الأعلى. ورغم التّقارب، بل وحدة الجوهر بين هاتين القوّتين الإلهيّتين ودينيهما، ثمّة فرق كبير في أسرار كليهما؛ لذا عليّ أن أفهم أنّي مطلوب لأخدم كذلك الإله الأعظم. ولم تبق المسألة طويلا بذلك الإبهام، إذ ما لبثت أن رأيت في المنام، في اللّيلة التّالية، واحدا من الكهّان يحمل ثيابا من الكتّان، وبيده عدد من المزاريق، وعساليج من العُلّيق، وأشياء أخرى لا يجب أن أذكر لها خُبرا، فيأخذها إلى بيتي ويجلس على أريكتي ثمّ يأمر بإعداد وليمة للاحتفال بالدّيانة العظيمة. وليتسنّى لي بالتّحقيق التّعرّف عليه بسمة مميّزة ثابتة، كان لالتواء طفيف في عرقوب قدمه اليسرى يمشي بتؤدة وبخطوة متردّدة. بعد تجلّي الإرادة الإلهيّة بهذا الوضوح الأبلج، زال كلّ أثر من الغموض والتّلجلج؛ وبعد إقامة صلاة الصّبح لربّتي، أسرعت أتفرّس في كلّ من أمامي، عسى أن يكون فيهم من له مشية كالّتي رأيت في منامي. فما خاب ظنّي إذ رأيت واحدا من حملة التّوابيت يطابق في القدم والقامة والهندام حلم البارحة بالتّمام؛ وعلمت لاحقا أنّه يدعى أسينيوس مركلّوس، وهو اسم

لا يخلو من التّورية عن تحوّل هيئتي. ودون توان ذهبت رأسا إليه، ولم يكن من جهته يجهل ما أنوي عرضه عليه، إذ تلقّى هو الآخر سابقا أمرا مطابقا بإمامة الطّقوس لحفل تكريسي. فقد رأى البارحة في الحلم، أنّه بينما كان يسوّي أكاليل على تمثال الإله الأعظم، سمعه ينبئه بنفس الفم الّذي يملي به مصائر كلّ الورى، بإرسال رجل من مادورة* إليه شديد الفقر، ويطلب منه سيامته على الفور، فإنّ عنايته تعدّ له مجدا أدبيّا(1)، وله هو الآخر ربحا سنيّا.

11-28 سيامة ثانية

بعد نيل وعد السّيامة، ظلّ ضيق ذات اليد يعرقلني ويحول دون ديدني؛ إذ تأكّلت مواردي الهزيلةَ نفقات السّفر، ثمّ إنّ مصاريف حاضرة بمثل ذاك الكبر تربو ربوّا فائقا عن كلفة المعيشة في مدن الأمصار الّتي عشت فيها سابقا. فكان فقري الشّديد يعذّبني ويسحقني، كما يقول المثل، بين الذّبيحة والحجر. فكنت في أشدّ الحرج من إلحاح الرّبّ عليّ رغم فقري. بعدما حثّني كثيرا، أمر أخيرا فبعت بعض ملبوساتي وحصلت على مبلغ يفي على ضآلته بحاجياتي. إذ أصدر إليّ أمرا صريحا بهذه العبارات: "لو أردتَ اقتناء ما تنشد منه بعض اللّذّة لما أبقيتَ حتّى على ثوبك، أفتراك الآن وأنت إزاء عيد بمثل هذه الجلالة، تتردّد مخافة فقر لن تأسف عليه أبدا؟" × من ثمّ أحضرت كلّ المعدّات الضّروريّة، واقتصرت مجدّدا لعشرة أيّام على الأغذية غير الحيوانيّة؛ فضلا عن ذلك،

(1) مجد أدبيّ: gloriam studiorum وstudium عديدة المعاني: التّفاني، الدّراسة، الدّأب، الأدب..

حلقت رأســي وتنـوّرت بطقوس كبير الآلهــة اللّيليّة. وصرت أؤمّ بكلّ الثّقة شـعائر هذه الدّيانة الشّـقيقة. فكان ذلك يقدّم لي جميل السّـلوان عن غربتي ويهيّء لي أيضا أسـباب اليسـرة. إذ كانت المحامـاة بإلهام إونتوس* الموفّق المعين تدرّ عليّ بعض الموارد لامتلاكي لغة اللاّتين.

11-29 طلب ربّانيّ بإجراء سيامة ثالثة!

وهـا أنا بعد مـدّة وجيزة أتلقّى فجأة أوامـر إلهيّة غريبة وغير متوقّعة بإجراء طقوس سـيامة ثالثة. بقيت إذّاك مشوّش البال في أشـدّ القلق والحيرة أقلّب أفكاري في سـريرتي، متسـائلا عن المقصد الرّبّانـيّ الجديـد الخفيّ، وما تبقّى لاسـتكمال المسـارّة الّتـي سـبق أن أعدتهـا. وأقول في نفسـي: "لا بـدّ أنّ الكاهنين أخطآ في إجراء الطّقوس أو لم يسـتوفياها." بل بدأت سـاورتني بصدقهما ظنّة، وصرت في اضطـراب خواطري الملتجّة كمن به جنّـة. حتّى أوحى إليّ طائف ودود فـي إحدى اللّيالي: × "ليس في هذه السّلسـلة الطّويلة من الشّـعائر ما تخشـى منه، ظنّا أنّ عنصـرا ما قـد أُغفل في ما سـبق؛ لولا تهلّلـت بالعكس بهذا التّكريم الإلهيّ المتكرّر واستبشرت، وابتهجت بالأحرى بنيلك ثلاثا ما يتيسّـر بالكاد مرّة واحدة لغيرك، وتشيم من هذا العدد بنحو سـويّ بشـرى نعيم أبديّ. ثمّ يكفـي لتقتنع بضرورة السّـيامة القادمة، أن تفكّر الآن مع نفسـك أنّ المسـوح الّتي ارتديتها في مصرك نـذرا للرّبّة العظمـى محفوظة في نفـس المعبد حيث أودعتها، فأنت لا تسـتطيع فـي أعياد رومية إقامـة الصّلاة بها أو الظّهـور إن أُمـرتَ بذلك اللّبـاس البهيج؛ فما أسـعد إذن وما

أيمن وأصلح لك أن تمرّ مجدّدا بطقوس السّـيامة امتثالا للإلهين العظيمين بروح مفعمة بالسّعادة."

11-30. كشف ربّانيّ

هكذا أوحى إليّ في نومي الحالم المشـير الجليل باللاّزم؛ وبدون تأخيـر أو تأجيل المتهاون، رحت فورا إلى الكاهن فرويت له ما رأيت؛ وألزمت مذّاك نفسـي بتغذية خالية مـن الموادّ الحيوانيّة، بل زدت تطوّعا عن الأيّام العشـرة المنصوص عليها في الشّريعة الأزليّة، وجهّزت عدّة السّـيامة بسخاء بباعث التّقوى المشبوبة، لا تقيّدا بالمقادير المطلوبة. فما ندمت، وحقّ هرقل، عمّا تجشّـمت وأنفقت من مالي؛ إذ يسّـرت عناية الآلهة بموارد المحامـاة حالي. أخيرا بعد أيّـام معـدودات، تفضّـل الإله الأفضل بين الآلهـة الأعظمين، والأشـرف بين الأفضلين، والأعلى بين الأشـرفين، وسـيّد الأعلين أوزيريـس* بالظّهور لـي في المنام، لا متنكّرا في زيّ مسـتعار، بل متجلّيـا فـي كلّ مهابته أمامـي. فأهاب بي أن أعـود بهمّة إلى القضـاء في كنف رعايته السّـامية، وألاّ أخشـى نمائم الحسّـاد النّابعـة هناك من معرفتي الواسـعة، ثمرة جهـودي المثابرة، وألاّ أتعبّـد إليه فـي غمرة العـوامّ. فقد اصطفاني لمجمـع الخدّام بل ضمـن المجلس الأعلى المعيّن لخمسـة أعوام. فحلقت(1) شـعري بالكامل مـرّة أخرى، وطفقت أؤدّي فرحـا مهمّتي الكبرى، ضمن هذا المجمع العتيق المؤسّـس من عهد سُـلاّ*، غير مغلّل أو مغطّ قرعي بل حاسرا أمام كلّ من يرى.

(1) حلـق الشّـعر: مرّة أخرى (إذ سـبق أن أشـار إليـه فـي 11-28) تعبير عن التّجرّد عن الشّـهوات الحسّـيّة تماما (ففي 2-9 أشـار إلى أنّ فتنة المرأة تتبلور في شعرها).